

الحرّ البزيماني والعمّانيّة الأثرية

مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الذوّار

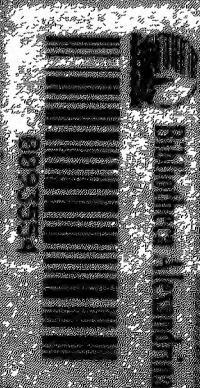
لحمّدين محمود الحكّمي الملقّب بابن أجا

الطبعة سنة ١٩٨٨ م

مئة
محمد وهما



دار الفكر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَعَ رَحْلَةِ الْأَمِيرِ شَيْخِ بْنِ مَهْدِي الدَّوَّادَارِ



الكتاب ٧١٦
الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م
(١٥٠٠ نسخة)

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ، كما يمنع الاقتباس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ، إلا بإذن خطي من دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - ت.٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - بريقياً : فكر - تلكس 411745 Sy FKR Tx

الصف التصويري : على أجهزة C.T.T. السويسرية
الإفشاء (أوفست) : في المطبعة العلمية بدمشق

المقدمة

موضوع هذا الكتاب وصف رحلة الحملة العسكرية استمرت من سنة ٨٧٥ هـ وحتى ٨٧٧ هـ ، ابتدأت من القاهرة وانتهت إلى بلاد الإمارة الدلغادرية التي كانت تقوم على ما يسمى (بالثغور والعواصم) .

وقد نجحت هذه الحملة نجاحاً باهراً ، فكان انتصارها بعد إخفاق ثلاث حملات قبلها له روعته ومكانته ، وكانت جديدة بأن تدون حوادثها في كتاب مستقل ، وأن تقام بناية رائعة ذكرى لهذا الانتصار الباهر للدولة المملوكية على الإمارة الدلغادرية .

وهكذا كان ، فقد أنشأ نائب الشام الأمير برقوق في أعلى جبل قاسيون - المطل على مدينة دمشق - قبة ذكرى لهذا الانتصار ، بقي بعض آثارها إلى سنة ١٩٤٢ م في عصرنا هذا ، وعرفت طوال خمسة قرون ونصف بقبة النصر .

وقد ألف شمس الدين محمد بن محمود الحلبي الشهير بابن أجا قاضي الجيش في هذه الحملة كتاباً ذكر فيه تفصيلات ذات بال عن رحلة الجيش المملوكي الأخيرة وانتصاره في محاربة (شاه سوار) صاحب الإمارة الدلغادرية ، وهو هذا الكتاب الذي تقدمه إلى القراء .

شعرت الحكومات المجاورة لبلاد الشام بضعف حكومة المماليك بعد هذه الحملات الأربع على الإمارة الدلغادرية الصغيرة ، فطمعت في الاستيلاء على بعض البلاد الداخلة في حوزتها .

فلم تكذب تفرح بلاد الشام ومصر بانتهاء هذه الحروب ، حتى فاجأ الحدود الشامية حسن بك الطويل ملك العراقين ، واستولى على بعضها ، فاضطرت الدولة لإرسال جيش خاص طرد جنود حسن الطويل عن حدود البلاد .

وتلا ذلك تجهيز جيش سادس لتأديب سيف أمير عرب آل فضل ، لقتله أزدمر نائب حماة ، ففر المذكور ودخل حدود مملكة يعقوب بن حسن الطويل ، فطارده الجيش المملوكي ، واجتاز حدود مملكة الطويل ، واتخذ ذلك ذريعة لمحاصرة مدينة الرها طمعاً في الاستيلاء عليها ، فحصلت مع الحامية التي فيها معركة أريد فيها أكثر الجيش المملوكي ، وأسرقائه يَشْبَك الدوادر ، وهو الذي كانت الدولة تعتز بانتصاراته ، وأعدم فيها بعد أيام .

ثم أعقب ذلك ثورة أخرى في بلاد الإمارة الدلغادرية ، فإن السلطان محمداً الفاتح كان يُمِدُّ شاه سوار خفية ، فلما انهزمت جيوش سوار وقبض عليه وأعدم في القاهرة ، تظاهر بالعدوان ، ودفع علي دولات أخاشاه سوار إلى إشهار الثورة والعصيان على المماليك ، فعادت الدولة المملوكية تجهز الجيش تلو الجيش حتى قضت على هذه الثورة أيضاً .

ثم برز السلطان العثماني بايزيد إلى الميدان ، وتظاهر بالعداء لدولة مصر والشام ، فكانت بين الجيشين معارك عديدة كان النصر في أكثرها حليف دولة المماليك ، ثم عقد الصلح بين هاتين الدولتين^(١) . وقد أنهكت هذه الحروب المتتالية

(١) قامت في بلاد الأناضول - تركيا حالياً - دولة آل عثمان ، وقد تعددت تسميات المماليك لها : دولة الروم - أبناء عثمان - التركان . ذلك أن أصلهم قبائل تركمانية نصف متحضرة سكنت بلاد الروم ، بينما احتكر المماليك كلمة « الترك » لأنفسهم .

وقد حكم المماليك بلاد الشام ومصر ، وهم أنماط من أجناس شتى : ترك ، جركس ، روم ، سلاف ، تتار ، تركان ، ولم يكن في جيوشهم أحد من العرب حتى ولا من أبناء بلاد الشام =

الدولة المملوكية وأفقرتها وأفقدتها أكثر جيشها مع عدد كبير من الأمراء والضباط ، فكانت إرهاباً بانقراضها واستيلاء الدولة العثمانية عليها سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م بعد تسلّم السلطان سليم الأول عرش الدولة العثمانية .

ولما كانت أخبار هذه الحوادث متفرقة منشورة في كتب التاريخ ، فقد رأيتُ جمعها وتصنيفها وإضافتها إلى رحلة (شمس الدين محمد بن محمود بن أجا الحلبي) بكتاب سمّيته (العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك) .

وقد حافظت في هذه النصوص على أسلوبها الذي وردت فيه مع بعض التهذيب ، ذلك أن مؤرخيها ممن عاصروا تلك الأحداث ، وأسلوبها هو صورة لذلك العصر .

وبذلك يرى القارئ نصوصاً متسلسلة عن حوادث ذات بال جرت في مصر والشام وحدودها الشمالية ، وفيها الشيء الكثير من تاريخ بلادنا العربية .

محمد أحمد دهمان

= ومصر التي حكموها ، واصطلح معظم المؤرخين على تسميتها بدولة الترك ؛ وإن لم يكن جميع حكامها من الأتراك ، وكانت اللغة الرسمية في عهدهم اللغة العربية إلى جانب اللغة التركية التي كان المماليك يتراطنون بها وحدهم . ولهذا فقد أقاموا مدرسة لهم في قلعة القاهرة تعلم المماليك الفروسية واللغة التركية واللغة العربية والأمور الدينية ، وكانت دولتهم أرقى دولة في عصرها .

مخطوطة رحلة يَشْبَك الدوادار^(٢)

وصف المخطوطة :

هذه الرحلة من مخطوطات مجمع اللغة العربية بدمشق - المجمع العلمي العربي سابقاً - وهي مصورة على (١٣٩) صفحة ، أهداها للمجمع أحد أعضائه العلامة المرحوم أحمد تيمور ، وقد كتب في آخر صفحة منها ما يلي :

استُنسختُ هذه الرحلة السياسية بطريق الفتوغرافية لنفسى من الكتاب غرو (٢٦٨) المحفوظ بالمكتبة السلطانية بسراي طوب قبو بالقسطنطينية في يوم ٢٥ رمضان سنة ١٣٢٧ و ٩ أكتوبر سنة ١٩٠٩

أحمد زكي

سكرتير ثاني مجلس النظار المصري

وكتب على ظهر الصفحة (١١٦) أن الصفحة (١١٧) ناقصة من الأصل ، وفي كل صفحة (١٣) سطرًا بخط واضح مقروء ، تخلو أكثر كلماته من النقط ، وهذا المخطوط خلو من التاريخ ، غير أن قاعدة خطها توحى بأنها كتبت قبل الألف . وهي من القواعد المستعملة في القرن الثامن والتاسع ولا يبعد أن تكون كتبت زمن المؤلف .

(٢) اصطلاح العلماء تسمية السفر إلى طلب العلم رحلة ، وإلى الأمور العادية سفره ، فيقولون رحل إلى بغداد لطلب العلم والسمع على الشيخ ، وسافر إلى الهند للتجارة .

تسمية هذه الرحلة :

وإذ سماها مستنسخها ومصورها الأستاذ أحمد زكي (رحلة سياسية) ، فقد توبع على هذه التسمية ، فكتب المجلد على كعب الكتاب « رحلة الأمير يَشْبُك » ، والظاهر أن هذا من تسمية الأستاذ أحمد تيمور مُهدي هذه الرحلة حالة كونها مجلدة ، ومكتوب على كعب جلدها بالذهب ما تقدم ، ولكن السخاوي سماها (سفرة) . فقال عن المؤلف : (عمل سفرة سوار) وفيها منكر كبير ^(٣) .

وسواء سمينها رحلة أو سفرة ، فهي عبارة عن جريدة رسمية ، مثل التي يجري الاصطلاح عليها اليوم ، من تكليف القائد العام أحد بطانته تدوين الوقائع اليومية التي تجري للجيش ، وعليه فلا تكون هذه الرحلة أو السفرة رحلة بالمعنى الكامل ، فلا تتعرض لوصف البلاد والأماكن التي ينزلها الجيش ، أو تتكلم عن تاريخها . وإنما جهد المدون أن يصف حركات الجيش ووقائعه ، وما يصادفه في طريقه من شؤون ، فالرحلة إذن عسكرية فقط .

ولكن المؤلف وهو قاضي العسكر ، كُلف بالسفر إلى مدينة تبريز عاصمة السلطان حسن الطويل ، ليقوم بمفاوضته ببعض الشؤون ، وحينئذ خرج من نطاق المدون العسكري إلى نطاق الرحالة الاجتماعي ، فأورد ملاحظات ذات نفع عن المنازل والمحطات التي نزلها ، ووصف البلدان والقرى التي مر بها ، وأتى بوصف قيم لبلاط حسن الطويل ومجالسه واجتماعه مع علماء تلك الجهات ، ومناقشاته العلمية معهم .

وهذا يندفع اعتراض المعارض على المؤلف ، بأنه لم يأت بوصف البلدان

(٣) الضوء اللامع ٤٣/١٠ ، ولعله يعني بالمنكر إطنابه في مدح يَشْبُك وكثرة تملقه وإدعائه خوارق العادات في الشؤون العادية .

والمنازل التي نزلها الجيش في هذه الرحلة ، لأن مهمته في تأليف هذه السفارة كانت مهمة رسمية مقيدة بالتقاليد الرسمية ، فلا يستطيع التخلي عنها لأنها وصف لحركات الجيش ، لا للبلدان التي يمر بها أو ينزل فيها .

على أن الأماكن المذكورة في هذه السفارة ، من القاهرة إلى بلاد الإمارة الدلغادرية معروفة مشهورة ، وقد تكلم عن أكثرها بل كلها الجغرافيون الأقدمون ، ومن ذكرها من المتقدمين من رجال الدولة والإدارة شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري في كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف) ثم تبعه على ذلك القلقشندي في صبح الأعشى . ونحن نورد هنا جريدتين بأسماء هذه المنازل الأولى اليمنى عن الصبح ، والثانية اليسرى عن هذه السفارة ، ليرى الباحث الفرق بينها والتطور الذي طرأ عليها في المدة بين السفارة وبين وفاة مؤلف صبح الأعشى سنة ٨٢١ هـ :

المنازل بين القاهرة ودمشق

في زمن القلقشندي وفي زمن رحلة يشبك

القلقشندي	يَشْبَكُ	القلقشندي	يَشْبَكُ
سرياقوس	الريدانية	حبوة	العريش
بير البيضا	سرياقوس	الغرابي	الزعة
بَلْبِيس	بَلْبِيس	قطيا	تل العجوز
السعيدية	الخطارة	صيحة نخل معن	غزة
الخطارة	الصاحية	المطيلب	العوجا (نهر العوجا)
قبر الوايلي	الغرابي	السودة	قاقون
الصاحية	قطيا	الواردة	اللجون
بئر عفرى	بئر العبد	العريش	بيسان
القصر	السودة	الخروبة	طبرية

المنازل بين القاهرة ودمشق
في زمن القلقشندي وفي زمن رحلة يشبك

<u>القلقشندي</u>	<u>يَشْبَك</u>	<u>القلقشندي</u>	<u>يَشْبَك</u>
الزعقة	الخربة	ذرعين	
رفح	شقحب	عين جالوت	
السلفة	قبة يلغا في دمشق	بيسان	
الداروم		الجامع	
غزة		زحر	
الجنيبي		إربد	
بيت دارس		طفس	
قطرى		الجامع	
لد		الصنين	
العوجا		غباغب	
الطيرة		الكتوة	
قاقون		دمشق	
قمحة			
جنين			

نهج تحقيق الرحلة :

هذا الكتاب كأكثر الكتب التاريخية المؤلفة في القرنين التاسع والعاشر مطبوع بطابع ذلك العصر ، وقد دخلته كثير من الألفاظ التركية والفارسية والتتية ، فهو برزخ بين الفصيح والعامي ، فلا هو فصيح خالص ولا عامي خالص .

وهو بعد ذلك كله مملوء باللحن الظاهر الذي ليس له وجه في العربية ، وقد

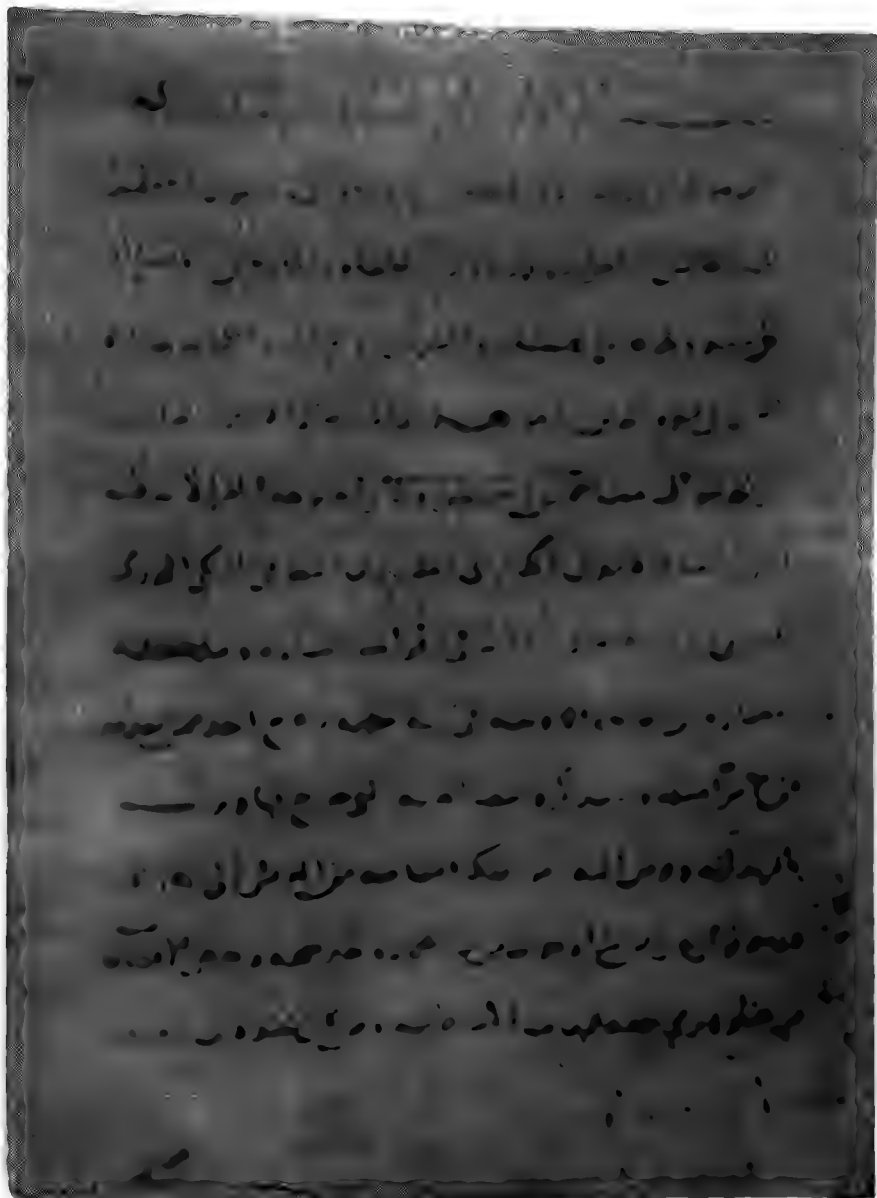
أبقينا جميع ما وجدناه من ذلك على حاله من غير تبديل ، فليس لنا أو لغيرنا أن يبدل الصيغة التي أظهرها المؤلف فيه .

مؤلف الرحلة :

هو قاضي الجيش في الرحلة التي رافقها ، وأحسن من ترجم له هو السخاوي في الضوء اللامع (٤٣/١٠) فقال : محمد بن محمود بن خليل الشمس الحلبي الحنفي ، ويعرف بابن أجا^(٤) وهو لقب أبيه ، ولد في سنة عشرين وثمان مئة بجلب ونشأ فيها ، فحفظ القرآن ، والقديري ، والمنار . وفي النحو : الضوء . واشتغل عند البدر بن سلامة وغيره ، وسمع على البرهان الحلبي ، ولقي شيخنا [الشهاب بن حجر] فأخذ عنه ، ثم بالقاهرة حين دخلها صحبة خاله في سنة ثلاث وأربعين ، وأخذ حينذاك عن ابن الديراني ، ثم كثر تردده إلى القاهرة ، واصطحب بخطيب مكة أبي الفضل ، وبالأمر أربك الظاهري وأم به وقتاً ، وخالق الناس بالجميل ، ثم ارتقى لصحبة الدوادار الكبير يَشْبَك من مهدي وراج بسبب ذلك وسافر رسولاً منه ومن السلطان إلى عدة ممالك كتبريز والروم وغيرها ، وحج مرتين ، وزار بيت المقدس والخليل مراراً ، واستقر في قضاء العسكر عوضاً عن النجم القُرْمي ، وقعد بالشفاعات خصوصاً في أواخر عمره ، وحمد الناس أمره فيها ، فكنت ممن حمد أمره معه ، وتكلم عنه في المؤيدية وغيرها ، وحدث بالشفاء ، وترجم فتوح الشام للواقدي بالتركي نظماً في اثني عشر ألف بيت . وعمل (سفرة سوار) وفيها منكر كثير^(٥) ، وكان عاقلاً عارفاً ذكياً متودداً متواضعاً . مات في جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانين بجلب .

(٤) يقول الأستاذ الزركلي في الأعلام (أجا و أجا) وكلاهما صحيح .

(٥) كأنه يريد بذلك إطنابه في مدح يَشْبَك وكثرة تملقه له ، وجا في الضوء اللامع (٢٧٣/١٠) في ترجمة الأمير يَشْبَك حينما ذكر حربه مع سوار فقال : وكان أمراً مهولاً أفردته إمامه الشمس بن أجا بالجمع فبالع .



الصفحة الأولى من المخطوطة

تمهيد

تاريخ الامارة الدلغادرية

علاقة الشام بمصر

العواصم والشغور

بلاد الإمارة الدلغادرية

تحقيق تسميتها بالدلغادرية أو ذي القدرية

ملخص تاريخ هذه الأسرة

تاريخ الإمارة الدغادرية

علاقة الشام بمصر :

كان القطر المصري مع القطر الشامي دولة واحدة في زمن دولة المماليك ، يشتركان في السراء والضراء والأفراح والأتراح ، يصيب أحدهما ما يصيب الآخر من خير أو شر ، من غم أو غم ، وينجد أحدهما الآخر في الشدائد ، ويتحف بعضهما بعضاً بالهدايا والتحف .

وقد حصل بينهما تمازج غير قليل بالدم بسبب الإصهار ، ونزحت أسر عديدة من مصر إلى الشام ، ومن الشام إلى مصر ، فقصة الشام هي قصة مصر ، وتاريخ مصر تاريخ للشام .

كان للثورة التي قام بها شاه سوار على حدود بلاد الشام الشمالية أثر بليغ في داخل البلاد وخارجها بعد أن جهزت إليه الدولة ثلاثة جيوش فدحرها . فقد جعلت هذه الثورة داخل البلاد في اضطراب وهرج ، وفي الخارج سببت لها أطماعاً من الدول والإمارات المجاورة لها . فكان على الدولة أن تستعيد هيبتها ، وأن تعد حملة أخرى حينما تحقق الحملة الأولى ، فكتب لها في الحملة الرابعة النجاح بعد أن تكبدت خسائر فادحة في الأنفس والأموال .

ومن البديهي أن الشام كانت تشارك مصر في نفقات هذه الحملات ، وتساهم بأكبر نصيب لإعداد قوة كبيرة تكافح العدو الجاثم على حدود البلاد .

العواصم والثغور :

العواصم جمع عاصم ، وهي حصون منيعة تحيط بالمنطقة الواقعة بين حلب وأنطاكية وقصبتها^(٦) أنطاكية .

أطلق عليها في العصر الأموي اسم الدروب ، وفي العصر العباسي اسم العواصم والثغور . وكان يدخل عليها تعديل حسب التراتيب الإدارية ، ففي زمن هارون الرشيد جعلت منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون منطقة مستقلة سميت بالعواصم ، لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم من العدو وتمنعهم ، وجعلت مدينة منبج قصبة هذه المنطقة .

وورد لفظ العواصم في شعر المتنبي وهو يمدح سيف الدولة :

لقد أوحشت أرض الشام طراً سلبت ربوعها ثوب البهاء
تنفس العواصم منك عشر فيوجد طيب ذلك في الهواء

أما الثغور فهي جمع ثغر ، وهي الحصون التي بنيت على تخوم الشام والجزيرة لصد غزوات الروم ، لذلك سميت بالثغور الرومية . وتبدأ هذه المنطقة من طرسوس في كيليكية ، وتمتد على طول جبال طوروس إلى ملطية ، ثم إلى الفرات ، وهي تحمي منطقة العواصم التي على الحدود من غارات الأعداء .

وتنقسم إلى قسمين : ثغور الشام ، وثغور الجزيرة . وتعتبر مرعش أبعد مدينة في منطقة الثغور الشامية ، كما أن ملطية أبعد مدينة في ثغور الجزيرة .

وتعاورت بلاد الثغور أيدي المسلمين والروم ، وفيها كانت أكثر وقائع سيف الدولة مع الروم . ثم هاجرت في أوائل الحروب الصليبية فرق كثيرة من الأرمن إلى هذه الجهات - وقد خرب أكثرها وكادت تخلو من السكان - فتوطنوها ،

(٦) القصبة : المركز الإداري .

وأسسوا فيها إمارات صغيرة تحت حماية قياصرة القسطنطينية^(٧) ، وجعلوا عاصمتها سيس ، واشتهر من أمرائها ليون الأول ، ثم ابنه طوروس الثاني المعروف في الكتب العربية بابن ليون ، وسماه أبو شامة^(٨) مليح بن لاون .

واستطاع السلطان نور الدين محمود بن زنكي أن يجلب هذا الأخير إلى طرفه ، فأعلن خضوعه لنور الدين ، وتمرد على ملك القسطنطينية ، وأدمج بقية الإمارات الأرمنية في إمارته .

غير أن هذه الإمارة الأرمنية لم تُخْلِصْ للمسلمين طويلاً ، فقد ظهرت الصليبيين ثم التتار على المسلمين .

وتردد في العصر المملوكي ذكر سيس^(٩) وصاحب سيس ، لأن سلاطين المماليك قاموا بتحطيم الإمارة لمظاهرتهم لأعدائهم .

وأول من ضرب فيها بمعول الهدم السلطان الظاهر بيبرس . ثم تتابع الضرب عليها إلى سنة ٧٧٦ هـ حين قضي عليها نهائياً . وقد شهدت الإمارة الدلغادرية احتضارها ، واستفادت من وفاتها فورثت بعض أراضيها .

وفي العصر المملوكي كانت الحدود الشامية تضم منطقتي العوامم والثغور . فقد ذكر القلقشندي نيابات بلاد الثغور والعوامم وما والاها معتبراً فيها تسع نيابات

(٧) جولة أثرية لأحمد وصفي زكريا ٣٦ - ٣٧ طبع دمشق .

(٨) الروضتين ٢١٥/١ .

(٩) سيس : بلدة وقلعة تركية في ولاية أدنة (كيليكية) إلى الشمال الشرقي من أدنة ، تقع على سفح جبل منفرد قائم وسط سهل فسيح كثير المستنقعات . كانت عاصمة الأرمن ، وقد تردد ذكرها في تاريخ السلاطين المماليك في مصر ، فكانوا يهاجمونها لتأديب الأرمن الذين يناصرون الصليبيين إلى أن افتتحوها ، ثم انتقلت منهم إلى سلطة الأماة الدلغادرية . قال عنها ياقوت : هي اليوم أعظم مدن الثغور الشامية ، بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة ، وبها مسكن ابن ليون سلطان تلك الناحية الأرمني (راجع موقعها على المصور رقم ١) .

وهي : ملطية ، دُبركي^(١٠) ، درنده ، الأبلستين ، إياس ، طرسوس ، أذنة ، سرفندكار ، سيس^(١١) .

بلاد الإمارة الدلغادرية :

يعدد القرماني^(١٢) أشهر ممتلكاتها فيقول : ملكوا مرعش ، وألبستان ، وملطية ، وعين تاب ، وعزاز ، وخربوت ، وهنسا ، ودرنده ، وقير شهري ، وقيسارية ، وحصن المنصور ، وقلعة الروم ، وبلاد سيس ، وقارص ، وضمانتي ، وأودية عَمَق ، وكوندزلي ، وغير ذلك ومن هذا يظهر أن هذه الإمارة قامت على البلدان التي كانت تقوم عليها الإمارة الأرمنية .

تحقيق تسميتها بالدلغادرية أو ذي القدرية :

يختلف ورود هذا الاسم بين الكتب العربية والكتب الأجنبية - تركية ، فارسية ، لاتينية - وقد أجمعت المصادر العربية^(١٣) على ذكر أبناء ذو الغادر بالغبين المعجمة ، بينما وردت التسمية بأشكال شتى في الكتب الأجنبية : ذو الغادر - ذو القادر - القدر - ذو القدر ... وغيرها ، ومرد هذا الاختلاف الكتب التي أُلِّفَت بالفارسية ، إذ لا وجود لحرف الغين في هذه اللغة شأنها في ذلك شأن اللغات التي تستعمل الأحرف اللاتينية ، فرسمت ذو القادر بالفارسية ، وجاءت ترجمتها مطابقة بالإنكليزية ظناً من ترجم أن ذو بمعنى صاحب ، فحوِّلت الغين إلى قاف ، ومن التبس عليه هذا الاسم الأستاذ زامباور في معجم الأنساب والأسر

(١٠) دُبركي = ديار بكر = آمد .

(١١) راجع المواقع على الصور رقم (١) .

(١٢) أخبار الأوّل وأثار الدول : الصفحة ٣٣٩ .

(١٣) تاريخ ابن الوردي ، الدرر الكامنة ، النجوم الزاهرة ، تاريخ ابن الفرات ، الضوء اللامع ، بدائع الزهور لابن إياس ، أخبار الأوّل وأثار الدول للقرماني .

الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، والأستاذ ستانلي بول في كتاب الدول الإسلامية ، كما وقع بنفس الخطأ كل من ترجم الاسم من الإنكليزية أو التركية أو الفارسية إلى اللغة العربية .

ونحن نرجح النصوص العربية في تسميتها « دلغادر » على النصوص التركية واللاتينية للأسباب التالية :

١ - إن لفظة « دلغادر » وإن كنا نجهل سبب التسمية بها وما ترمي إليه من معنى كانت محبوبة في عصرهم ، وقد تسمى بها بعض الأمراء ، ومن سمي بها أمير عرب نعيم الذي كان معاصراً لأولاد دلغادر ومختلطاً بهم ، فقد سماه والداه « بغادر »^(١٤) .

٢ - إن المؤرخين العرب شهدوا ولادة هذه الإمارة قبل استفحال أمرها ، ولأول مرة يذكرونها يسمون أمراءها « أولاد دلغادر » ، ورغم ما وقع منهم من شغب وتخريب وإفساد ، لم يصف مؤرخ عربي أحداً منهم بالغدر ولم نر مؤرخاً لمزأ أو غمز أحداً منهم من هذه الناحية لنقول إن المعاصرين أو المعادين لهم وصومهم بهذه الوصمة ونعتهم بها .

٣ - إن بلاد هذه الإمارة كانت معدودة من بلاد الحكومة المملوكية ، وعلاقتها مع الممالك المذكورة بكثرة في الكتب العربية ، وكان أكثر أمرائها يترددون إلى بلاد الشام ومصر ، فلو كان في هذه التسمية غضاظة عليهم لأنكروها وطلبوا تغييرها بالقادرية أو القدرية ، ولأطلق عليها أحد المؤرخين هذا اللقب ولو مرة واحدة .

على أنه لا ينبغي لنا أن نغادر هذا العرض من غير أن نأتي بهذه الملاحظة ،

(١٤) النجوم الزاهرة .

وهي أنَّ ابن الوردي في تاريخه قال^(١٥) سنة ٧٤٩ هـ : « إن قراجا بن دلغادر التركاني شغب واستطال وسمى نفسه بالملك القاهر ، وطلب من صاحب سيس الحِمْلَ الذي يحمل إلى السلطان » . ثم نرى بعد ذلك نسخة من نسخ الدرر الكامنة تُلَقَّب سولي بن قراجا بـ « دلقاهر »^(١٦) .

وإليك تاريخ أمراء هذه الأسرة ملخصاً من كتاب الدول الإسلامية تأليف ستانلي لين بول والذي نشرناه سنة ١٩٧٤ م بعد إضافة تعليقات عديدة عليه .

تاريخ الأسرة الدلغادرية :

حكمت هذه الأسرة مرعش وألبستان وما حولها قرابة ١٩٠ سنة (٧٤٠ هـ - ٩٢٨ هـ) - وهي منطقة الحدود بين الدولتين العثمانية والمملوكية - وهي بالأصل عشيرة تركانية نزحت نحو الأناضول من آسيا الوسطى فراراً من جنكيزخان برئاسة زعيمهم ذو الغادر . وشكل ابنه زين الدين قراجا حكومة سنة ٧٣٧ هـ واختلَف في موته وتاريخ موته ، وقد ملك ابنه خليل بك مرعش وملطية ، واتخذ ألبستان مقراً لحكومته . وكان من نتائج إطاعة أحد إخوته أمير خربوت^(١٧) أن قتل خليل بك سنة ٧٨٨ هـ . كما قتل أخوه الآخر الذي خلفه سولي بك سنة ٨٠٠ هـ .

بدأ سولي بك إقامة علاقات مع العثمانيين ، فقد زوَّج ابنته الكبرى إلى سلطان سيواس^(١٨) القاضي برهان الدين ، كما زوَّج ابنته الصغرى إلى السلطان محمد شلبي .

(١٥) ٣٤٢/٢ .

(١٦) انظر الدرر الكامنة طبع حيدر آباد ١٧٩/٢ .

(١٧) خربوت : مدينة تركية في هضبة أرمينيا تقع على نهر مرادصو أحد أصول نهر الفرات إلى الشمال الشرقي من ملاطية (انظر موقعها على المصور ١) .

(١٨) سيواس : مدينة تركية في غرب أرمينيا إلى الشمال من ألبستان (انظر موقعها على المصور ١) .

وتولى بعده ناصر الدين محمد بك بن خليل بك ، وفي عهده تعرضت الإمارة لغزو تيمورلنك الذي خرب ملطية و بهسنا واحتل ألبستان ، واستعان بسلطان مصر مؤيد شيخ لمحاربة أبناء قرامان^(١٩) وأبناء رمضان^(٢٠) ، ومنحه المصريون قيصرية^(٢١) ، ثم ضيق عليه السلطان جقمق ، فلجأ إلى مراد الثاني العثماني ، فأعاد إليه قيصرية سنة ٨٤٠ هـ وكانت في حوزة العثمانيين ، ثم تقرب من المماليك وزار القاهرة ومات إثر عودته منها سنة ٨٤٦ هـ .

وخلفه ابنه سليمان بك وقد أخذ على نفسه الإبقاء على صلات الصداقة مع العثمانيين ، فزوج ابنته مكرمة خاتون إلى محمد الفاتح سنة ٨٥٣ هـ في عهد سلطنة مراد الثاني . ومات سليمان سنة ٨٥٨ هـ ، وخلفه ابنه أرسلان ، وفي عهده استولى أوزون حسن (حسن الطويل) على خربوت ، ولاستعادة هذه المدينة قصد أرسلان بك القاهرة لطلب معونة السلطان خوشقدم ، وبينما كان يؤدي الصلاة في المسجد اغتاله فدائي سنة ٨٧٠ هـ وقُتلَ الفدائي ، وقد اتهم بتدبير هذه الجناية السلطان خوشقدم الذي عين شقيقه شاه بوداق خلفاً له ، في حين حمل شقيقه الآخر شاه سوار بك منشوراً بتوليته الإمارة من السلطان العثماني محمد الفاتح ، فحكم شاه بوداق في مرعش وشاه سوار في ألبستان ، ورفض أمراء الأسرة الدلغادرية حكم شاه بوداق بسبب حادث مقتل ملك أرسلان ، وفرَّ شاه بوداق

(١٩) أبناء قرمان : دولة قامت في الأناضول سنة ٦٥٤ هـ ورثت الدولة السلجوقية وعمرت حتى ٨٨٨ هـ عندما قضى السلطان بايزيد الثاني عليها ، خلفت آثاراً تدل على مدنية وحضارة (راجع كتاب الدول الإسلامية ٤٣٥/٢) .

(٢٠) أبناء رمسان : أسرة تركانية شكلت إمارة في أذنة عمرت من سنة ٧٨٠ هـ حتى ١٠١٧ هـ ، وقف معظم أمرائها جانب المماليك إلى أن قويت شوكة العثمانيين فوقفوا معهم وشاركوا السلطان سليم الأول العثماني في غزو سوريا ومصر (راجع كتاب الدول الإسلامية ٤٦٣/٢) .

(٢١) قيصرية : بلدة تركية تقع في شرقي الأناضول تكرر ذكرها في التاريخ الإسلامي فيها قلعة حصينة (انظر موقعها على المصور ١) .

إلى مصر سنة ٨٧١ هـ ، وسيطر شاه سوار على جميع ممتلكات الإمارة ، وزحف نحو حلب سنة ٨٧٢ هـ وحارب المصريين حرباً ظافرة ، كما تغلب على أبناء رمضان ، ولكن حكومة القاهرة المملوكية سافت إليه سنة ٨٧٦ هـ جيشاً قوياً انتصر عليه في عينتاب وتحصن في قلعة ضانتي [زمنطو] فحوصر بالقلعة وأجبر على الاستسلام وأرسل إلى القاهرة ، وفيها أمر السلطان قايتباي بصلبه على باب زويلة سنة ٨٧٧ هـ . وكان في إمارته ملتزماً جانب الدولة العثمانية ، لذلك أسفر قتله عن التأثير البالغ لدى العثمانيين .

وعاد شاه بوداق لتسلم الحكم ، فعمد العثمانيون إلى مد أخيه علاء الدولة - واسمه الأصلي بوز قورت وغلب عليه اسم علي دولات - ففرّ شاه بوداق إلى مصر ثانية سنة ٨٨٤ هـ . ثم التزم علاء الدولة جانب مصر ، وتقرب من العثمانيين وزوج ابنته عائشة خاتون من بايزيد الثاني وهي والدة السلطان سليم الأول .

والحوادث التي وقعت في أيامه مدرجة تفصيلاً في تاريخ مصر والدولة العثمانية . ثم نسب إليه العثمانيون الخيانة ، وأرسل إليه السلطان سليم إثر عودته من محاربة اسماعيل الصفوي سنة ٩٢١ هـ الوزير سنان باشا وأمره بتأديب إمارة دلغادر والتنكيل بها ، وكانت النتيجة أسر علاء الدولة وقتله وعمره تسعون سنة ، وإرسال رأسه إلى السلطان قانصوه الغوري ، وبهذا يكون السلطان قد قتل جده .

وعينت الدولة العثمانية مكانه علي بك بن شاه سوار شريطة أن تكون السكة والخطبة باسم بني عثمان ، وشارك علي بك في حملة السلطان سليم على الشام ومصر ، وبرغم ما أدى إلى الدولة العثمانية من خدمات حسنة ، فقد أعدم هو وثلاثة من بنييه بأمر السلطان سليمان القانوني سنة ٩٢٨ هـ ، وكان ذلك بتحريض الوزير فرهاد باشا وإفترائه عليه .

وبعد ذلك حوّلت الإمارة إلى ولاية عثمانية . وهذه قائمة بأسماء من تولى

منهم :

التقويم الهجري	التقويم الميلادي
٧٤٠	زين الدين قراجا بن دلغادر ١٣٣٩
٧٨٠	خليل بك ١٣٧٨
٧٨٨	سولي بك ١٣٨٦
٨٠٠	ناصر الدين محمد بك ١٣٩٧
٨٤٦	سليمان بك ١٤٤٢
٨٥٨	ملك أرسلان بك ١٤٥٤
٨٧٠	شاه بوداق بك (أول مرة) ١٤٦٥
٨٧١	شاه سوار بك ١٤٦٦
٨٧٧	شاه بوداق بك (مرة ثانية) ١٤٧٢
٨٨٤	علاء الدولة بك ١٤٧٩
٩٢١ - ٩٢٨	علي بك ١٥١٥ - ١٥٢١

وتفيد المصادر التاريخية أن هذه الإمارة كانت تعيش عيشة قبلية ، وتساهم في الثورات التي كانت تقوم في ربوع الشام ، وتتفق مع الأعراب على النهب والسلب .

فحين قام يلغا أرس نائب حلب بالثورة والعصيان على القاهرة وسمى نفسه بالملك العادل قام معه في هذه الثورة الأمير قراجا بن دلغادر وحيّار بن مهنا أمير آل الفضل ، وقد نهب أتباعهما كل ما مرت عساكرهما عليه من حلب إلى دمشق ، ثم امتدت غارات التركان الدلغادرية إلى حوران والبقاع .

ولما شاع وصول ملك القاهرة مع الجيوش المصرية ، اتفق قراجا وحيّار على

الفرار بجماعتها كعادات البدو ، وتركوا نائب حلب وحده وسببوا له الفشل السريع .

وانضم سولي بن قراجا بن دلغادر إلى ثورة يلبغا الناصري نائب حلب ، ثم إلى ثورة منطاش التي اشترك بها أمير آل الفضل نُعَير بن حيار .

ولم نر أحداً من المؤرخين روى أنهم رعو عالماً أو فقيهاً أو شاعراً ، والظاهر أنهم لم يقربوا من الدور المدني إلا في عهد شاه سوار ، فقد قال القرماني عنه : إنه كان أديباً عاقلاً ذا رأي وشجاعة ، وضرب اسمه على سكة الدراهم والدنانير ، ودعي له على المنابر بمدينة ألبستان وما والاها .

ولزيادة الاطلاع على تاريخ هذه الأسرة انظر قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ، ودائرة المعارف الإسلامية ، ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة للمستشرق زامباور ، وأخبار الأول للقرماني ، والدول الإسلامية نشر مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق .

ونكتفي بهذا الموجز عن هذه الإمارة مقفين بأخبارها الحربية مع الممالك .

نصوص وإضافات على الرحلة

١

ثورة شاه سوار

- أول الفتنة بين الدلغادرية ودولة الماليك
- شاه سوار وسبب ثورته - التجريدة الأولى -
- الملك الأشرف قايتباي الظاهري
- التجريدة الثانية - التجريدة الثالثة -
- التجريدة الرابعة - حربها مع سوار -
- القبض عليه - إعدامه بالقاهرة

ثورة شاه سوار

أول الفتنة بين الدلغادرية والمهاليك

لم يكن الأمراء الدلغادرية لدى ملوك القاهرة سوى نواب وولادة لهم ، غير أنهم كانوا يفرضون أنفسهم عليهم بسبب قبائلهم التركانية التي توطنت في تلك الجهات حين افتتحها ملوك مصر والشام ، والتي لم تكن تخضع لغير أمرائها ، ولهذا السبب أصبحت الإمارة تتسلسل فيهم وفي أحفادهم ، وأصبحت لهم شبهة بأن يقولوا حين يشعرون : إن البلاد بلادنا والشعب شعبنا .

وفي سنة ٨٧٠ هـ كان نائب أبلستين (ألبستان) الأمير سيف الدين ملك أصلان بن سليمان بن ناصر الدين بك دلغادر في زيارة للقاهرة ، وبينما كان في صلاة الجمعة وثب عليه فداوي في الجامع وضربه بسكين فقتله وقَتَلَ الفداوي في الحال . وقد حامت الظنون في حادث هذا الاغتيال حول سلطان المهاليك في القاهرة خوشقدم الذي ظُنَّ بأنه أرسل الفداوي لهذا الأمر .

ثم عين السلطان شقيقه المسمى (شاه بضع)^(٢٢) نائباً على تلك الجهات^(٢٣) . وقام أخ ثان للأمير المغدور هو الأمير شاه سوار فطالب بالإمارة ، واستعان بالسلطان محمد الفاتح العثماني ، فبقي شاه بضع حاكماً على مرعش ، وأصبح شاه سوار مستولياً على ألبستان .

وفي شهر رجب سنة ٨٧٠ هـ أمر السلطان خوشقدم بتجهيز تجريدة للقضاء على تمرد شاه سوار ، لكن أمر هذه التجريدة لم ينفذ^(٢٤) . ثم نحى السلطان الأمير

(٢٢) يرسم أيضاً على هذه الصورة « شاه بداق » .

(٢٣) النجوم الراهرة ٧/٧٢٧ .

(٢٤) الضوء اللامع ٣/٢٧٤ .

شاه بضع عن الولاية ، وعين بدله عمه الأمير رستم بن ناصر الدين بك ، وقد علّق على هذا التعيين ابن تغري بردي بقوله : أظن أن رستم هذا أضعف من شاه بضع في دفع سوار^(٢٥) .

شاه سوار

هو ابن الأمير سليمان ، وأخو الأمير سيف الدين ملك أصلان الذي قتل غدرًا بيد فداوي . وقد ساءه أن يقتل أخوه غدرًا فاستعان بالسلطان محمد الفاتح الذي أعانه على غايته ليبدأ بدغدغة الدولة المملوكية وليختبر مدى قوتها . فقام شاه سوار بإعلان العصيان على الدولة المملوكية مطالباً باستقلال البلاد المتقدم ذكرها مدعياً أنها بلاد آبائه وأجداده ، وقد دامت حروبه مع المماليك خمس سنين أصلاً فيها ناراً حامية . ويظهر أثر هذه الحروب في تراجم أمراء المماليك في كتاب الضوء اللامع للسخاوي ، فنرى أن الأمير ... كان في أسر سوار ، وأن الأمير ... قتل في حرب سوار ، وأن فلاناً بترت يده أو رجله أو قلعت عينه . ونجد المؤرخين يذكرون عن شاه سوار غير ما كانوا يذكرون عن قبله من الأمراء الدلغادرية من أعمالهم في السلب والنهب والترف والانهاك بالذات . وقد قدمنا ما قاله القرماني عنه ، وإليك ما قاله السخاوي عنه في الضوء اللامع^(٢٦) بعد أن ذكر كيف قتل في القاهرة :

مات وهو ابن بضع وأربعين ، وكان فيما قيل يكثر التلاوة من المصحف بطول الطريق ، ويصوم الاثنين والخميس مع فهم في الجملة ، ومشاركة في بعض منطق^(٢٧) ، ومعاناة في النجوم ، قد نبذه الشيب ببعض شعرات في لحيته من الجانبين ، بعمامة مدورة وفوقاني مفتوح مزنر بقصب بمقلب لطيف على جاري عادة تفصيل

(٢٥) النجوم الزاهرة ٧٤١/٧ .

(٢٦) الضوء اللامع ٢٧٥/٣ .

(٢٧) يريد بأن له إماماً قليلاً بعلم المنطق .

التركان . ووجهه حسن ، أبيض اللون ، ظاهر الحمرة ، مستدير اللحية ، بشعر أسود جميل الهيئة ، محترم الشكل وتآلم غير واحد من المقدمين لإتلافه .

إهمال أمر شاه سوار

قلنا بأن السلطان خوشقدم عين تجريدة للقضاء على ثورة شاه سوار ، ولكن لم ينفذ أمر هذه التجريدة بل اكتفى بناوشة الأمراء الدلغادرية الذين كانوا يوالون سلطان القاهرة للأمراء الذين كانوا يعادونه ، وظل الأمر كذلك نحو سنتين توسعت فيها سلطة شاه سوار وكثر أتباعه وانهزم أعداؤه من أقاربه وإخوته الذين كانوا يناصبونه العداء والتجؤوا إلى القاهرة .

التجريدة الأولى لقتال سوار

في أوائل سنة ٨٧٢ هـ جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن شاه سوار قد توسعت ثورته وعظم أمره ، وأنه يخشى من سوء العاقبة بإهمال أمره ، فاهتم السلطان خوشقدم للأمر ، وأرسل له تجريدة بقيادة الأمير بَرْدَبَك البشمقدار^(٢٨) نائب الشام . ولكن حصل ما لم يكن بالحسبان ، فقد انهزمت هذه التجريدة شر هزيمة وأصبح بعضها مأسوراً وبعضها مقتولاً . ولما كان لا يعتقد أحد بهزيمة هذا الجيش من ثائر مثل سوار ، فقد جاءت الأخبار بأن الأمير بَرْدَبَك البشمقدار قد انضم إلى الأمير سوار ، وأنها يريدان احتلال مدينة حلب وبقيّة بلاد الشام ، فاضطربت القاهرة لهذا الأمر ، وجهاز السلطان جيشاً أعظم من الأول ، ولكن المنية حالت دون إرسال ذلك الجيش ، فتوفي السلطان خوشقدم في عاشر ربيع الأول سنة ٨٧٢ هـ واشتغل رجال الدولة بتنصيب ملك جديد ، فنصبوا سيف الدين يلبياي سلطاناً في اليوم الذي توفي فيه الظاهر خوشقدم .

(٢٨) البشمقدار : منصب في الدولة المملوكية يحمل صاحبه نعل السلطان .

ولم تطل مدة الملك الجديد فخلع في سابع جمادى الأولى من السنة المذكورة، ثم نُصّب عوضاً عنه تمرغا الظاهري في اليوم نفسه، ولقب بالملك الظاهر. ثم خلع في السادس من رجب، ونصب عوضاً عنه الملك الأشرف قايتباي الحمودي.

وتخضت الأخبار بعد ذلك بأن الأمير بردبك البجمقدار لم ينضم إلى شاه سوار، ولكن المؤرخين مجمعون على أنه لم يكن مخلصاً للدولة في التجريدة الأولى، بل كان يحث الأمراء على عدم القتال وكان سبب الهزيمة النكراء.

ولما بلغ بردبك موت السلطان خوشقدم رجع يريد القاهرة، فأرسل السلطان الجديد يلبي رسله إليه رجع به إلى القدس بطالاً^(٢٩)، ويقول السخاوي إنه تخلف عند سوار^(٣٠). بينما يقول ابن إياس: كان أسيراً عند سوار هو ونائب حلب وأطلق بعد موت الظاهر خوشقدم وقاسى شدائد ومحنًا.

ومهما يكن من أمر، فإن إخفاق الحملات التي تلت تجريدة بردبك البجمقدار، دليل مقبول على عدم صحة ما نسب إليه من عدم الإخلاص.

الملك الأشرف قايتباي الظاهري

يعد هذا السلطان من أعظم ملوك المماليك، وهو في نظري أعظم ملك من المماليك الشراكسة^(٣١). ولد سنة ٨٢٦ هـ، وتولى الملك سنة ٨٧٢ هـ، وبقي في

(٢٩) الضوء اللامع ٦/٣.

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) اصطلاح المؤرخون على تقسيم دولة المماليك إلى فترتين: الأولى من قيام الدولة التي أسسها المعز أيبك سنة ٦٤٨ هـ حتى سنة ٧٩٢ هـ وسميت فترة حكم المماليك البحرية نسبة إلى إقامة المماليك في جزيرة الروضة بالنيل، وكان المماليك يجلبون من أجناس شتى. والثانية بدأت سنة ٧٩٢ هـ عندما اعتلى الظاهر برقوق عرش مصر وكان شركسي الأصل فأخذ يكثر من جلب المماليك الشراكسة واستمرت هذه الفترة حتى زوال دولة المماليك سنة ٩٢٢ هـ وسميت فترة المماليك الشراكسة نسبة لأصلهم، أو المماليك البرجية لإقامتهم في أبراج القلعة.

الملك إلى أن توفي سنة ٩٠١ هـ ، فأقام في الملك تسعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوماً . فازدهرت البلاد باستقراره في الملك هذه المدة ، وشيّد في جميع أنحاء المملكة كثيراً من العمارات والبنائات ، وزاد في عمر الدولة المملوكية نحو ربع قرن بحسن سياسته وإدارته ، وجنب البلاد كثيراً من الكوارث والفتن .

تولّى الملك وقد طمعت في البلاد الإمارات والدول المجاورة ، فلقن الكلّ دروساً قاسية ، وأرجع إلى الدولة هبتها ومكانتها . وقد فرغ بيت المال في زمانه من المال ، فما كان يخرج من حرب حتى يدخل في حرب ثانية ، فقد جهّز ثلاث حملات إلى شاه سوار ، وحملة إلى حسن بك الطويل ، وخامسة لتأديب أمير عرب آل الفضل . ثم عدة حملات إلى علي دولات (علاء الدولة) ، ثم اشتبك بقتال عنيف مع السلطان بايزيد العثماني كان النصر حليفه في معظم المعارك حتى وقع الصلح بينهما .

وإذا كانت دولة المماليك قد انقرضت سنة ٩٢٣ هـ أي بعد وفاته بواحد وعشرين عاماً ، فإنها لم تستطع الحياة بعده طويلاً ، ويكون حكمنا بأنه زاد في عمر هذه الدولة نحو ربع قرن صحيحاً .

وفي أيامه كانت رحلة يَشْبَك الدوادار والقبض على شاه سوار .

التجريدة الثانية لقتال شاه سوار :

تولى الملك الأشرف قايتباي في السادس من رجب سنة ٨٧٢ هـ ، وفي هذا الشهر أخذ في أسباب تعيين تجريدة إلى شاه سوار بن دلغادر ، وقد قويت شوكته والتف عليه عسكر ثقيل من التركان وغيرهم وأظهر العصيان والخامرة^(٣٢) . فخشي السلطان من أمره وأراد أن يأخذ أموره بالقوة ، وكان يمكنه أن يرسل إلى سوار

(٣٢) الخامرة بمعنى الخيانة .

خلعة وهدية وتخدم هذه الفتنة ، فلم يوافق على ذلك وأخذ الأمور بالعترة^(٣٣) .
فعين له تجريدة ثقيلة ، وعين بها الأمير قُلُقْسِيز الأتابكي ، وبردبك هجين أمير
سلاح ، ونانق رأس نوبة النُوب^(٣٤) ، وتمر حاجب الحجاب^(٣٥) ، وعدة أمراء
طبلخانات^(٣٦) وعشرات^(٣٧) ، وعدة وافرة من الجند .

عرض السلطان العساكر بسبب التجريدة لسوار ، واستتر جالساً على
الدُّكَّة^(٣٨) وهو يعرض ويكتب إلى ما بعد العصر .

ثم ضيق على أولاد الناس^(٣٩) وألزمهم بالسفر أو يقيموا لهم بدلاً ، فصار يأخذ
من كل واحد لا يرغب بالسفر مئة دينار كبديل عن السفر ، وقرر على جماعة
من المباشرين^(٤٠) جملة مال ، وأمرهم بإحضاره بسرعة ليستعين به على نفقة
العسكر .

فلما تكامل حضور المال حملت النفقات للأمراء المعينين للسفر ، فحمل
للأتابكي^(٤١) جاني بك قُلُقْسِيز أربعة آلاف دينار ، ثم حل لكل من الأمراء

(٣٣) العترة : تستعمل هذه الكلمة العامية في دمشق والمراد بها : العظمة والكبرياء .

(٣٤) رؤوس النوب : أربعة أمراء يرأسهم مقدم ألف يشرفون على الممالك السلطانية .

(٣٥) حاجب الحجاب : أو صاحب الحجوبية الكبرى وينظر في الخصومات بين الجند وخلافاتهم في
إقطاعاتهم (الواعظات للمقريزي ٢/٢١٩) .

(٣٦) الأمراء الطبلخانات : هم الأمراء الذين يصح أن تضرب الطبول على أبوابهم ، ويكون في
خدمة الأمير منهم ٤٠ - ٧٠ مملوكاً ، ويولي المقدم ألف في المرتبة .

(٣٧) الأمراء العشرات : الأمراء الصغار في الجيش المملوكي ويكون تحت إمرة الواحد منهم عشرة
جنود .

(٣٨) الدُّكَّة : المصطبة .

(٣٩) أولاد الناس : هم أولاد الممالك العتقاء .

(٤٠) المباشر : هم الموظفون الإداريون في الدولة المملوكية .

(٤١) الأتابك : قائد الجيش المملوكي .

المقدمين^(٤٢) ثلاثة آلاف دينار ، ولكل من الأمراء الطبلخانات خمسمائة دينار ، وللأمراء العشرات لكل واحد مائتا دينار ، وأنفق على كل جندي من الممالك مئة دينار .

خروج التجريدة إلى سوار

في اليوم الثاني عشر من شهر شعبان سنة ٨٧٢ هـ ، خرج أمراء العسكر المعينون للتجريدة ، فكان لهم يوم مشهود . وهذه أول تجريدة خرجت من مصر إلى شاه سوار^(٤٣) وأنفق السلطان جامكية^(٤٤) أربعة أشهر معجلاً وصرف الكسوة ، وأعطى لكل واحد منهم جلاً وأرضى العسكر بكل ما يمكن .

اندحار هذه الحملة

أخفقت هذه الحملة إخفاقاً مزرياً ، ففي شهر ذي القعدة سنة ٨٧٢ هـ جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن العسكر الذي توجه إلى شاه سوار قد انكسر كسرة شنيعة ، وأسرقائد الحملة الأتابكي قلقسيز ، وقتل جماعة من الأمراء والجنود يعسر إحصاؤهم ، وكان غالب العسكر من الحشقدمية^(٤٥) .

وقتل من الأمراء المقدمين : الأمير بردبك هجين الحمدي الظاهري أمير سلاح من ممالك الظاهر جقمق ، وجرح الأمير تمر حاجب الحجاب .

(٤٢) الأمير المقدم : أعلى منصب بعد الأتابك في الجيش المملوكي يخدمه مئة مملوك وفي أمرته ألف جندي .

(٤٣) المراد هنا بأول تجريدة في عهد قايتباي ، وإلا فهي الثانية . والأولى كانت في عهد السلطان خوشقدم وهي التي أسرقايدها بردبك البجمقدار (والنص هنا لابن إياس في بدائع الزهور) .

(٤٤) الجامكية : كلمة فارسية الأصل تعني الراتب الشهري .

(٤٥) الحشقدمية : هم الممالك من مشتريات السلطان السابق خوشقدم .

وقتل من الأمراء العشرات عدد كبير ، ولم يضبط عدد من قتل من الخاصكية^(٤٦) والماليك السلطانية^(٤٧) ونهب برك^(٤٨) الأمراء والعسكر قاطبة . والذي سلم دخل حلب في أسوأ حال من العري والمشى . وقوي أمر سوار وتوجه إلى عينتاب^(٤٩) وحاصر قلعتها وملك البلد وأشيع بين الناس أن ابن عثمان ملك الروم^(٥٠) أرسل نجدة من عسكره إلى سوار .

ثم وصل إلى القاهرة قانصوه الجيلاني الحاجب بدمشق وعلى يده مكاتيب أزيك نائب الشام يخبر فيها بكسر العسكر ودخولهم حلب وهم في أسوأ حال ، وأن أزيك نائب الشام دخل حلب وهو مجروح في وجهه ، وليس له برك ولا قماش ولا ممالك ، ودخل نائباً حلب وطرابلس على هذا الوجه ، ودخل غالب العسكر عرايا مشاة .

وكانت هذه الواقعة يوم الاثنين سابع ذي القعدة سنة ٨٧٢ هـ .

فلما وردت هذه الأخبار ماجت القاهرة وحار السلطان في أمره ، وكان يظن أن سواراً لا يقوى على عسكره لكثرتة .

(٤٦) الخاصكية : المالك الأخصاء بالسلطان ، يدخلون عليه دون إذن ، ويخصهم بالمزيد من الأعطيات لضمان إخلاصهم .

(٤٧) الممالك السلطانية : هم الممالك الذين يشتريهم السلطان أو يبيعهم من ممالك السلطان السابق .

(٤٨) البرك : الأمتعة الخاصة .

(٤٩) عينتاب : بلدة في جنوب تركيا قرب الحدود السورية فيها قلعة صغيرة تشبه قلعة حلب وفي جنوبها قلعستان إحداها تعرف ببرج الرصاص والأخرى بتل بشار (انظر موقعها على المصور ١) .

(٥٠) ملك الروم : لقب أطلقه ابن إياس على السلطان العثماني . وكان السلطان بايزيد الأول قد طلب من الخليفة العباسي إعطائه لقب سلطان الروم سنة ١٣٩٤ م وقد منحه الخليفة ذلك .

ثم جاءت الأخبار بأن سواراً سجن قلقسيز في جب ، وأن عسكر سوار قوي بما نهبه من عسكر المماليك من خيول وسلاح وبزك ، وقد عزم سوار على الزحف إلى حلب .

عقد مجلس الدولة

لما تحقق السلطان من صحة أخبار ما تقدم ، أمر بعقد مجلس في القلعة ، فحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف ، والقضاة الأربعة وهم : ولي الدين الأسيوطي الشافعي ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفي ، وحسام الدين بن حريز المالكي ، وعز الدين الحنبلي ، ودعي شيخ الإسلام أمين الدين الأقصري ، ومشايخ من العلماء ، وحضر سائر الأمراء ، وكان هذا المجلس بالحوش السلطاني .

فلما تكامل المجلس قام القاضي أبو بكر بن مزهر كاتب السر وتكلم عن لسان السلطان ، ووجه الخطاب إلى الخليفة والقضاة ومشايخ العلم بما معناه من كلام طويل :

إن بيت المال مشحوت من المال ، وإن سواراً الباغي قد استطال على البلاد وقتل العباد ، ولا بد من خروج تجريدة عسكر لتحمي بلاد السلطان ، وإن العسكر يحتاج إلى نفقة وليس في بيت المال شيء ، وإن كثيراً من الناس معهم زيادة في أرزاقهم ووظائفهم ، وإن الأوقاف قد كثرت على الجوامع والمساجد ، وإن قصد السلطان أن يبقى لهم ما يقوم بالشعائر فقط ، ويدخل الفائض إلى الذخيرة .

فقال الخليفة وقضاة الجاه إلى شيء من معنى الإجابة إلى ذلك .

وبينما هم على ذلك إذ حضر شيخ الإسلام أمين الدين الأقصري الحنفي ، وكان قد تأخر عن الحضور . فأرسل خلفه السلطان . فلما حضر أعاد عليه كاتب السر الكلام الذي وقع في أول المجلس .

فلما سمع هذا الكلام أنكره غاية الإنكار وقال في الملأ من ذلك المجلس :

« لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس إلا بوجه شرعي ، وإذا نفذ جميع ما في بيت المال يُنظر إلى ما في أيدي الأمراء والجند وحلي النساء فيأخذ منه ما يحتاج إليه ، وإذا لم يوف بال حاجة ففي ذلك ينظر في المهم إن كان ضرورياً في المنع عن المسلمين حل ذلك بشرائط متعددة ، وهذا هو دين الله تعالى ، إن سمعت أجرك الله على ذلك ، وإن لم تسمع فافعل ما شئت ، فإننا نخشى من الله تعالى أن يسألنا يوم القيامة ويقول لنا : لم لا نهيتوه عن ذلك وأوضحتم له الحق . وإن السلطان إذا أراد أن يفعل شيئاً يخالف الشرع فلا يجمعنا . وبدعوة فقير صادق يكفيكم الله مؤونة هذا الأمر كله » . ثم قام .

فانجبة منه السلطان وانفض المجلس من غير طائل وكثر القال والقليل ، وشكر الأمراء وغالب الناس الشيخ أمين الدين على ذلك ، وكثر الدعاء في ذلك اليوم للشيخ أمين الدين ، وعد هذا المجلس من النوادر .

التجريدة الثالثة

وفي شهر ربيع الأول سنة ٨٧٣ هـ ، أمر السلطان الأمير أزدمر الطويل الإينالي بأن يخرج ومعه خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية ، وأن يقيم بحلب لحفظ البلاد الحلبية إلى أن تحضر التجريدة ، وكان قد بلغ السلطان بأن عسكر سوار نزل قلعة درندة^(٥١) وحاصرها ، فبادر الأمير أزدمر وخرج في قلب الشتاء ليحفظ حلب .

وجاءت الأخبار أن سواراً أطلق الأتابكي جاني بك قُلُقُسيْز ، وقد وصل إلى

(٥١) درندة : بلدة في وسط تركيا إلى الشمال الغربي من ملاطية لها ذكر في الفتوحات التي جرت في العهد الأموي (انظر موقعها على المصور ١) .

قرب حلب ، وأن الأمير قائم طاز الأشرفي أحد مقدمي الألوف بحلب مات وهو في أسر سوار ، وكان موصوفاً بالشجاعة والفروسية .

ثم أنفق السلطان على العسكر المعين للتجريدة إلى حلب وأعطى لكل مملوك مئة درهم ، وأرسل نفقات الأمراء المعينين ، فحمل لأزدمر الطويل ستة آلاف دينار^(٥٢) ، ولقجاس الطويل أحد أمراء الطبليخانات خمسمائة دينار ، وللأمراء العشرات مائتي دينار لكل منهم . فباغ مجموع ما صرف على هذه التجريدة للأمراء والجند وهم نحو خمسمائة مملوك ما يزيد على مائتي ألف دينار ، وخرج هؤلاء ومن معهم من الجند في أوائل الشتاء ليقموا في حلب .

عرض التجريدة

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ٨٧٣ هـ ، عرض السلطان العسكر ، وأخذ في أسباب خروج العسكر إلى سوار ، وهي التجريدة الثانية في عهده ، فعين باش العسكر الأتابكي أزبك من ططخ ومعه من الأمراء الكبار : قرقاس الجلب أمير مجلس ، وسودون القصري رأس نوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وقراجا الطويل الإينالي .

ومن الأمراء الطبليخانات : خاير بك من حديد ، وجاني بك الزيني ، ومن الأمراء العشرات زيادة على العشرين أميراً .

ثم رسم لأولاد الناس : من أراد السفر فليسافر ، ومن لا يسافر يحمل إلى بيت المال مئة دينار ويقدمها بدلاً عنه وينطبق هذا على من له جامكية أو إقطاع . ومن ليس له إقطاع وله جامكية ألف درهم يحمل خمسة وعشرين ديناراً .

(٥٢) يعادل الدينار الذهبي القديم نصف ليرة ذهبية إنكليزية في يومنا هذا ، وكل دينار عشرون درهماً . وأطلق عليه في عهد المماليك اسم دينار أو أشرفي .

ثم أنفق السلطان على العسكر : لكل مملوك مئة دينار ، ولكل أمير مقدّم ألف دينار ، وحمل للأمراء الطبليخانات لكل واحد خمسمائة دينار ، وللأمراء العشرات لكل واحد مئتي دينار . فكان جملة ما صرف على هذه التجربة نحو أربعمئة ألف دينار .

اعتذار الأمراء عن السفر :

في يوم الموكب صعد قرقاس الجلب إلى القلعة ، وطلب من السلطان الإعفاء من السفر ، وأظهر العجز وأن يكون طرخاناً^(٥٣) في أي مكان يختاره السلطان ، فلم يَجِبْ إلى ذلك ، وخاشنه السلطان في اللفظ وألزمه بالسفر وأكد عليه .

فلما نزل إلى داره كثر القيل والقال بأن ستكون فتنة . فلما بلغ ذلك السلطان لم يتأثر ، ونزل إلى خليج الزعفران وأقام به إلى آخر النهار ، ثم عاد إلى القلعة وبطلت تلك الإشاعة .

وفي رجب سنة ٨٧٣ هـ ، حضر من البحيرة^(٥٤) الأتابكي أذربك قائد هذه التجربة ، فلما نزلت النفقة تمنع من السفر وزعم أنه لا يطيق مماليك السلطان إذا عمل باش العسكر ، فلا زال يتلطف السلطان به حتى أجاب إلى السفر وقبل منه النفقة .

ثم أكمل السلطان تفرقة النفقة على العسكر المعين إلى التجربة ، وابتدأ بتفرقة الجمال ثم عجل لرجال الجيش جامكية أربعة أشهر ، وأعطاهم الكسوة أيضاً وأرضاهم بكل ما يمكن .

(٥٣) الطرخان : المتقاعد المرضي عنه .

(٥٤) البحيرة : يقصد به الإقليم الممتد إلى الشمال الغربي من دلتا النيل حتى بحيرة مريوط الواقعة خلف مدينة الاسكندرية والتسمية قديمة وما زالت مديرية البحيرة من جملة التقسيمات الإدارية في مصر ومركزها دمنهور ، (المصور ٢ في الصفحة ٥٢ من هذا الكتاب) .

خروج التجريدة والمتاعب

ووقع يوم تفرقة الجمال نادرة غريبة ، وهي أن المهجانة لما أحضروا الجمال وساقوها إلى الميدان تزاوجت عند باب الميدان وقت دخولها فمات منها في ساعة واحدة نحو ثلاثمائة بعير ، فتشاءم الناس لذلك ، وصرحوا بعدم نصره العسكر وكذلك جرى .

خرج العسكر المعين إلى سوار في تجمل زائد ، وطلبوا^(٥٥) أطلاباً حافلة ، فخرج الأتابكي أزبك ومن معه من العسكر والأمراء ، وانتشر الطاعون والتجريدة خارجة والعسكر في غاية الخوف على أولادهم وعيالهم ، ومات في أثناء الطريق جماعة كثيرة بعد خروجهم من الريدانية .

وفي ذي القعدة سنة ٨٧٣ هـ ، جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر لما وصل أخذ باب الملك^(٥٦) وأنه في استظهار على العدو سوار .

ثم جاءت الأخبار من نائب حلب بقتل مال باي الأقطع أخي سوار وجماعة كثيرة من عسكره ، فأُرْسِلَ رأس مال باي الأقطع ومعه رأسان من رؤوس أمرائه ، فلما أحضرت تلك الرؤوس طيف بها في القاهرة ، ثم علقت بباب زويلة وباب النصر .

وجاءت الأخبار بموت خاير بك البهلوان وكان أحد الأمراء بدمشق ، قتل هو وجماعة من العسكر في واقعة مال باي أخي سوار .

كسر التجريدة

في ذي الحجة سنة ٨٧٣ هـ حضر تاني بك الظاهري أحد رؤوس النوب ،

(٥٥) الطلب : الفرقة من الجيش .

(٥٦) باب الملك : مضيق ضيق عند عقبة بغراض في جبال الأمانوس بلواء اسكندرونه شمال غرب حلب (انظر المصور ٤ في الصفحة ٧٣ من هذا الكتاب) .

وكان جملة من خرج في التجريدة ، فأخبر بكسر العسكر ورجوعه من حلب ،
وهذه ثاني كسرة وقعت لعسكر مصر مع سوار في عهد السلطان قايتباي .

فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت أحواله وماجت القاهرة بمن فيها .

وكان سبب كسر التجريدة أن سواراً تحيل عليهم حتى دخلوا في مواضع
ضيقة بين الأشجار ، فخرج عليهم السواد الأعظم من التركان بالقسي والنشاب
والسيوف والأطبار^(٥٧) فقتلوا من العسكر ما لا يحصى عددهم ، وأخبر ثاني بك
بقتل الأمير قرقاس الجلب ، ويعرف بقرقاس من يَشَبْك خجا الأشرفي ، وكان
أميراً جليلاً حشماً رئيساً^(٥٨) ... وأخبر بقتل جماعة من الأمراء وعددهم .

ثم قال : وأما من قتل من الجند والمماليك السلطانية ومشايخ عربان نابلس
والعشير والتركمان والغلمان فما أمكن ضبطه .

وكانت هذه من الوقائع المشهورة التي لم يسمع بثلاثها ، فلما شاع بين الناس
ذكر من قتل من الأمراء والعسكر ، عمّ النعي في كل حارة ليلاً ونهاراً مثل أيام
الوباء ، فزاد قلق الناس من سوار ، ودخل الوهم في قلوب العسكر مثل أيام
تيورلنك ، وصاروا يرددون من ذكره ، وفي هذه الوقعة يقول بعض الشعراء :

يا رب إن سواراً قد بغى وبه قد أصبح الناس في ضيق وفي قلق
فاكسر سواراً ودعه في السلاسل في خواتم الأمر يستعصي من الحلق
وقال آخر :

إن سواراً قد غدا مخلصاً عسكره قد حلّ في دار البوار
يا رب شئت شمله حتى نرى خواتم الأمر لنا كسر سوار

(٥٧) الأطبار : جمع طبر وهي آلة حربية تشبه الغأس .

(٥٨) انظر ترجمته في الضوء اللامع ٢١٨/٦ .

ثم بدأ توافد العسكر إلى القاهرة وهم في أنحس حال من العري والجوع ، بعضهم مجروح وبعضهم ضعيف ، وكان البعض منهم يدخل وهو راكب على حمار أو جمل ، أو يدخل ماشياً وهو عريان ، ولم يلاقوا في هذه التجريدة خيراً .

وفي صفر جاءت الأخبار من حلب بأن قرقاس الصغير نائب ملطية^(٥٩) تقاتل مع عسكر سوار فكان بينهما واقعة عظيمة ، قتل فيها من عسكر سوار أكثر من خمسمائة إنسان وأسر جماعة كثيرة من أمرائه وأقاربه ، وكان ذلك بمكيدة من قرقاس كاد بها سوار .

وفي ربيع سنة ٨٧٤ هـ جاءت الأخبار بأن ابن رمضان أمير التركان أخذ جماعة من التركان وكبس على أعوان سوار وأخذ منهم قلعة سيس ، فسر السلطان بهذا الخبر وأرسل إلى ابن رمضان خلعة سنينة .

وفي رمضان سنة ٨٧٤ هـ حضر الأتابكي أزبك ، وكان مقيماً بحلب من حين كسر العسكر ، فدخل القاهرة هو ومن بقي معه من الأمراء والعسكر ، وصحبته شاه بضاع أخو سوار الذي أخذ منه سوار البلاد ، فلما صعد الأتابكي أزبك إلى القلعة خلع عليه السلطان وعلى من معه من الأمراء وعلى شاه بضاع ، وكان معه يحيى كاوُر أخو سوار أيضاً وكان قد أُسِرَ من قبل . فلما مثل بين يدي السلطان أمر بسجنه في البرج الذي بالقلعة .

وفي التاريخ المتقدم صعد قاصد من قبل سوار إلى القلعة وصحبته هدية للسلطان ، فلم يؤذن له في صعودها معه ، وحضر بمكاتبة سوار ، فكان مضمونها أنه يطلب الصلح من السلطان لكن على شروط منه ، فلم يقبلها السلطان . ومن

(٥٩) ملطية : مدينة في وسط تركيا على نهر الفرات قرب التقاء نهر فره صو ومراد صو اللذين يشكلان النهر المذكور (انظر موقعها على المصور ١) .

هذه الشروط : أن يكتب له السلطان تقليداً بأمرية الأبلستين^(٦٠) ، وأن ينعم عليه بتقدمة ألف مجلب ، فإن فعل ذلك يسلم عينتاب للسلطان . وقد طال الكلام بين القاصد والسلطان ، ولم ينتظم الأمر بينهما في شيء من الصلح ونزل القاصد بغير خلعة .

جمع الأموال لأجل تجريدة رابعة

في ذي القعدة سنة ٨٧٤ هـ طلب السلطان مالاً من الست سارة والسدة القاضي ناظر الخاص^(٦١) يوسف بن جكم ليساعده على خروج التجريدة إلى سوار ، فتشكت من ذلك وأظهرت العجز ، فحلف السلطان « وحياة رأسه لا يأخذ منها أقل من مئة وخمسين ألف دينار » ، وصمم على ذلك ، وقرر معها أنها لا تبيع ملكاً ولا ضيعة ولا بستاناً ، ولم يستطع أحد من الأمراء ولا غيرهم أن يخفض عنها شيئاً من ذلك ، فاستمرت تورده المال على حكم ما قرره عليها عدة شهور حتى غلقت ذلك القدر بالتام والكمال ، ولم تباع ضيعة ولا ملكاً . فلما غلقت المال جميعه أرسل السلطان خلفها ، فلما حضرت قام إليها وعظمها وخلع عليها كاملية مخمل بسمور وأكرمها غاية الإكرام ونزلت إلى دارها مكرمة معظمة .

وفي الشهر المحرم سنة ٨٧٥ هـ جاءت الأخبار بأن شاه سوار تقاتل مع ابن رمضان أمير التركان ، فانكسر ابن رمضان ومَلَكَ سوار قلعة إياس^(٦٢) فانزعج السلطان لهذا الخبر وأخذ في أسباب تجريدة إلى سوار .

(٦٠) الأبلستين : وتسمى ألبستان وتقع على سفح جبل ألبستان من الغرب ، وهي إلى الشمال من مرعش ، وكانت عاصمة الإمارة الدلفادرية (انظر موقعها على المصور ١) .

(٦١) ناظر الخاص : هو الموظف المختص بالنظر في الأموال الخاصة بالسلطان .

(٦٢) إياس : بلدة واقعة على الساحل الشمالي الغربي لخليج اسكندرونة ، كانت فيما مضى مدينة كبيرة ، يدل على ذلك خرائبها وقنواتها وحماماتها (انظر موقعها على المصور ١) .

وفيه أيضاً عين السلطان الأمير إينال الأشقر^(٦٣) رأس النوب ، ومعه عدة من الأمراء الطبلخانات والعشرات وعدة من الجند بسبب قتال سوار ، وقد خشي السلطان من سوار أن يكبس حلب على حين غفلة ، فأرسل هذه التجريدة لحلب إلى أن يرسل تجريدة ثقيلة بعد ذلك .

فلما عينه بعث إليه النفقة من يومه وقد حَمَلَ إليه اثني عشر ألف دينار ، ثم أنفق على بقية الأمراء والجند وألزمهم الخروج بسرعة ، فخرجوا عقيب ذلك من غير أطلاب ، وقد عزَّ ذلك على إينال الأشقر لكونه خرج في قلب الشتاء .

وفي شهر ربيع الآخر سنة ٨٧٥ هـ جاءت الأخبار من حلب بأن حسن الطويل تحرك لأخذ البلاد الحلبية ، وأنه أظهر العداء للسلطان ، وقد طمع في عسكر مصر بموجب ما فعله معهم سوار ، فثار السلطان لهذا الخبر وقصد أن يخرج بنفسه إلى حلب .

ثم عين السلطان القاضي شرف الدين الأنصاري وكيل بيت المال^(٦٤) بأن

(٦٣) انظر ترجمته في الضوء اللامع (٣٣٠/٢) .

(٦٤) شرف الدين الأنصاري : هو شرف الدين موسى بن علي بن سليمان التتائي القاهري ، ولد في سنة ٨٢٠ هـ في تتنا (قرية من المنوفية) ونشأ فيها وحفظ القرآن ثم دخل الأزهر واشتغل بالعلم مدة ، ثم بالتجارة ثم بالحكومة ، وولي وظائف عدة منها : نظر الجوالي ، والكسوة ، والبيمارستان ، وخانقاه سعيد السعداء ، وجامع عمرو بن العاص ، ووكالة بيت المال ، ونظر الخاص . وزاد تعبهُ في آخر الأمر بسبب ما كان يفوض إليه في مقدمات التجاريد فما وسعه إلا الاستئذان في السفر لمكة ، وتوفي فيها سنة ٨٨١ هـ . (انظر الضوء اللامع ١٨٤/١ - ١٨٦) .

ولفظ القاضي في عهد المماليك كان يطلق على كثير من موظفي الدولة وخاصة أرباب الشؤون المالية .

يخرج إلى جبل نابلس لمجمع العشير^(٦٥) بسبب التجريدة إلى سوار ، فخرج هو ودولات باي الخازندار^(٦٦) .

التجريدة الرابعة لقتال سوار - الأمير يَشْبَك الدوادار^(٦٧)

وفي جمادى الأولى سنة ٨٧٥ هـ عيّن السلطان تجريدة ثقيلة إلى سوار ، وعين بها من الأمراء المقدمين : يَشْبَك دوادار كبير باش العسكر ، وقرّاز الشمسي ابن أخت السلطان أحد المقدمين ، وخاير بك من^(٦٨) حديد الأشرفي ، وأزدمر الطويل الإبراهيمي - ولم يتم له السفر - ، ثم عين قانصوه الحسيّف الإينالي - ولم يتم له السفر - وعين تمر حاجب الحجاب - ولم يتم له السفر - وعين عدة أمراء طبلخانات وعشرات وعرض الجند وكتب منهم عدة أمراء وأعلمهم بأن السفر سيكون بعد أن ترجع الخيل .

وفي رجب سنة ٨٧٥ هـ جاءت الأخبار من حلب بأن سواراً قد استولى على سيس وقلعتها ، ففرع السلطان لهذا الخبر .

وفي شعبان عين الأمير برسباي قرأ أحد المقدمين بأن يخرج جاليش^(٦٩) العسكر إلى سوار قبل خروج يَشْبَك ، فخرج ومعه عدة من الجند ، وبعث إليه السلطان أربعة آلاف دينار .

(٦٥) العشير : عشائر العرب .

(٦٦) الخازندار : المشرف على خزائن السلطان وما تحويه من مال ومتاع .

(٦٧) الدوادار : اسم مركب من كلمتين دواة ودار ويكون معناه ماسك الدواة وهو منصب في الدولة المملوكية يحمل صاحبه المدواة للسلطان ، ويقوم بإبلاغ أوامره لأصحاب العلاقة ، وتدعى وظيفة الدوادارية الكبرى ، كما أطلق اللقب على كاتب السر أو صاحب القلم .

(٦٨) كثر في أسماء الممالك مثل هذا الاسم منسوباً بمن إلى اسم آخر والمراد أن خاير بك المذكور هو من مماليك أو من عتقاء حديد .

(٦٩) جاليش : تقرأ شاليش وهو لواء في رأسه خصلة من الشعر تحمل في مواكب السلطان وقت الحرب ، كما تطلق على مقدمة الجيش .

وفي شوال كان خروج العسكر المعين إلى سوار فخرج الأمير يَشْبَك الدوادار الكبير ، وأزدمر الاستادار^(٧٠) وكاشف الكشف^(٧١) وباش العسكر ، فكان في غاية العز والعظمة . وقد فوّض إليه السلطان أمور البلاد الشامية والحلبية وغير ذلك من البلاد ، وجعل له الولاية والعزل في جميع أحوال البلاد . وكتب معه خمسمائة علامة^(٧٢) ويكتب على بياض ، وجعل له التصرف في جميع النواب والأمراء ما خلا نائب حلب ونائب الشام فقط .

فكان له لما خرج يوم مشهود وطلب طلباً حافلاً لم يعمل مثله قط ، وجرّ في طلبه عدة خيول ملبسة بركستوانات^(٧٣) فولاذ مكفّته بالذهب ، وبركستوانات مخمل ملوّن ، وصنع في رنّكه^(٧٤) صفة سبع . وقد اقترح أشياء عجيبة غريبة لم يُسبق إليها ورسم للمالكة بأن تخرج في الطلب باللبس الكامل ، وخرج صحبته الأمراء الذين تقدم ذكرهم ، ومن الجند نحو ألفي مملوك ، فرجّت القاهرة لهم ، واستمرت الأطلاب تنسحب إلى قريب الظهر .

فلما كانت ليلة الرحيل نزل السلطان عند يَشْبَك وتكلم معه طويلاً ، ثم

(٧٠) الاستادار : وظيفة موضوعها الإشراف على بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والفلمان ، وهو الذي يمشي بطلب السلطان ، ويحكم في غلمانه وباب داره ، وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوي وما يجري مجرى ذلك للمالكة وغيرهم .

(٧١) كاشف الكشف : من يرأس الفرقة المكلفة بكشف أخبار العدو .

(٧٢) العلامة السلطانية : هي ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع والمقصود هنا أوراق موقعة من السلطان يملئها يَشْبَك الدوادار بما شاء من الأوامر فتكون وكأنها صادرة عن السلطان .

(٧٣) البركستوان : غطاء أو درع يوضع على ظهر الفرس .

(٧٤) الرنك : الشعر .

أخذ قلعة عينتاب من جماعة سوار ، وأن سواراً أخذ أولاده وعباله وماله وأودعهم بقلعة (زمنطو) وصار عنده طيرة من العسكر بخلاف العادة .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يَشْبَك أخذ من سوار ما كان استولى عليه من أدنة^(٧٨) وطرسوس^(٧٩) ، وتحارب مع جماعة سوار أشد المحاربة حتى طردهم من تلك البلاد وملكها .

وفي جمادى الأولى سنة ٨٧٦ هـ حضر محمد بن نائب بهسنا^(٨٠) بمكاتبة يذكر فيها انحلال أمر سوار من الأمير يَشْبَك ، وأن عسكر سوار قد فلَّ عنه ، وهو خائف من العسكر ، ثم أرسل الأمير يَشْبَك يطلب من السلطان نفقة للعسكر يتوسع بها ، فإن العليق كان هناك مشحوتاً ، فبعث السلطان مئة ألف دينار تفرق على العسكر هناك .

وفي جمادى الآخرة وصل قاصد من عند الأمير يَشْبَك الدوادار ، وعلى يده مكاتبة من يَشْبَك يذكر فيها أنه وقع بينه وبين عسكر سوار واقعة على نهر جيحان^(٨١) وجرح فيها الأمير تراز الشمسي في يده بسهم نشاب .

وكان أول من ألقى بنفسه في النهر تراز ، فلما رآه العسكر رموا بأنفسهم في النهر خلفه ، فجرح وأغمي عليه فحملوه ورجعوا به إلى الوطاق .

(٧٨) أدنة = أدنة = أضنة : مدينة في جنوب تركيا تقع على نهر سيحان الذي يصب في خليج مرسين (انظر موقعها على المصور ١) .

(٧٩) طرسوس : مدينة تركية تقع إلى الجنوب الغربي من أدنة (انظر موقعها على المصور ١) .

(٨٠) بهسنا : بلدة تركية تقع إلى الجنوب الغربي من ملاطيا على أحد روافد نهر الفرات ولها قلعة خراب تشرف عليها (انظر موقعها على المصور ١) .

(٨١) نهر جيحان : ورد في بدائع الزهور لابن إياس ٦٥/٣ « نهر جيحان » والصحيح ما أثبتناه وهو نهر في جنوب تركيا بكيلىكيا يصب في الساحل الشمالي لخليج اسكندرون (انظر موقعه على المصور ١) .

ثم إن الأمير يَشْبَكُ ثبت وقت الحرب ، وزحف بالعسكر على عسكر شاه سوار ، وكان بين الفريقين ساعة تشيب منها النواصي . فانكسر عسكر سوار كسرة بليغة ، وقتل منهم ما لا يحصى عدده ، وكان النصر لعسكر مصر على عسكر سوار . فلما رأى سوار الكسرة عليه ، هرب في نفر قليل من عسكره وطلع إلى قلعة (زمنطو)^(٨٢) واختفى .

فلما بلغ يَشْبَكُ أن سواراً في قلعة (زمنطو) حاصرها أشد المحاصرة ، ورمى عليها بالمدافع ، حتى كان من أمره ما سنذكره . فخلع السلطان على القاصد الذي جاء بهذه الأخبار والبشارة ، وكذلك خلع عليه الأمراء ، وانشرح السلطان بهذا الخبر .

وفي شوال جاءت الأخبار من عند يَشْبَكُ الدوادار بأن شاه سوار قد تلاشى أمره ، وفلَّ عنه غالب عسكره ، وأرسل يطلب الصلح من الأمير يَشْبَكُ على أن يكون نائباً عن السلطان في قلعة درنده ، وأنه يرسل ولده بمفاتيح القلعة ، فلم يوافق السلطان على ذلك وأصر على حضور سوار بنفسه لمقابلة السلطان .

القبض على سوار

وكان من ملخص أخبار القبض على سوار أنه لما طلع إلى قلعة (زمنطو) واختفى بها ، حاصره الأمير يَشْبَكُ الدوادار أشدَّ المحاصرة ، وقد فلَّ عن سوار عسكره ، وأراد الله خذلانه ، فأرسل بطَلَب الأمير تراز الشمسي إلى قلعة (زمنطو) وصحبته القاضي شمس الدين بن أجا الحلبي قاضي العسكر .

(٨٢) قلعة زمنطو : لم نعتز على ذكر هذه القلعة فيما بين أيدينا من المراجع . إلا أنه ورد في كتاب (جغرافي لغاتي) اسم (ضمانتي) لنهر يجري في قضاء فكة ، ولعل هذه القلعة مبنية على طرف هذا النهر فسميت باسمه ، ولا يخفى أن الضاد في اللغة التركية تقرأ زايماً مضخمة ، فكلمة ضمانتي تقرأ زمانتي .

فلما طلع الأمير تماراز إلى سوار واجتمع به ، تعلل بأنه يلبس خلعة السلطان ويقتل الأرض ولا يقابل الأمير يَشْبَك ، فلم يوافقهُ الأمير تماراز على ذلك .

فقال له سوار : أنا قتلت من العسكر جماعة كثيرة ، وأخشى إذا نزلت إليهم أن يقتلوني . فقال الأمير تماراز : « ضمانك عليّ ، فما يصيبك شيء » . فما وافق سوار على نزوله من القلعة ، فقام الأمير تماراز والقاضي شمس الدين بن أجا من عنده والمجلس مانع .

فلما عاد الأمير تماراز بالجواب على الأمير يَشْبَك ، لم يوافق على ذلك ، وحاصر سواراً وضيق عليه ، ورمى عليه بالمدافع ، فما طاق سوار ذلك ، فأرسل يطلب الأمير تماراز والقاضي شمس الدين بن أجا ثانية على أن ينزل صحبتها . فطلع إليه الأمير تماراز وابن أجا ، فطال بينهما المجلس .

وقيل إن سواراً أضاف الأمير تماراز وابن أجا بقلعة (زمنطو) ، فلما طال مكوثها عند سوار ، ماج العسكر على بعضه ، وأشيع بأن سواراً قد قبض على الأمير تماراز وابن أجا بالقلعة .

ومع مضي نصف النهار ، نزل الأمير تماراز والقاضي ابن أجا وصحبتهما شاه سوار وهو في نفر قليل من عسكره ، فتوجه إلى وطاق الأمير يَشْبَك الدَوَادار ونزل عن فرسه ، ودخل على الأمير يَشْبَك في الخيمة ، فقام إليه ورحب به ، وأحضر إليه خلعة وألبسها له .

فلما أراد الانصراف من عنده ، قال الأمير يَشْبَك : امضِ إلى نائب الشام وسلمْ عليه ، وكان يومئذ برقوق نائب الشام .

فلما توجه إليه سوار نزل عن فرسه ، ودخل إليه وصحبته الأمير تماراز ، وعندما وقف سوار بين يدي برقوق ، قال له برقوق : من أنت ؟

قال له : أنا سوار .

قال برقوق : أنت سوار ؟

قال : نعم أنا سوار .

فجعل برقوق يكرّر عليه هذا الكلام ، فيقول له : نعم أنا سوار . ثم قال له برقوق : أنت الذي قتلت الأمراء والعسكر ؟ فسكت سوار .

ثم قال برقوق : أحضروا له خلعة . فأتوا إليه بخلعة وفي ضمنها جنزير ، فلما ألبسوها له وضعوا الجنزير في عنقه .

فلما رأى جماعة سوار أنه وضع في جنزير ثاروا على جماعة برقوق وسلوا سيوفهم ، وكان برقوق قد أكن كيناً حول الخيمة ، وهم لابسون آلة الحرب . فهجموا على جماعة سوار وقطعوه . ثم قبضوا على سوار وأدخلوه في بعض الخيام . فلما رأى الأمير تراز ذلك شق عليه ما حدث وقال لبرقوق : « أنا نزلت بسوار من القلعة ، وحلفت له أنكم لا تشوشوا عليه ، فكيف يبقى أحد يأمن لكم ؟ » .

فأخرق برقوق بالأمير تراز إخرقاً فاحشاً ، وربما لكه ، فخرج تراز من عند برقوق وهو غضبان .

وكان الأمير يشبّك قد حلف للأمير تراز أنه إذا قابله سوار ، لا يقبض عليه ولا يشوش عليه .

فلما نزل إليه سوار ندب برقوق إلى ما فعله بسوار وكان هذا عين الصواب ، ودعّ الأمير تراز يغضب .

فلما تحقق العسكر من القبض على سوار قاموا على حمية وقصدوا التوجه إلى الديار المصرية .

هذا ملخص ما وقع في أمر القبض على سوار ، واستمر الأمير تمتاز غاضب من
الأمراء حتى دخل القاهرة .

ولما قبض على سوار خلع الأمير يَشْبَك على شاه بضاع أخى سوار وقرره
عوضاً عن أخيه في أمرية الأبلستين .

وفي صفر سنة ٨٧٧ هـ دخل الأمير يَشْبَك دمشق وصحبته سوار ، فزينت له
زينة حافلة ، وكان له يوم مشهود فأقام بالشام ثلاثة أيام ورحل عنها إلى غزة .
وبنى برقوق نائب الشام بأعلى جبل قاسيون قبة سماها قبة النصر على سوار^(٨٣) .

فلما سمع السلطان بهذا الخبر أمر بتبويض باب النصر وباب زويلة^(٨٤) وضرب
عليها الرنوك الذهب ، ثم أخذ في أسباب ملاقة الأمراء . فكسى الأمراء المقدمين
كل واحد أربع بدلات وجهازهم ملاقة إلى الصالحية^(٨٥) .

وفيه أيضاً دخل الأمير يَشْبَك وبقية الأمراء والعسكر إلى الخانقاه
السرياقوسية^(٨٦) وصحبته سوار وإخوته وهم في زناجير ، فلما وصل الأمير
يَشْبَك إلى الخانقاه خرج الأمراء وأرباب الدولة إلى ملاقاته ، ثم رحل من الخانقاه

(٨٣) راجع الصفحة الأولى من مقدمة هذا الكتاب ، والقلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ٣٦٤/١
طبع مجمع اللغة العربيّة بدمشق ١٩٨٠ .

(٨٤) باب زويلة : أحد أبواب القاهرة شهد أحداثاً عديدة وقد أعدم عنده الكثيرون . وللقاهرة
خمس أبواب : باب النصر - باب الفتوح - باب القنطرة - باب الخليج - باب زويلة .

(٨٥) الصالحية : قرية مصرية تقع إلى الشمال الشرقي من الدلتا جنوب بحيرة المنزلة ، سميت
بالصالحية نسبة إلى الملك الصالح أيوب الذي اختطها في أول الرمل بين مصر والشام سنة
٦٤٤ هـ (انظر موقعها على المصور ٢) .

(٨٦) سرياقوس : من القرى المصرية القديمة في مصر ، وهي الآن مركز شبين القناطر بمديرية
القليوبية ، واقعة على الشاطئ الشرقي لترعة الإسماعيلية في شمال القاهرة وعلى بعد ١٨ كم منها
(تعليقات النجوم الزاهرة طبع القاهرة ٧٩/٩ وانظر موقعها على المصور ٢) وراجع التعليقة
رقم ٧٥ عن الخانقاه السرياقوسية (المصور ٢) .

ونزل الريدانية ، فخرج القضاة وأعيان مشايخ العلماء .

ثم إن السلطان نادى في القاهرة بالزينة ، فزينت زينة حافلة ، ورجت القاهرة لدخول سوار حتى بلغت أجرة كل بيت على الشارع أربعة أشرفيات ، وأجرة كل دكان أشرفي ذهب بسبب الفرجة على سوار .

ولما كان يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول سنة ٨٧٧ هـ دخل الأمير يَشْبَك الدواidar إلى القاهرة وصحبته شاه سوار ، وكان الأمير تمتاز الشمسي قد دخل إلى القاهرة بمفرده وهو غاضب بسبب ما حصل له مع برقوق نائب الشام لأجل قبضه على سوار .

ثم إن سواراً أدخل أمام الأمير يَشْبَك وهو راكب على فرس ، وعليه خلعة تماسيح على أسود ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وهو في زنجير طويل ، وقد ركب إلى جانبه أحد الأمراء العشرات يقال له تم الضبع وهو مشكوك مع سوار في الزنجير . وكان أمام سوار إخوته وأقاربه وأعيان من قبض عليهم من أمرائه ممن نزل معه من قلعة (زمنطو) فكانوا نحو عشرين إنساناً ، وهم راكبون على أكاديش وعليهم ملايط^(٨٧) بيض ، وعلى رؤوسهم عمامهم وهم في زناجير ومشكوك معهم جماعة من أعوان الوالي ، فشق الأمير يَشْبَك من القاهرة وهو في موكب حافل ، وأمامه الأمراء ممن كانوا معه في التجريدة وممن كان مقيماً في مصر . وسارت الأطلاب أمامه شيئاً بعد شيء ، واصطف الناس على الدكاكين ، وكان لهم يوم مشهود بالقاهرة لم يقع نظيره في الفرجة وكان من نوادر الزمان .

واستمر الأمير يَشْبَك في ذلك الموكب حتى طلع إلى القلعة ، فعمل السلطان الموكب في القصر الكبير ، وقبّل الأمراء الأرض ، ثم انتقل إلى الإيوان ، فجلس به ، وكان من حين جدد معالنه لم يجلس به سوى ذلك اليوم بقصد أن يعرض

(٨٧) ملايط : جمع ملوطة وهو رداء واسع طويل يصنع من الحرير أو الكتان الرقيق .

سواراً هناك ، فتزاحمت عليه الناس ، فانتقل السلطان إلى الحوش وجلس على الدكة وطلب سواراً إليه .

فلما مثل بين يديه وبخه بالكلام وعاتبه عناباً لطيفاً وسوار ساكت لم يتكلم . ثم إن السلطان رسم بتسليم سوار إلى الوالي يَشُبَّك من حيدر فتسلمه هو وإخوته ، ثم أخرجوا أخاه يحيى كاور الذي كان مسجوناً في البرج ، وقد قبض عليه قبل ذلك وتسلمه الوالي .

فلما تسلمهم والي القاهرة نزع الخلعة عنه في الحال وأحضروا لهم جمالاً فأركبوا سواراً على جمل ، وألبسوه ملوطة بيضاء ، وجعل في عنقه طوق حديد وفيه عمود من حديد في أعلاه جرس حسبما قد رسم السلطان له بذلك .

ثم سمروا^(٨٨) إخوته وأقاربه على جمال وهم عرايا ، ورؤوسهم مكشوفة ، وإخوة سوار الأربعة هم : أردوانة الأحذب ، وحداد ، ويحيى كاور ، وسلمان ، وجماعة من أمرائه ، فلما سمروهم وأركبوهم على ظهور الجمال نزلوا بهم من الصليبة ، والمشاعلية تنادي عليهم : هذا جزاء من يخامر على السلطان ، واستمروا على ذلك حتى وصلوا إلى باب زويلة ، فشتموا^(٨٩) سواراً وعلقوه في وسط باب زويلة ، وأخوه يحيى كاور عن يمينه في الدخول من باب زويلة لصوب باب النصر ، وأردوانة عن شماله كذلك ، وعلقوا حداداً داخل الباب .

وأما سلمان فكان أمرداً مليح الشكل ، فرقّ الناس له ، فشفع فيه الأمير

(٨٨) التسمير : إحدى طرق تنفيذ حكم الإعدام ، وهو نوع من الصلب ، تربط خشبة كالصليب بعمود ، ثم يصلب عليها المجرم وتضرب في أطرافه المسامير إلى الخشبة ، فينزف دمه حتى يموت .

(٨٩) الشنكة : طريقة أخرى لتنفيذ حكم الإعدام يعلق فيها المحكوم بالإعدام بكلاليب معقوفة من تحت إبطيه وينزف حتى يموت .

يَشْبِكُ وَخَلَّصَهُ مِنَ الشَّنْكَلَةِ ، ثُمَّ تَوَجَّهُوا بِالْبَاقِي إِلَى بَابِ النَّصْرِ فَوَسَطُوهُمْ^(١٠) جَمِيعاً .

وَاسْتَمَرَّ سَوَارٌ مَعْلَقاً حَتَّى مَاتَ هُوَ وَإِخْوَتُهُ ، فَأَقَامُوا مَعْلَقِينَ يَوْمَاً وَلَيْلَةً وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ أَنْزَلُوهُمْ وَغَسَلُوهُمْ وَكَفَّنُوهُمْ وَصَلَّوْا عَلَيْهِمْ ، وَتَوَجَّهُوا بِهِمْ إِلَى تَلٍّ عَالٍ بِالقَرَبِ مِنْ زَاوِيَةِ كَهْنَبُوشَ فَدَفَنُوهُمْ هُنَاكَ .

ثُمَّ قَلَعُوا الزَّيْنَةَ ، وَخَدَّتْ فَتْنَةُ سَوَارٍ وَكَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ بَعْدَ مَا ذَهَبَتْ عَلَيْهَا أَمْوَالُ وَأَرْوَاحُ ، وَقَتَلَ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَكَثَرَ الْأَمْرَاءُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَنَهَبَ بَرَكَّهُمْ .

وَقَدْ انْتَهَكَتْ حَرَمَةُ السُّلْطَانِ عِنْدَ مَلُوكِ الشَّرْقِ وَغَيْرِهِمْ ، حَتَّى إِنْ الْفَلَاحِينَ طَمَعُوا فِي الْمَالِيكِ وَتَبَهَّدُوا عَنْدهُمْ بِسَبَبِ مَا جَرَى عَلَيْهِمْ مِنْ سَوَارٍ وَكَادَتْ أَنْ تَخْرُجَ الْمَمْلُوكَةُ عَنِ الْجِرَاسَةِ ، وَقَدْ أَشْرَفَ سَوَارٌ عَلَى أَخَذِ حَلَبٍ فَخَطَبَ لَهُ فِي الْأَبْلَسَتَيْنِ ، وَضَرَبَتْ هُنَاكَ السَّكَّةَ بِاسْمِهِ ، وَلَوْلَا لَطْفُ اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّاسِ وَأَخَذَ آلُ سَوَارٍ لَفَسَدَتْ أَحْوَالُ الْمَمْلُوكَةِ جَدّاً .

وَكَانَتْ صِفَةُ سَوَارٍ أَنَّهُ كَانَ جَمِيلَ الصُّورَةِ ، حَسَنَ الشَّكْلِ ، مُسْتَدِيرَ الْوَجْهِ ، أَيْبُضَ اللَّوْنِ ، مُشْرَبَ بِحُمْرَةٍ ، أَشْهَلَ الْعَيْنَيْنِ ، أَسْوَدَ اللَّحْيَةِ ، مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ ، ضَخْمَ الْجَسَدِ . وَكَانَ فِي عَشْرِ الْأَرْبَعِينَ مِنَ الْعُمُرِ ، وَكَانَتْ مَخَايِلُ الْحِشْمَةِ وَالرَّئَاسَةِ مُحْصُورَةً فِيهِ . وَكَانَ شَجَاعاً بَطْلاً لَهُ سَعْدٌ خَارِقٌ فِيمَا وَقَعَ لَهُ مِنَ النُّصْرَةِ عَلَى عَسَاكِرِ مِصْرَ غَيْرِ مَا مَرَّةٍ ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ أَوْلَادِ دِلْغَادَرٍ ، وَقَدْ وَقَعَ لَهُ مَا لَمْ يَقَعْ لِأَحَدٍ مِنْ أَجْدَادِهِ قَبْلَهُ^(١١) .

(١٠) التَّوَسِيطُ : يَعْرِىُ الْحُكُومَ بِالْإِعْدَامِ مِنَ الثِّيَابِ ، ثُمَّ يَشُدُّ إِلَى خَشْبَةٍ مَطْرُوحَةٍ عَلَى الْأَرْضِ ، وَيَضْرِبُ بِالسِّيفِ تَحْتَ سَرْتِهِ بِقُوَّةٍ ضَرْبَةً تَقْسِمُ جَسْمَهُ إِلَى نِصْفَيْنِ فَتَنْهَارُ أَمْعَاؤُهُ إِلَى الْأَرْضِ .

(١١) جُمِعَتْ مَعْلُومَاتُ هَذَا الْفَصْلِ مِنْ كِتَابِ بَدَائِعِ الزُّهُورِ فِي وَقَائِعِ الدَّهْورِ لِابْنِ إِيَّاسٍ تَحْقِيقُ الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ مُصْطَفَى .

رحلة الأمير يَشْبَك الدوادار



صورة قلعة مصياف

العراك (٦)

الجمعة وطلب ولقاءه الأمير تراز وخاير باك من المقدمين الذين كانوا تقدموه بشاش وقماش ، وكذلك نائب صفد وطرابلس ونائب حماة ، فألبس الثلاثة تشاريفاً كانت وصلت معه من المقام الشريف ، وأركبهم خيولاً من الاسطبلات الشريفة أيضاً كانت صحبته فخدموا على العادة .

وطلب ودخل إلى حماة كما دخل إلى غزة من غير زيادة ، وكان يوماً مشهوداً ، ونزل بالقرب من المعتزلة^(١٢٩) على العادة ، وبها حضر الأمير محمود بن سقلسير وصحبته حمزة بن سقلسير نائب مصياف^(١٣٠) بجمعهم ، فأخلع على الأمير محمود كاملية مفرية سموراً وعزل حمزة بن سقلسير وألبس طربل بن طوغان بن سقلسير مكانه ، وألبس حمزة نيابة حصن الأكراد^(١٣١) وعزل نائبها ، وخلع على كلٍ منهما أطلسين وشاش بطرفين ، وهذا لم يتفق لأحد قبله من الباشات حرسه الله من كل عين لامة . ورسم على حاجب الحجاب خليل بن زويعة لمبلغ كان أحيل [ص ١٩] به / عليه ، فضمنه القاضي شرف الدين الأنصاري وصحبه معه إلى حلب في الترسيم إلى أن يقوم بما عليه .

وفي نهار الاثنين جهّز ساعياً إلى الأبواب الشريفة بوصوله إلى حماة وورود كتاب نائب الشام ونائب حلب وبالأمر التي وقعت مفصلة .

وفي نهار الأحد وصل القاضي شرف الدين الأنصاري وصحبته الجمالي نائب القدس بخيله ورجله^(١٣٢) وكذلك الشيخ حرب بن شبانه على أكمل أهبة كاملين

(١٢٩) المعتزلة : لم نفهم لها معنى وليس في مدينة حماة مكان بهذا الاسم .

(١٣٠) مصياف : مدينة تقع على بعد ٤٥ كم إلى الغرب من حماة فيها قلعة حصينة بنيت سنة ٥٣٦ هـ (انظر موقعها على المصور ٤) .

(١٣١) حصن الأكراد = قلعة الحصن قلعة عظيمة شاهقة الارتفاع شمال تلكنخ بين حصص وطرابلس ، بناها العرب ، ووسعها الصليبيون ، وأقاموا فيها قرناً ونصف واستخلصها منهم الملك الظاهر بيبس سنة ٦٦٩ هـ ، وهي من أروع وأبدع القلاع التاريخية في بلاد الشام (المصور رقم ٤) .

(١٣٢) رجله : يقصد بها الرحالة للمشاة .

العدة والسلاح مع مشاتهم ، هذا كله بحسن تديره وتأنيه في الأمور ، ولو كان كغيره من عدم الصبر لما نتج له حال ، لكنه أخذ الأمور بالسياسة مع إقامة الحرمة ، فله دره ما أوفر عقله .

وفي صبيحة نهار الاثنين سابع شهر ذي الحجة رحل من حماة ونزل^(١٣٣) وضحى بها ثم رحل منها وقت العصر ، ونزل في الثلث الأول من الليل بالقرب من إعجاز^(١٣٤) وضحى بها ثم رحل منها قبل الظهر ونزل / على عين الفردوس [ص ٢٠] بالقرب من تل السلطان^(١٣٥) وبات بها ، ووصل الأمير محمد بن أسلماس وبعض أمراء التركان .

ثم صلى الصبح يوم الأربعاء نهار عرفة ، ورحل فلاقاه قاضي القضاة وحاجب الحجاب وبقية الأمراء بالمملكة الحلبية بين تل السلطان وقنسرين^(١٣٦) . فلما وصل العسكر إلى جسر قنسرين^(١٣٧) تزاوجت الجمال فوقف على رأس القناطر ورتب الناس إلى أن مروا . وكان وقوفه رحمة للناس وإلا كان هلك شيء كثير من الجمال لشدة الزحام فانظر إلى شفقتة وصبره وهمتيه ، ظفره الله على أعدائه وأعداء الدين . ثم نزل بالقرب من الجسر ، فحضر إليه كافل المملكة الحلبية الأمير

(١٣٣) فراغ في الأصل مقداره ثلاث كلمات .

(١٣٤) إعجاز : قرية صغيرة من قرى كورة العلا في شرق قضاء المعرة ولا نعلم سبب إنحرافه نحوها .

(١٣٥) تل السلطان : قرية في الجنوب الغربي من سهل المتخ وهي من أعمال ناحية سراقب التابعة لإدلب . (المصور رقم ٤) .

(١٣٦) قنسرين : بلدة قديمة في شمال سهل المتخ الذي يصب فيه نهر قويق ، وقد كانت أشهر من حلب حتى الفتح الإسلامي حتى سميت بها ولاية حلب فقليل « جند قنسرين » . وهي الآن خراب لم يبق منها إلا رسومها الدوارس ، وقامت مكانها قرية صغيرة بيوتها قباب من الطين يسمونها العيص ، نسبة لوليّ ضريحه فوق تلّ إلى شمالها اسمه الشيخ عيص . (المصور رقم ٤) .

(١٣٧) جسر قنسرين : جسر صغير على نهر قويق قبل انصبابه في سهل المتخ جنوب حلب . (المصور رقم ٤) .

قانسوه اليحياوي وصحبته بقية الأمراء بالملكة الحلبية ، وأقام وعيّد بها ثم رحل
قبل الظهر ونزل بالعين المباركة^(١٣٨) ، وأصبح يوم الجمعة مقياً بها وحضر إليه المقرّ
الأشرف برقوق كافل المملكة الشامية بمن معه من الأمراء .

[الدخول إلى حلب]

[ص ٢١] وفي يوم السبت / حادي عشره ألبس مماليكه وحمل سنجقه^(١٣٩) علي ، ومشت
ممالك الأمراء تحت سنجقه طلباً واحداً ، وحمل الشطفة الشريفة على رأسه
الكریم ، وكافل المملكة الشامية عن يمينه وكافل المملكة الحلبية عن يساره ،
وبقية الأمراء في مراتبهم بعد أن ألبس الكافلين تشريفهما وأركبهما فرسين بكنبوش
وسرج ذهب من مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي خلد الله ملكه . وكان
المقرّ العالي السيفي إينال الأشقر رأس نوبة النوب لم يجهز له تشريفاً فألبسه
مثلها وأركبه كذلك ثم مشى وامتد المينة إلى منتهاها ، والميسرة كذلك وهو بينهم
كالبدن المنير وجنائبه تقاد بين يديه مائة وستين فرساً ما بين كنبوش ولبوس
فاخرة ، ولقد حلف لي من أثق به غير واحد من المشايخ المعمرين ، أنهم لم
يشاهدوا مثل هذا الترتيب ولا مثل هذا القماش ، وأما أني رأيت دخول
[ص ٢٢] / الأشرف برسباي سنة ست وثلاثين وثمان مائة فتميز دخوله على ذلك بأمور :
منها أنه دخل لابساً مماليكه بأجمعهم ، ومنها أن المدينة زينت ولم تزين
للأشرف ، ومنها أن الممالك السلطانية الذين كانوا مع الأشرف أفسدوا كثيراً ، ولم
يفسدوا خوفاً منه^(١٤٠) .

(١٣٨) العين المباركة : عين معروفة حتى الآن قرب خان طومان في الجنوب الغربي من حلب .
(المصور رقم ٤) .

(١٣٩) السنجق : كلمة تركية الأصل معناها اللواء أو العلم .

(١٤٠) يقصد بلم يفسدوا : ممالك الأمير تشبّك الدوادار .

ونزل بالميدان الأخضر^(١٤١) بحلب ، والنواب والمقدمين والأمراء في خدمته ، فذل له كافل المملكة الشامية سماًطاً حافلاً ، بأشر مد السماًط بنفسه ، وأخذ العصي بيده وأراد الوقوف إلى أن ينتهي ، فحلف عليه وأجلسه معه بعد أن امتنع امتناعاً كلياً ، وأقام بالميدان والكفلاء والأمراء يترددون إلى خدمته ، ولا يجتمع به إلا أكابرهم ، وأما الخاصكية الكبار وأمراء العشراوات فلا يجتمع منهم إلا القليل ، ووقعت هيئته في قلب الخاص والعام .

وكل هذا ولم يزل يعن فكره بما يتصل إلى انكسار العدو وليس له دأب ولا هم سوى ذلك .

وفي يوم الخميس / سادس عشره ، حضر إليه كافل المملكة الحلبية وصحبته [ص ٢٣] أمراء التركان : الأمير شاه بداق بن دلغادر ، والأمير محمد بن أسلماس ، والأمير خليل بن بوزجا ، والأمير حمزة بن إينال وابن كندر وغيرهم من الأمراء البوزقية^(١٤٢) . وجلسوا عن يمينه مع كافل المملكة الحلبية ، وجلس عن يساره الأمير إينال الأشقر رأس نوبة النوب وإلى جانبه الأمير تراز الأشرفي أحد المقدمين ، وفي جانبه الأمير عمر بن رمضان وأخيه داود وغيرهم من الأمراء الأوجقية^(١٤٣) ورسم لي أني أعلمهم أن أحداً منهم لا يخالف كافل المملكة الحلبية ولا يخرج عن أمره ، ويمتثلوا جميع ما يرسم به ، ولا يترددون إلى باب أحد غيره

(١٤١) الميدان الأخضر : لا يزال هذا الميدان معروفاً بهذا الاسم وهو في شمال مدينة حلب .

(١٤٢) البوزقية : مأخوذة من كلمة بوزوق وهي بمعنى غير المنتظم ، ولعله يقصد الأمراء غير المنتسبين إلى هيئة الجيش العامة ، أي الأوجاقية .

(١٤٣) الأوجقية أو الأوجاقية : ومنها الأوجاق وهو الجيش في المصطلحات العثمانية (راجع السلوك ٤٣٣/١) ومعنى أوجاق بالتركية مأوى الأسرة الكبيرة وعند العوام في الشام تعني موقد النار . ولعله أراد بالبوزقية الأمراء الذين لا يرجعون في إمارتهم إلى القواعد المتعارفة ، وأراد بالثانية الأمراء الذين يسرون في إمارتهم على الأصول والقواعد المتعارفة إذ ذاك .

فإنه أستاذهم^(١٤٤) الحاضر ، ومضى بلغه عن أحد منهم تردد إلى أحد حصل عليه مالا خيرا فيه . وكان عند وصوله قصدوا بابه فلم يمكنهم من الدخول إليه ، وقال لهم : من كان له ضرورة منكم فليتوجه إلى كافل المملكة الحلبية ويذكر ضرورته [ص ٢٤] له وهو / يعرفنا بحالكم لأنه نائب البلد وهو أدرى بحالكم . فلما تكامل المجلس وأعلمتهم بما رسم لي أجابوا بالسمع والطاعة ، فعند ذلك ألبسهم خلعهم ، وجهز لكافل المملكة الحلبية مبلغ ثمانية آلاف أشرفياً ليفرقها عليهم ، وجهزني مع المبلغ ففرقتها بحضرة كافل المملكة الحلبية ، فشكى حاله لي وأشار عليّ بأن أفاوض المسامع النظامية بذلك ، وأنه محتاج إلى مبلغ ، فذكرت له ذلك ، فرسم له بعشرة آلاف أشرفي حملت إليه على يد يحيى المزين .

وأنعم أيده الله ببلاتكته لكل من قصده من النواب والأمراء . ولم يخيب أحداً منهم ، وفرق على جماعة من المماليك السلطانية على قدر مراتبهم وأحوالهم ، وفرق على المماليك الذين حضروا صحبة إينال الأشقر لكل واحدٍ منهم عشرة أشرفياً . وغلّق لهم جوامكهم وعليقهم إلى آخر صفر . وهذا شيء لم ينهض به أحد من الباشات الذين تقدموا بل ولا قيراطاً منه ، وأما إنعامه من الخيل والجمال فلا يحصى .

[ص ٢٥] / وفي نهار الخميس ثالث عشرين شهر ذي الحجة وصل كتاب جارقطلي نائب قلعة المسلمين^(١٤٥) بأن نائب ملطية ركب على صارم بن بهلوان وكبس بيته ،

(١٤٤) أستاذ : استعملت عند المماليك على من يشتري المملوك بالمال ويريه ثم يعتقه عند الكبر وتعتبر رابطة الأستاذية أقوى رابطة بين المملوك وأستاذه ، وقد استعملها المؤلف هنا ليؤكد على كامل ارتباط الأمراء المذكورين بكافل المملكة الحلبية .

(١٤٥) قلعة المسلمين : تدعى اليوم قلعة الروم وهي بلدة في جنوب وسط تركيا إلى الجنوب من ملاطية ، تقع على جبل شامخ يجري الفرات في أسفله ويلتف عليه كنصف دائرة كالخندق له . كانت مقر بطريك الأرمن في القديم ، ولما كثرت عبث الأرمن هاجها الملك الأشرف صلاح الدين خليل سنة ٦٩١ هـ وفتحها فسميت قلعة المسلمين (انظر موقعها على المصور رقم ١) .

وهرب ابن بهلوان ودخل إلى جبل يسمى صقل طوتان^(١٤٦) فتبعه ، فلما دخل الجبل ربط طريقه ، وحصل بينهما قتال شديد إلى أن ضرب فرس قرقاس نائب ملطية بنشابة سقط فرسه من الجرح ، ووقع عن الفرس فقبض عليه ، وفي رابعه حضر أهل ملطية وقاضيتها فأخبروا بذلك . فسألهم المَقَرُّ الأشرف نظام الملك أيده الله تعالى ونصره عن سبب ركوبه ، فذكروا أن قافلة أخذها صارم بن بهلوان بين ملطية وهسنى وفيهم ممالك جراكسة مع تاجر يسمى شيجي وعدتهم ثمانية وعشرون مملوكاً ، فركب رجاء خلاصهم وخلاص مال التجار ، وحين بلغه ذلك عين الأمير إينال الحكيم نائباً للملطية وأعطاه ألف دينار وأخلع عليه وأركبه فرساً بكنبوش / وسرج وجّهز معه خمسين مملوكاً من الممالك السلطانية ، وأردفه بالأمير [ص ٢٦] شاه باك بن شهري نائب دوركي^(١٤٧) وكان حضر للخدمة الكريمة ، فأنعم عليه بكاملية وأركبه فرساً بكنبوش وسرج ذهب وتوجها ليلة السبت سابع عشرين شهر تاريخه .

[سفر الأمير يَشْبَك من حلب]

وفي يوم الخميس مستهل سنة ست رحل كافل المملكة الحلبية ونزل بقرية حيلان^(١٤٨) ، وفي يوم الجمعة ثانيه رحل كافل المملكة الشامية . وفي يوم السبت توجه الساعي بالأخبار إلى الأبواب الشريفة .

(١٤٦) صقل طوتان : والصواب صقال طوتان . ومعناها قابض الذقون ، تطلق عند الأتراك على

المكان الضيق الموحش وهو الآن اسم جبل إلى الشرق من مرعش .

(١٤٧) دوركي : الأغلب أنها ديريك وهي بلدة في جنوب تركيا تقع على بعد ٣٦ كم إلى الغرب من ماردين (راجع موقعها على المصور ١) .

(١٤٨) حيلان : قرية في شمالي مدينة حلب كانت تأتي منها القناة المنسوبة إليها والتي كانت المورد الوحيد لشرب أهل حلب قبل جر مياه الفرات إليها (انظر موقعها على المصور ٤) .

وفي يوم الأحد رحل المَقَرُّ الأشرف نظام الملك أيده الله بملائكته الكرام بن معه من العسكر المصري ونزل بين قرية المسامية^(١٤٩) وقَيْلَ كتب الله سلامته ونصره ، ثم رحل منها ونزل بمرج دابق^(١٥٠) وأقام به إلى نهار الخميس . ورحل ونزل بقرية تل الفار ، وكانت لي ضرورة ، فتأخرت بحلب عند رحيله وأدركته بهذه المنزلة صبيحة نهار الجمعة ، ثم منها إلى قرية زغرغين وهي قرية كبيرة وبها [ص ٢٧] / أرجاء وبساتين ومياه جارية .

وبها وصل الأمير إينال الأشقر رأس نوبة النوب والمكاحل^(١٥١) معه تجرأ العَجَل^(١٥٢) ، وكان سلك طريق الباب^(١٥٣) وبزاغة^(١٥٤) للسهولة ، وما كان أحد يظن أنها تصل ، لكن الله سبحانه وتعالى سهّل ذلك وهوّنه ، وهذا من علامات السعادة . وفي آخر النهار توجّه جماعة من الغلمان والأوباش والعشير بعد أن أشاع بعض من لا يريد الخير للمسلمين وقصده إثارة الفتنة بأن الباش أمر الناس أن ينهبوا قرية زغرغين ، ولم يكن لذلك حقيقة لأنني في تلك الحالة عنده ، والناس

(١٤٩) المسامية : قرية في شمالي حلب تبعد عنها ٢٥ كم فيها محطة سكة حديد بغداد (انظر موقعها على المصور ٤) .

(١٥٠) مرج دابق : مرج فسيح منبسط شمالي حلب بجوار قرية دابق ، اشتهر بالمعركة الفاصلة بين السلطان سليم العثماني والسلطان قانصوه الغوري المملوكي ، والتي انتهت بهزيمة الغوري وموته سنة ٩٢٢ هـ وسير تفصيل المعركة في فصل لاحق من هذا الكتاب ، وإلى شمال قرية دابق تل كبير عليه قبر الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك وعليه قبة مسورة ، وهو مشهور بمزار الشيخ بركات . ولم يعد مرج دابق مرجاً بل أصبح معموراً بالقرى التي يزيد عددها عن ٥٠ قرية (المصور رقم ٤) .

(١٥١) المكاحل : الدافع .

(١٥٢) العجل : العجلات .

(١٥٣) الباب : بلدة إلى الشمال الشرقي من حلب تبعد عنها ٤٠ كلم ، حولها بساتين غنية بثأرها (انظر موقعها على المصور ٤) .

(١٥٤) بزاغة : قرية شرقي الباب قريبة منها وكأنها حي من أحيائها غنية ببساتينها .

يهرعون من كل جانب وهو يتعجب ويقول لي ولغيري : ما هذه الحكاية ؟ .
وليس منا أحد يعرف الحال .

ولما تزايد الأمر وكان بجانبه الأمير سودون الطويل ، فقال له : اركب
وانظر ورْدَ الناس . فسكت فلم يجبه ، وسمعت منه أنهم توجهوا لنهب القرية وقد
فات الأمر . وكان كافل المملكة / الشامية إذ ذاك جالس عنده ، وبقي يتأدب [ص ٢٨]
منه أنه يدعه في منزله ثم يركب ، فثنى على الأمير سودون ثانياً وهو واقف وراء
الحنية ، فلم يجبه بشيء ، ثم التفت إليّ وقال : اركب وانظر الحال ، ومهما أمكنك
من الرد فافعل ، فركبت في الحال ومعني ثلاثة أنفس من جماعتي ، فرأيت أول
النهب قد وصل إلى الوطأ^(١٥٥) ، وكان معي جماعة من فلاحين القرية فكلمنا
صادفت أحداً معه شيء أخذته منه ودفعته للفلاحين ، وكان ذلك من فضل الله
تعالى ، فإني صادفت في الطريق شيئاً كثيراً مع أوباش لا خلاق لهم ، ووصلت
إلى القرية وهي على تل عالٍ ، وصعدتها ووجدت بها بقية من الناهبين فضربتهم
وطردتهم من القرية ، وأخذت ما وجدت معهم . وصرت كالهائم أجول بفرسي بينة
ويسرة ، وخصوصاً لما شاهدت الحرير وقد نزعت عنهم أثوابهم والأطفال ، فصرت
أكرر قوله تعالى : « إنا لله / وإنا إليه راجعون » . ثم رأيت بعض الأوباش قد [ص ٢٩]
رموا الحريق في جانب البلد ، فبقيت متحيراً ، وإذا بالأمير جانم الزردكاش وصل
بجماعته ومعه السقائين لإطفاء ما وقع من الحريق خوفاً على الزردخانات
السلطانية ، فإنها كانت نزلت بالقرب من القرية فطفاها الله تعالى .

هذا ما كان من كاتبه ، وأما المقر الأشرف نظام الملك الشريف ، فأخذته
حمية الإسلام والشفقة على الرعية وعلى المسلمين ، والنار في قلبه ، وهو يتجلد لعل

(١٥٥) الوطأ : لعله يقصد الأرض المنخفضة عن الأراضي التي بنيت عليها القرية . ولهذا التسمية
ذكر في الصفحة ٨٤٠ من الجزء الأول من كتاب السلوك ويفهم منه أن الوطأ مكان قرب قلعة
نجية .

نائب الشام يقوم ويتوجه لحال سبيله . فلما أطل نائب الشام الجلوس ، نهض في الحال وهو يهرول في مشيه ، فأدركوه خارج الخيم بركوبه ، فمن صادفه من الناهبين ووجد معه من القماش أمر بتوسيطه بعد أخذ القماش منه ، ومنهم من ضربه المماليك بالدبابيس^(١٥٦) والمطارق إلى أن مات . ومنهم من قطعت يده ، [ص ٣٠] إلى أن أفنى أناساً من الناهبين / . وفي الحال أمر أن ينادى في العسكر بأن من أخذ شيئاً من القرية يحضر به أو يحذفه بالبرية ، ومن وُجدَ معه شيء بعد المنادة جرى عليه ما جرى على المتوسطين والمقتولين ولا يلوم إلا نفسه . فعند ذلك شرع الناس في إلقاء ما بأيديهم من النهب . ثم نادى ثانياً بأن يعلم الأجناد وجد عند خدامه شيء من النهب فإني بالغداة أنزل المضيق وأفتش جميع حوائج الأجناد والأمراء ، فمن وجدتُ معه شيئاً : إن كان أميراً أخذتُ إقطاعه ، وإن كان جندياً شنقته ، وليس لي شغل مع غلامه .

وبلغه أن جماعة من الأجناد والتركمان والأكراد توجهوا إلى جهات بالقرب من المنزل للنهب ، ظناً أنه أذن في ذلك ، فأركب لاجين دواذره مع جماعة من مماليكه ، ورسم له أن يقبض كل من يقع نظره عليه من المذكورين ، وقبضوا على جماعة من المتوجهين للنهب ، وأخذوا ما وجدوا بأيديهم وأنزلوهم عن خيولهم [ص ٣١] وأحضرهم / مشاة عراة ، ووجد فيهم جماعة من مماليك الكفلاء والأمراء ، فأودع الكل في الحديد ، وردّ للفلاحين ما أخذ منهم ، فالله يجازيه عن المسلمين كل خير . فلما تحقق الناس قيامه في نصرته المظلومين شرع كل منهم يلقي ما أخذه ، فأصبح غالب الحوائج ملقى في خارج الخيم ، غير ما جمعه رئيس نوبه في الصيوان ، فحصل بذلك فرح كبير للرعية ، ولولا استدراكه وقيامه ضاعت تلك الحوائج ونفذ قضاء الله وقدره فين وسط وقتل . وكانت كائنة عظيمة دفع الله شرها بحسن نيته ، فلعنة الله على من أثارها . وبات تلك الليلة ولم يأكل شيئاً .

(١٥٦) الدبابيس : جمع دبسة وهي عصا غليظة الرأس .

[حصار قلعة عينتاب وفتحها]

وفيه وصل كتاب من جماعة وعدتهم خمسة وعشرون نفرأ يطلبون الأمان منه ، وأنهم إن أمكنهم تسليم القلعة يسلموها ، فأعطاهم الأمان ووعدهم بكل خير ، فتأخر عن الرحيل يوم السبت بسبب ذلك إلى قرب الظهر ، ثم رحل منها وطلب الأطلاب ودخل إلى مدينة عينتاب / قبل العصر ، ونزل بالقرب من الميدان ، [ص ٣٢] ونادى بالأمان لأهل القلعة مدة ثلاثة أيام ، ورسم للعسكر بأنهم لا يقتاتلوا أهل القلعة ولا يرموهم بالنشاب . فبقي أهل القلعة كلما مرّ عليهم أحد من المشاة والغلمان يرموهم بالسهم من المرامي حتى جرحوا أناساً وقتل ثلاثة أنفار .

فعاودهم الثانية بأنهم آمنون على أنفسهم وحرّيمهم وأموالهم ، بشرط أنهم يسلموا القلعة وهم مخيرون بين الإقامة في المملكة السلطانية والتوجه حيث شاؤوا وأرادوا ، فكان جوابهم أنهم لا يريدون أماناً وأنهم مصرّون على القتال ولا يرجعون عما هم فيه إلا أن يقتلوا عن آخرهم . فقال أيده الله بملائكته الكرام : الآن تعين قتالهم ومناذتهم . فشرع في نصب المكاحل ، فنصبت مكحلتى السلطان الملك الأشرف خلّد الله ملكه في مقابلة البرج المشهور ببرج ابن البياجي وبرج الماء ، ومكحلة كافل المملكة / الشامية بالقرب منها من جهة الشرق ، ومكحلة [ص ٣٣] كافل المملكة الحلبية على باب الدباغة من جهة شمال القلعة ، ومكحلة المقر الأشرف أمير دوادار أعز الله أنصاره ، طلبها الأمير خايرباك أحد المقدمين بالقاهرة ، واختار له مكاناً من جهة الشرق بتل عال هناك يسمى تل الأكراد ، ثم رأى أنّ المكان في غاية البعد ، فنقله إلى أسفل منه ، ثم رمى فلم يصب ، إلى أن نقله إلى ثلاثة أماكن ، وكل العسكر والمعلمين يقولوا إن المكان الذي اختاره

لا يصلح ، وهو يكابر الجميع ويدعي أنه ليس في جوانب القلعة مكان أصلح من ذلك ، وخالف الإجماع في ذلك . نسأل الله العافية في عقولنا .

وكان المَقْرُّ الأشرف عند نزوله بعينتاب طَلَبَ الأمراء والكفلاء وقال لهم : إنا وصلنا إلى عينتاب وقد أحضرنا معنا من السلاح والمكاحل والمناجيق ما لم [ص ٣٤] يحضر مع ملك من الملوك ، فأنتم / مخيرون بين أمرين ، إما أنكم تلتزموا حفر الخندق وحفظ جهة العدو ، وأنا ألتزم حصار القلعة وهو الأولى ، لأن جماعتي أكثر من جماعتكم والصناع يهابون مني أكثر ، وإما أن ألتزم حفر الخندق وحفظ جهة العدو وأنتم تلتزمون الحصار ، فأجابوا أن المصلحة تقتضي أن نلتزم الحصار وأنت تقيم في حفظ جهة العدو وحفر الخندق ، وتفرقوا على ذلك .

ونصبت المكاحل والمناجيق حسباً تقدم والرمي عليهم مستمر إلى تسعة أيام من حين النزول . والمَقْرُّ الأشرف ينظر همتهم ولا يعجبه ذلك لما في قلبه من الهمة العالية . وكل يوم يتأسف ويحترق على منعهم إياه من الحصار ويتحقق أن الأمر لا يتم على هذا الحال .

وفي عصر يوم الأحد حضر إليه الأمير يَشْبَكُ نائب طرابلس ، فذكر له بأن الأمر لا يتم إلا به ، وربما إذا حصل تمادٍ في الأمر يطمع العدو ، فهيج ما في [ص ٣٥] خاطره فركب في الحال ونادى لغلمايه / ومماليكه والعشير المضاف إليه بأنهم يقطعوا أشجار الصفصاف ويلقوها في مقابلة برج الماء ، ففي الحال قطع جانب كبير من الأشجار وسحبت إلى أن أُلقيت في الخندق ، ثم أمر العشير بأنهم يلقوا على ذلك التراب . وبات تلك الليلة وهو مجد على الحصار ولا يدع أحداً يقرب السور اللهم إن كان بغير علمه ، ولا زال على ذلك إلى أن صنع جسراً بمماليكه يصل إلى الجانب الآخر ، كل ذلك في يوم وليلة . وملك برج الماء وهدمها ثم رسم بحث رمي المكاحل ، وياشر الأمور بنفسه والنشاب والحجارة ترمي من القلعة مثل المطر وهو لا يلتفت إلى شيء من ذلك ، فله دره ما أقوى جنانه . ثم رسم

للأمير خاير بك بأنه ينقل المكحلة المتعلقة به إلى مكان عيّنه بين مكحلتني نائب الشام ونائب حلب لبعديّ بينهما ، ليتصل المكاحل بعضها ببعض ، فإنّ ذلك أكثر تأثيراً من البعد ، فنقله المشار إليه ، وأمره أن يرمي ويباشر ذلك على عادته . / وكان قد انكسر خاطره لنقل ذلك ، فلما عيّنه طاب خاطره ورمى حجرين [ص ٣٦]

فانهدم ما كان بين الكافلين من السور ، ووقع الرعب في قلوب أهل القلعة من أمرين : أحدهما من شدة الحصار ، والثاني من الهدم . وتحققوا أن لا طاقة لهم بذلك ، وأنهم مأخوذون لا محالة ، فطلبوا الأمير إينال الأشقر رأس نوبة النوب من المقرّ الأشرف نظام الملك الشريف أيّده الله تعالى ، ليتفقوا معه على أمر يكون فيه خلاصهم ويسلموا القلعة ، فجهّزه المشار إليه وجهّزني معه لأسمع ما يقولون وأرد عليه الجواب .

فتوجهت معه ومعنا جماعة منهم الأمير ناصر بن دلغادر ، والأمير علي بن فياض ، ووقفنا بمكان بالقرب من المرمى وهم وراء ذلك . فتكلم قانباي النائب من جهة سوار المخدول كلاماً طويلاً ملخصها أنهم يطلبوا الأمان لأنفسهم وأولادهم وأمواهم ، وإذا أنعم عليهم بذلك يسلموا القلعة ، وأنهم يطلبوا النظر الكريم عليهم ، / بأن يُجرى عليهم رزق يقوم بأودهم ، وأنه لم يبق لهم وجه يقابلوا به [ص ٣٧] مخدومهم .

فرجعت للمشار إليه ، واستمر المقرّ الأشرف إينال الأشقر مقيماً بالمكان المذكور ، وبلغت ما كان سأله ، فأجابهم إلى ذلك وخيّرهم بين الإقامة عنده أو التوجه إلى عند مخدومهم ، وأنهم آمنون حسبما تقدم سؤلهم ، فرجعت وأخبرتهم بما أنعم عليهم ، فجهّزوا شخصاً من جهتهم يسمى حسن بك بن حجك لسمع من لفظ المقرّ المشار إليه ذلك ليزداد قلوبهم طمأنينة ، فحضر وسمع جميع ما بلغته ، فرأيت في وجهه بعض تغير ما أعجبني ذلك منه ، فقلت له : لعلك تريد أن يحلف لك الأمير نصره الله على ما أنعم به من الأمان ، فقال نعم ، فسألت

صدقته في ذلك ، فأجاب وحلف له وأرضاه . ثم ألبسه كاملية سموراً طرشاً ، وجهزه إلى القلعة ليخبرهم بما شاهده ، فصعد إلى القلعة وأخبرهم بجميع ما شاهده [ص ٢٨] من الشفقة والحنو من المشار إليه / فعند ذلك نزل قانباي النائب وصحبته جميع المقاتلة ، وسلم مفاتيح القلعة للمقر الأشرف الأمير دودار وباش العساكر الإسلامية ، فخلع عليه كاملية سموراً طرشاً وأركبه فرساً بسرج مغرق ، وسلمه وجميع من معه لجماعة من الخاصكية خوفاً أن أحداً من العسكر يعارضهم أو يشوش عليهم ، وأنزلهم بخيام أفردوا لهم عند الأمير إينال الأشقر ، وأكرم نزلهم .

ثم توجه بنفسه والكفلاء والأمراء والشطفة^(١٥٧) الشريفة محولة عليه ، وصعد القلعة ونصب الشطفة على بابها والبشائر تدق ، ووقف ساعة إلى أن نزل من بقي بالقلعة بأهلهم وأولادهم وأثاثهم وقماشهم وما يتعلق بهم ، ولم يَكُنْ أحداً من التعرض لهم ولا بما قيمته الحبة . وآواهم وأوصلهم مع جماعة ممن اختارهم إلى مخيم المعين لهم . ثم صعد إلى أعلى القلعة ونصب عليها الشطفة ، وجلس بمكان عال [ص ٣٩] مُطلٌ على المدينة ، ونظر إلى جوانب / القلعة فرأها حصينة جداً ، وتعجب من حال الملوك السالفة كيف أهملوا أمرها ، وهي في غاية الصعوبة . ثم عيّن جماعة للمبيت بها ، ونزل مؤيداً منصوراً مسروراً بما منحه الله تعالى من الفتح ، وكان أكبر سروره أن الله سبحانه وتعالى ألهمهم طلب الأمان ، ولولا ذلك وأخذت بالسيف يلزم من ذلك سفك دماء أهل القلعة ونهب أموالهم ، وما كانت تؤخذ إلا بعد قتال كبير ، يقتل ويحرق بسبب ذلك جانب كبير من العسكر فلله الحمد على ذلك .

وأصبح يوم الأربعاء وكتب البشائر وجهزها على يد القاضي شرف الدين الأنصاري وكيل المقام الشريف ، وكان طلب ذلك منه قبل وصوله إلى عينتاب ،

(١٥٧) الشطفة : لعلها محرفة عن الشطبة ، ومن معاني الشطبة : السيف ، وربما كانتشارة ملكية تحمل كما يحمل اللواء على رأس أمير الجيش .

بأنه إذا فتح الله عليه بأخذ قلعة عينتاب يكون هو المبشر ، فقام بوعده له .

وأقام بعينتاب بعد أخذه القلعة في التاريخ المذكور ، واهتم بعمارة ما انهدم منها ، وكان حضر معه جماعة / من المعلمين والصناع من القاهرة المحروسة والشام [ص ٤٠] وحلب . فطلب إذ ذاك أيضاً جماعة من حماة وحمص والبيرة^(١٥٨) وقلعة المسلمين ، فحضر الجميع وعمر القلعة في مقدار شهر ، وكلها أحسن ما كانت ، وجدد بها باباً ، وجعل عليه ثلاث مرامي ، وكتب تجديدها على باب القلعة باسم مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي خلد الله ملكه . وملأها من القمح والشعير والسلاح على أصنافها .

[الصدام الأول مع أتباع شاه سوار]

وفي يوم الأربعاء ثالث عشر شهر صفر الخير ، تسحب الأمير عيسى بن قراجا من جماعة سوار المخدول وقت السحر ، وحضر للمخيم الكريم وتمثل لدى المقر الأشرف أمير دوا دار وباش العساكر المنصورة ، وذكر أن سواراً حضر إلى جبل الصوف^(١٥٩) ونزل به بعسكره ، وأنه عيّن من جماعته طائفتين ، جهز أحدهما إلى جهة قلعة المسلمين ، وجهز طائفة إلى جهة الحمحة^(١٦٠) (كذا) ليقطعوا طريق

(١٥٨) البيرة : بلدة تركية هي قصبة قضاء يعرف اليوم ببيير جييك يقع في شمال شرق حلب وتبعد عنها ٢١٠ كلم وموقعها الحربي والتجاري مهم لأنها على ضفة الفرات . وهي مدينة قديمة جداً وكان لها في صدر الإسلام قلعة حصينة ، وهي جيدة المناخ كثيرة الخيرات (انظر موقعها على المصور رقم ١) .

(١٥٩) جبل الصوف : جبل كبير معروف إلى الشمال الغربي من بلدة عينتاب . (انظر المصور رقم ١) .

(١٦٠) الحمحة : لا يوجد في تلك الجهات مكان بهذا الاسم ، إنما يوجد حصن اسمه قريب منه وهي حميص أو حميص كما كتبه النويري في كتابه (نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١٤) وموقعه إلى الشرق من تل حمدون . (المصور ٤) .

حلب ويأخذوا من وجدوا من القوافل والمسافرين ، وقصد بذلك قطع الميرة^(١٦١)
[ص ٤١] / ليضعف العسكر بذلك ، لما بلغه من الخيرات التي تنقل من سائر الجهات من
الحبوب والفواكه والأغنام . وذكر أنه في الطائفة الثانية منهم ومن جملة المعينين .

فما كذب المقرّ الأشرف خبره . وفي الحال عيّن الأمير إينال الأشقر رأس نوبة
النوب ، والأمير خايرباك أحد المقدمين بالقاهرة ومعها فرقة من العسكر المنصور
والأكرد والتركمان . فلما خرجوا من الخيم وتوجهوا إلى الجهة المذكورة ، رأوا آثار
خيلهم ، فتبع الأمير إينال الأشقر الأثر ، والأمير خايرباك إلى جهة أخرى إلى
محل رجوعهم ، وافترقوا فرقتين . فأما الأمير خايرباك صادف المذكورين وهم
ما بين الستائة والسبعائة . وكان الأمير خايرباك في نفر قليل من الأتراك
وجاعة من الأكرد ، وكانوا في أوائل الأمير خايرباك ، فانتشب القتال بين
السوارية والأكرد ، وأزعجهم لأن السوارية كانوا ملبسين والأكرد عرايا^(١٦٢) ،
[ص ٤٢] فأدركهم طائفة / من الأتراك وفي أيديهم الرماح السهرية ، فما كان غير نصف
ساعة حتى ولوا الأدبار ، بعد أن قتل من أعيانهم الأمير قيا بن فارس وابن أخيه ،
والياس وحسن بن قزل مح ، وسليمان بن مسعود ، ومن أولاد بنو كلكار أربعة من
أعيانهم ، وتبرك ومصطفى أولاد إيرنجي ، وغيرهم ممن لا يعرفوا . وقبض على
ثلاثة أنفار وقطع ثمانية وعشرون رأساً ، فلما شاهد الخذولون ذلك التجؤا إلى
جبل هناك ، ورمى غالبهم خيله ، ولوتبع الأمير إينال رأي الأمير خايرباك
ما خلاص منهم أحد ، فحضر في عشية ذلك اليوم العسكر المجهز صحبة الأمير
خايرباك والرؤوس على أرماحهم والمقبوضين عليهم أمامهم وكانت ساعة
مشهودة . .

(١٦١) الميرة : المؤن .

(١٦٢) يقصد أن السوارية يلبسون الدروع الواقية والأكرد بلا دروع .

وفي صبيحة نهار الخميس ، حضر الأمير خايرباك إلى الخيم الكريم ، وصحبته
الرؤوس والمقبوضين عليهم ، فأخلع المقر الأشرف باش العساكر المنصورة عليه
قباء^(١٦٣) طراز يلبغاوي ، وأركبه فرساً بسرج ذهب وكنبوش / وعلى الأمير [ص ٤٣]
سودون المنصوري بطراز ، وعلى الأمير جانم بطراز ، وعلى الأمير يلباي المؤيدي
بطراز ، وعلى الأمير ناصر الكردي بطراز ، وعلى كل من أحضر رأساً بخلعة ونفقة
يليق به .

وكان أنعم على من شهد الواقعة من المماليك السلطانية بألف دينار ليفرقها
عليهم الأمير خايرباك على قدر مراتبهم في الحرب حسبما شاهدتهم ، فلما جمعهم
الأمير خايرباك ليفرقها عليهم حسبما يراه ، فاختلفت كلمتهم وادعى كل منهم
أنه الذي كان في أوائل القوم ، وأنه الذي فعل كذا ، ونسبوا الأمير خايرباك إلى
غرض مع بعضهم ، وكان برياً من ذلك ، فلما شاهد ذلك ردّ المبلغ إلى المقر المشار
إليه لعجزه عن رضاهم . فطلبني الأمير تراز الساقى قريب مولانا السلطان الملك
الأشرف قايتباي خلد الله ملكه ، وقال بعد كلام كثير : ليس من المصلحة تفرقة
المال على المماليك السلطانية ، الرأي إهمال مثل هذا الأمر . فبلغت المقر الأشرف
المشار إليه ما شافهني / به ، فقال : والله ما قصدت بهذا إلا أن العدو الخذول [ص ٤٤]
قريب منا ، ولا بدّ أنه يحصل بيننا وبينه قتال ، والمماليك السلطانية إذا رأوا هذا
تزداد رغبتهم في بياض الوجه ، ويحصل الغرض الشريف وإلا أنا أحب ما لي أكثر
منهم .

(١٦٣) القباء : نوع من الملابس الملوكية وهي قفطان ضيق الأكمام .

[المفاوضات مع شاه سوار]

وفي عشرين شهر تاريخه ، وصل قاصد من عند سوار المخدول يسمى محمد بن أنحقرق وعلى يده هدية للمقر الأشرف باش العساكر الإسلامية وكتاب ، ولنائب حلب كتاب وهدية ، ولكافل المملكة الشامية كتاب ، وللأمير إينال الأشقر كتاب ، ومضمون الكل بأنه رغب في الدخول للطاعة الشريفة ، وأنهم يجهزوا من يعتمدوا على كلامه ليبيدي لهم غرضه .

فجهزوني إليه ومعني أرمغان^(١٦٤) في مقابلة هديته ، فتوجهت إليه ومعني قاصده ووصلت إليه بجبل الصوف ، فأنزلني عند دواداره المسمى بجراغ ، وكان أخوقيا أمير العسكر الذي تلاقى مع الأمير خايرباك وقتل هو وابن أخيه ، [ص ٤٥] وحمل / رأسها في جملة الرؤوس ، فتعجبت من هذا الاتفاق الغريب ، ثم سألت من الله السلامة . وكنا هجمنا عليه على غفلة من غير إعلام ، فصعب عليه ذلك ولام قاصده ، وقال : تحضر بمثل هذا ولا تعلمنا ، وكان من الواجب علينا أن نجهز من يلاقيه ، فالبثت غير ساعة رملية حتى طلبني ، فلما قربت منه قام ولقاني خطوات وأجلسني بجانبه بعد أن أظهر الترحُّب والفرح بحضوري إليه ، وخطبني بأدب وإعزاز . والظاهر أن قاصده أخبره بذلك ، لأن المقر الأشرف أمير دوادار أيده الله تعالى بملائكته قال للقاصد المذكور : قد جهزت إليكم قاضي العسكر وهو والدنا كلنا واعتمادنا على كلامه ، ورضاه رضانا ، ومهما اتفق معكم كان ذلك وما ثم خلاف .

(١٦٤) أرمغان : كلمة تركية من أصل فارسي بمعنى الهدية أو الهبة .

فناولت دواداره الكتاب الذي صحبتني جواباً لسؤاله من المقر الأشرف أمير دوادار وباش العساكر المنصورة ، والاعتاد في ذلك كله عليّ فيما يرى فيه المصلحة . فقلت بعد أن حمدت / الله وأثنيت عليه وتلوت قوله تعالى : ﴿ وإن [ص ٤٦] طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ... ﴾ (الآية) . ثم أوردت الحديث المشهور في حق الحسن بن علي عليهما السلام ، وأن النبي ﷺ قال « إن ابني هذا لسيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » وصار ذلك كما قاله ﷺ بعد نيف وثلاثين سنة ، حين سلم حسن الأمر لمعاوية بعد قتل علي رضي الله عنه شهيداً كما هو مشهور ، وعدّ ذلك من معجزاته ﷺ .

وهذا الأمر قد أخذ حده ، وقد هلكت الرعية من غير فائدة حصلت ، والأولى الإذعان إلى الحق وكف الأذى والأغراض النفسانية فإنها ملجئة إلى خسران الدنيا والآخرة .

فقال لي : إنك قد وعظتنا وأحسنتم ، ولكن كان الأوجب عليكم أن تعظ جماعتك ، لأنهم ثلاث مرار يحضروا إليّ بعساكرهم فيردهم الله / على أعقابهم [ص ٤٧] خائبين خاسرين ، ويرزقني النصر عليهم لبغيهم عليّ .

فقلت سبحان الله أنتم تبدؤوا بالبغي ، فإذا قوبلتم بما صدر منكم تقولوا بغيم علينا ، ولا شك ولا خفا أن مولانا السلطان خلد الله ملكه هو خادم الحرمين الشريفين ، والإمامة لأمر المؤمنين ، وقد فوّض إليه أمور المملكة ، وأنت وأباك وأجدادك من قبلك نواب السلطنة من قديم الزمان وإلى الآن ، وإذا خرجتم عن الطاعة وجب عليه قتالكم ، فهذا لا يكون من قبيل البغي ، والباعي لا يطلق إلا على من خرج عن الطاعة المفروضة . وأما قولكم بأن الله نصركم عليهم لبغيهم ، فهذا أيضاً ليس بدليل من وجوه : منها أن الله سبحانه وتعالى تارة يبلي المؤمنين ليضعف لهم الأجر ، ومنها أن يكون ذلك لسوء تدبير منهم ومخالفة ذوي الآراء ، والدليل في ذلك قتلى أحد .

[ص ٤٨] وكان من الحاضرين في ذلك الوقت الشيخ ^(١٦٥) قاضي / عسكره ، فقال :
هذا كله بتقدير الله .

قلت : نعم ولكن سوء التدبير كان سبباً لذلك ، لأن العبد له الإختيار
الجزئي ، ولولا ذلك لما استحق العقاب .

فقال : دع عنك هذا كله فوالله وتربة جدي ووالدي لو تأخر أخذ القلعة
خمسة أيام لكنت نصبت خيامي في مقابلة خيامكم ورأيتم قتالي معكم . فتبسمت
عند ذلك .

فقال لي : مِمَّ تبسم ؟ .

فقلت : خيراً .

فقال : تكلم .

فقلت : أتأذن لي في الكلام ؟

فقال : نعم .

فقلت له : ذكرت أنك كنت تريد الحضور والقتال لولا أخذ القلعة ، فأنت
إذا حضرت كنت تقا تل القلعة أم الغريم ؟

فقال : بل الغريم .

قلت : الغريم حاضر ولا لك مانع من ذلك ، فماسبب تقاعدك ؟

فسكت فلم يجب وعلم أني أفحمته .

فقلت له يا مولانا الأمير : إنك طلبت شخصاً سمع [منه] مقصود الأمراء
وهو يسمع مقصودك ، فأما مقصود الأمراء إن كان لك رغبة في الدخول

[ص ٤٩] للطاعة / الشريفة ويحصل لك ما ترومه من المال والاقطاع .

قال : نعم .

(١٦٥) فراغ في الأصل .

قلت : لا يكمل ذلك ولا يحصل إلا بتسليم قلعة درنده و سيس .

فقال : إن هذين البلدين ، يعني سيس ودرنده ، لا بد أن السلطان نصره الله ينيب فيها شخصين ، ومن المعلوم أنها لا يقوما في المهات الشريفة بأكثر من مئة نفس ، وأنا أقوم في كل منها بخمسة آلاف نفر ، ويسلطني السلطان على أي عدو شاء وأراد .

فقلت له : هذا لا يمكن على هذا الوجه لكون^(١٦٦) أن الملوك المجاورة للملكة السلطانية يظنوا العجز إذا صار ذلك ، وقصد مولانا السلطان خلد الله ملكه عدم ذلك وإلا لا يتحصل للخزائن الشريفة من الجهتين شيء ، والعذر في ذلك ظاهر ، وأما مولانا فما يحصل له من هذه الجهتين ؟

فقال : والله لا يحصل لي غير التعب .

فقلت له : إذا ظهر أن في عدم تسليم القلعتين المذكورتين نقص للحرمة الشريفة ولا نفع لمولانا فيها ، وإذا سلمها لنواب السلطنة / حصلت الحرمة التي [ص ٥٠] يرومها المقام الشريف ، والنفع لمولانا واقع محقق فواجه الامتناع ؟

وكلما أتى بحجة رددتها وجعلتها عليه في كلام يطول ، ولما يئست من فلاحه وعلمت أنه لا ينقاد إلى الصواب قلت في خاطري :

لقد أسمعت لونا ديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

فقلت : قد بلغتك مراد الأمراء ، وجلّ قصدهم أنهم يُعذرون^(١٦٧) من أنفسهم ويقولوا : نحن كنا غالب السبب في هذه الأمور التي وقعت بسبب المرحوم بردبك نائب الشام ، ولا نريد إلا صداقته ، ولا يسرنا أن يكون أجنبياً من

(١٦٦) في الأصل : لكن أن الملوك .

(١٦٧) في الأصل « يعدون » وتقرأ أيضاً يعدوك . ولعل الصواب ما أثبتناه .

خدمة الأبواب الشريفة ، وعداوته أحب إلينا من صداقة الغير ، لأنه منا وإلينا من وجوه شتى .

وأملتُ من المقر الأشرف أمير دوا دار بكل خير ، ووعدته بكل جميل منه ، وأنه يضمن من المقام الشريف كلما يرومه وزيادة . وحصل بيني وبينه محاورات [ص ٥١] كثيرة ، وانجلي الحال إلى أنه قال : / إن كان ولا بدّ من تسليم القلاع لنواب السلطنة الشريفة ، فيحضر لكل قلعة نائباً ويتسلمها ، بشرط أن رجالي يحفظوا القلعة إلى حين رجوع الخبر من السلطان ، والأمراء هم إخوتي يسألوا صدقات مولانا السلطان في استقراره بالقلاع نائباً ، ويشفعوا لي بذلك .

فأردت أن أقول : ما الفرق بين عدم تسليم القلعتين وبين هذه الصورة . فحبست نفسي عن ذلك لما تحققت من عدم رجوعه عن ضلاله ، وتذكرت قول القائل :

أوضحتم الرشيد فمن يهتدي وقلتم الحق فمن يسمع
فقلت له : قد بلغتك غرض الأمراء وما بقي الآن إلا تبليغهم غرضك وبالله المستعان .

فقال : فهل أجهز معك أحداً ، أو فيك كفاية ؟

قلت : بل الواجب أن تجهز من تختار لسمع جوابهم . وما قلت ذلك إلا لما ظهر لي أنه علم أنه ما أعجبنى هذا الكلام ، فأردت الخلاص منه وفارقه على هذا الحكم .

[ص ٥٢] فلما رجعت إلى المكان / الذي نزلت به جهز إليّ الأمير رستم عمه يلاطفني ويخاشنني ، فأجبت بجميع ما قال ، وبايعت الله سبحانه وتعالى ، ونزعت ثوب الخوف من قلبي وقلت له في الآخر :

يا هذا إني ما جيت إلا بطلب منكم ، وما ضمنت أنا للمَقَرّ الأشرف أمير
دوادار والكفلاء بأيّ أقضي لكم هذا الشغل وأخلص لكم القلاع ، ولا هم بعثوني
متدخلًا عليكم فإن أردتم نتاج الأمر فقد فصلته لكم ، وإن قصدتم غير ذلك فأنتم
الخيّرون .

فقال لي : قصدنا أنك تجتهد في صلاح الأمر على هذا الوجه .

فما وسعني إلا أن قلت : أبذل في ذلك جهدي وطاقتي .

فحضروا بالسماط من عنده ومد ذلك . ثم أعقب ذلك بخلعة حرير نخ^(١٦٨)
مذهب مفرية سموراً وطاستين صغار فضة وعشرين أشرفياً . وجَهَّزَ معي القاصد
الذي حضر أولاً وهو محمد بن أنحرق^(١٦٩) ، لسمع كلام المَقَرّ الأشرف أمير دوادار
والكفلاء وما يكون من جوابهم ، فأركب جميع من معه من عسكره / كاملين [ص ٥٣]
العدة ، ورتبهم في طريقي وبعضهم محتفين بي ، وكذلك أمراؤه وأعيان جماعته ،
ومعهم عمه رستم إلى أن وصلوا إلى أسفل الجبل ، وفي كل وقت أسألهم في الرجوع
وهم يمتنعوا من ذلك إكراماً منهم ، ثم أقسمت عليهم بالرجوع فرجعوا .

وتوجهت ومعني القاصد المذكور ، فلما وصلت إلى الخيم الكريم وأخبرته بما
سبق وزيادات اختصرتها الآن ، وأعلمته بما هو فيه من عدم الصلاح والانتقياد ،
فطلب المَقَرّ الأشرف قاصده وكتب معه يقول : إنك قلت جهز لنا من نثق
بكلامه وسألت أن تدخل في الطاعة الشريفة فأرسلنا إليك . والدخول للطاعة
الشريفة لا يمكن إلا بتسليم القلاع وإعادتها للحوزة الشريفة فإن كان لك غرض
تام في الدخول فتسلم القلاع لنواب السلطنة الشريفة وإن كان غير ذلك

نخ : (١٦٨) وردت كلمة نخ بالنون والحاء في كلام ابن بطوطة عن نيسابور بأنه يُصنع فيها ثياب
الحرير من النخ والكحاء (بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٢٧) وفي القاموس : النخ : البساط
الطويل .

(١٦٩) أنحرق : تقدم هذا الاسم في الصفحة (٩٨) أنحرق .

فلا حاجة في إرسالك القصاد والمكاتبات ، فلا تجهز بعدها مكاتبه ولا قاصداً
[ص ٥٤] وكن أنت / مجتهداً فيما أنت بصده ونحن كذلك إن شاء الله تعالى وهذا آخر
الكلام والسلام .

فتوجه القاصد بهذه المكاتبه ، وبعد توجهه حضر من عنده نفران متسحبين
منه ، وأخبرا أنه لما أصبح نهار الخميس رحل من مكانه وتوجه إلى جهة بحيرة
النصارى^(١٧٠) وفي الأسد ، ثم أعقب ذلك شخص آخر ، وأخبر أنه جهز عسكرياً إلى
جهة بلاد إعزاز^(١٧١) والعمق^(١٧٢) لنهب من وجد بها من الرعية ، وكان قبل ذلك
بلغ المقر الأشرف أمير دوا دار أعز الله أنصاره هذا القصد ، وأعلم أهل تلك النواحي
وأندرهم ، وجهز الأمير عمر بن كندر مع جماعة ليقم بالعمق ويحذر الرعية
ويجمعهم في مكان حصين .

وجهز الأمير حمزة بن إينال بأنه يحتفظ على قلعة الراوندان^(١٧٣) ويكثر من
المقيمين بها ويدعهم ينذروا من وراءهم من البلاد ، فإن هذه القلعة متوسطة بين

(١٧٠) بحيرة النصارى وفي الأسد : كان يطلق على جبل بركات الذي في تلك الأنحاء اسم كاوور
طاغي وهو الجزء الواقع شمال ممر بيلان في جبال الأمانوس ، ولعل ثمة بحيرة اسمها كاوور
كولي . أما في الأسد فالظاهر أنه تعريب أرسلان أغزي أي المضيق الوعر . (المصور ١) .

(١٧١) إعزاز : بلدة سورية تقع إلى الشمال الغربي من حلب ، تبعد عنها ٥٦ كلم ، وهي بلدة قديمة
كانت بها قلعة لها ذكر في تاريخ المعارك التي كانت تجري بين الروم وبنو حمدان حكام
حلب ، وبين الصليبيين ونور الدين محمود آل زنكي . وقد خربها التتار ودكوا قلعتها ولم يبق
الآن سوى التل الذي كانت قائمة عليه . وأعزاز قصبة جميلة فيها جامع كبير من بناء ملوك
حلب الأيوبيين (انظر موقعها على المصور ٤) .

(١٧٢) العمق : سهل كبير في لواء اسكندرونة يمتد بين جبل الكرد وجبال الأمانوس شمال غرب
حلب تتوسطه بحيرة العمق التي تجمع مياه عفرين والأسود ويخرج منها نهر العاصي الصغير
الذي يرفد نهر العاصي قبل دخوله أنطاكية (انظر موقعه على المصور ٤) .

(١٧٣) راوندان : قرية تركية من أعمال كلس (كليس) المتاخمة للحدود السورية ، كانت بها قلعة =

طريق العمق وبلاد إعزاز وكلز^(١٧٤) ، ولا يقطعوا الخبر عن الخيم الكريم أولاً بأول . / فانظر إلى هذا التدبير والتهديد مدّ الله سبحانه وتعالى في بقائه وحرسه [ص ٥٥] بملائكته وأنبيائه . فحصل والله الحمد بهذا التدبير نفع كثير ، فإنّ كشافة المخدول ما كانت تنقطع عن البلاد وتشاهد ذلك الاحتراز فينا ، تعدّ خوفاً من أمر يطرأ^(١٧٥) على جماعته كما سبق .

وفي نهار الجمعة حضر الأمير حمزة بن إينال ، وأخبر بأن سوار المخدول نزل بعسكره بالقرب من قلعة الراوندان ، وأن بعض الجماعة من أهل القلعة نزلوا ليلاً واغتالوا منهم ستة أنفار وقطعوا رأس واحد منهم ، وقبضوا الخمسة وصعدوا بهم إلى القلعة .

فنادى في العسكر المنصور بأنهم يركبوا بكرة نهار السبت بأجمعهم ليصلوا معه إلى قرية برج الرصاص ويرجعوا . وكان قصده بذلك إرهاب العدو . فإنه كان يتحقق أن العدو المخدول له كشافة يخبروه بما يقع أولاً بأول . فركبت العساكر المنصورة / بعد صلاة الصبح كاملين العدة ، فتوجهت إلى خدمته قبل أن [ص ٥٦] يركب .

= صغيرة على رأس جبل منفرد لا يناها منجنيق ولا يصل إليها نبل ، وكان لها روض صغير في لحف جبلها ، ويطيف بالقلعة واد من شمالها وغربها كالخندق لها وفيه نهر جار . وللقلعة ذكر مكرر في التاريخ . (المصور ٤) .

(١٧٤) كلز : هي الآن كلس وهي بلدة تركية قريبة من الحدود السورية إلى الشمال من إعزاز (انظر المصور رقم ٤) .

(١٧٥) يطرأ : في الأصل يطري .

[رحلة المؤلف قاضي العسكر إلى تبريز]

وكان عيني قاصداً للأمير حسن باك^(١٧٦) صاحب العراقين وما مع ذلك .
وجّهز معي أرمغاناً يليق به ، فقبلت يده وودعته وحملني مشافهةً أبديةً للأمير
حسن باك في أمور تتعلق بالملكة الإسلامية . وتوجّه في حرز الأمن والسلامة
مغرباً والقلوب معه ، وتوجهت إلى جهة تبريز مشرقاً مصحوباً بالأمن والسلامة
إن شاء الله تعالى .

وبت تلك الليلة بقرية أوريل^(١٧٧) بين عينتاب والبيرة ، ومعني الشيخ علاء
الدين الحصري متوجهاً إلى السلطان محمد بن عثمان وصحبته أيضاً من الأرمغان
ما يليق به ، والسيد أميرجان لولده السلطان أبو يزيد بالشرح . ورحلنا من
أوريل ووصلنا إلى البيرة وقت الضحى .

وكان مع الشيخ علاء الدين فرسين تقدمه أحدها حجرة لم يوجد في بلاد
الإسلام مثلاً ، فماتت يوم خروجنا من عينتاب من مغبص حصل لها . وكان

(١٧٦) حسن باك : هو حسن بك الطويل المعروف بلقب أوزون حسن ، أشهر حكام أسرة آق
قيونلو ، وهي عشيرة تركمانية قدمت من تركستان إلى أذربيجان شمال غرب إيران أولاً ، ثم
استقرت بين آمد (ديار بكر) والموصل وشكلت دولة آق قيونلو ويقال لها أيضاً الدولة
البايندرية و (الغم الأبيض) ، وقد تولى أوزون حسن رئاسة الدولة في آمد سنة ٨٥٧ هـ
وضم أذربيجان سنة ٨٧١ هـ وجعل تبريز عاصمة له .

عاصر أوزون حسن السلطان العثماني محمد الفاتح وكانت بينها حروب عديدة وتوفي سنة
٨٨٢ هـ وللمزيد من التفاصيل راجع كتاب الدول الإسلامية ٥٦١/٢ .

(١٧٧) أوريل : جاء في كتاب (جغرافي لغاتي) أن أورول من المواقع المهمة في شمالي ولاية حلب .

جهاز / شرف الدين ابن أخيه لإعلام الأمير من قرية أوريل بذلك ، فحضر إلينا [ص ٥٧]
يوم الاثنين في البيرة^(١٧٨) ، وأخبر أن الأمير نصره الله لما ركب نهار السبت ووصل
إلى القرب من برج الرصاص كانت كشافة المخدول سوار حاضرة فشاهدوا ذلك
وظنوا أن المقرّ الأشرف ركب لنهب بيوت سوار النازلين بين بحيرة النصارى وفم
الأسد ، فجاءوا إليه وأخبروه وهو نازل بالقرب من الراوندان وقصده الإغارة ،
وأخبروه بأن العساكر المنصورة توجهت لنهب بيوته وأهله ، فركب في الحال
وتوجّه إلى جهة بيوته ، ورحل من مكانه وتوجه إلى جهة مرعش^(١٧٩) خوفاً أن
تدركه العساكر المنصورة ، فانظر إلى هذا الاتفاق الغريب ، ولا شك أن كل
هذا بعناية الله تعالى ، ودليل سعادته أيده الله بملائكته . وأن الأمير حمزة بن
إينال أحضر المقبوضين عليهم من جماعته وعرضهم على المقرّ الأشرف ، فأمر بهم
فرفعوا إلى السجن .

ثم رحلت يوم الاثنين / بعد الظهر وودعت صاحبيّ فإنها توجهت إلى جهة [ص ٥٨]
الروم . ونزلت في عشية ذلك اليوم بقرية تسمى بواجق^(١٨٠) ، ثم رحلت منها
ووصلت إلى الرها^(١٨١) ظهر يوم الثلاثاء ، ورحلت منها ظهر يوم الخميس ونزلت

(١٧٨) في الأصل والبيرة والصواب ما أثبتناه .

(١٧٩) مرعش : بلدة تركية قاعدة لواء باسمها تقع شمال غربي عينتاب ، ذكرها ياقوت فقال : مدينة
في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف
بالمرواني بناه مروان بن محمد الأمويّ الشهير . وهي مدينة كبيرة كانت من أملاك أسرة دلفادر
إلى أن استخلصها منهم السلطان سليم الأول العثماني (انظر موقعها على المصور ١) .

(١٨٠) بواجق : لعلها أووهج ويوجد بهذا الاسم قرى كثيرة في الأناضول .

(١٨١) الرها : مدينة تركية قديمة إلى الشمال الشرقي من حلب وتدعى اليوم أورفه وهي الآن مركز
ولاية ، تقع بين أكتين ولها قلعة على أحدها ، ولها سور وخندق ، يجري فيها نهران يصبان
في بحيرة صغيرة جنوبها اسمها بركة إبراهيم والمدينة واقعة على المسالك التجارية بين حلب
ودياربكر (آمد) والموصل ويقطن حولها عشائر كردية وعربية (انظر موقعها على
المصور ١) .

برأس عين الحلاب^(١٨٣) ثم منها إلى^(١٨٣) ومنها إلى الجبل الأسود^(١٨٤) .

[المؤلف في آمد (ديار بكر)]

ومنها إلى آمد^(١٨٥) وأقيمت بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة .
ورحلت منها بعد أن صليت بجامعها المشهور بالإتقان والتهديد في بنائها ، وهي
تشبه الجامع الأموي في تكوينها ، ولكن درس غالب معالمها وكذلك العمارات التي
كان بناها بها الأراتقة^(١٨٦) تشهد لهم بتشييد مملكتهم وعمارتها حين ولايتهم لها .

(١٨٣) الحلاب : نهر يمر بالقرب من حرّان ومن فوق الرّها يرفد نهر البليخ وينبع بالقرب من
القرية التي نزل بها المؤلف (انظر موقعه على المصور ١) .

(١٨٣) فراغ في الأصل .

(١٨٤) الجبل الأسود : اسمه بالتركية قره جه طاغ وهو إلى الجنوب الغربي من آمد « ديار بكر »
(انظر موقعه على المصور ١) .

(١٨٥) آمد = ديار بكر : مدينة كبيرة في شمال الجزيرة الفراتية العليا وعلى الضفة الغربية من نهر
دجلة ، اسمها القديم آمد ، ونسبت إلى قبيلة بكر بن وائل العربية التي بلغت تلك الأنحاء قبل
الإسلام وبعده ، وغالب أهلها حالياً أتراك بينهم قسم كبير من العرب والكرد ، وهي مركز
ولاية تسمى باسمها ، فيها كثير من المساجد والكنائس والمدارس والحمامات وسيلان المياه ،
وجوها حار جداً في الصيف وبارد في الشتاء ، ولها تجارة واسعة مع العراق وولايات
الأناضول .

والمدينة قديمة تداولتها أيدي الإيرانيين والبيزنطيين ، وفي عهد الدول الإسلامية كانت مقراً
للملوك آل بويه وبني حمدان ثم بني أرئق ذوي الغنم الأسود (قره قيونلو) والغنم الأبيض
(آق قيونلو) إلى أن تسلمها السلطان سليم العثماني في طريقه إلى حرب الشاه إسماعيل الصفوي
(انظر موقعها على المصور ١) .

(١٨٦) الأراتقة : أسرة منسوبة إلى أرئق من قواد الجيوش السلجوقية ، حكم فرع منها ديار بكر ،
وحكم آخر حصن كيفا وآمد ، وحكم ثالث خربوت وذلك في القرنين السادس والسابع
الهجريين .

فإذا تأمل الناظر في تلك المعالم والآثار وتحقق سمو همهم وعلو مراتبهم تذكر قول الشاعر :

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

[وصف بلدة حين]

ونزلت على عين ماء بالقرب من قرية الحاج سليمان وصلت بها الصبح يوم السبت ، ورحلت ووصلت إلى مدينة حين^(١٨٧) ، / وهي ذات أشجار وكروم [ص ٥٩] وعيون تنبع من أسفل قلعتها ، ولمدينتها سور خراب دائر ، وغالب أهلها نصارى . ورأيت جوامع ومآذن قد سقطت بعضها . ومساجدها قد خربت بل دثرت ، وكذلك منازل أكبرها الساكنين بها . وهي بلدة طيبة الهواء ، عذبة الماء في غاية الحلاوة والبرودة . فأعجبني نزاهتها وحسنها مع كونها خرابة ، وكان قصدي الرحيل منها في تلك الليلة ، فأقمت بها إلى ظهر يوم الأحد اغتناماً ، وسألت أهلها عن اسمها ، فمنهم من قال اسمها « حين » ومنهم من قال « عين » وهو الأقرب ، ومنهم من قال « هين » ولا شك أن هذا تصحيف « حين » أو « عين » فإن التركان يصحفون العين والحاء هاءً والله أعلم أي ذلك .

ودخلنا أودية وجبالاً شاهقة وبها من أنواع الأشجار إلى قرب المغرب ، ونزلنا بوادي بها بعض بيوت أكرد ، ثم رحلنا نصف الليل ونحن بين جبال وأودية

(١٨٧) حين = هاني : مركز ناحية في أقصى الشمال من ولاية دياربكر بتركيا ، ذكرها ياقوت في مادة حين ومادة حاني (انظر أيضاً بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٢) (وانظر موقعها على المصور ١) .

[ص ٦٠] إلى قرب المغرب من يوم الاثنين / ونزلنا بالقرب من قلعة جباحور^(١٨٨) وهي قلعة صغيرة ، وهي برأس وادٍ كبير وبها قرى أكراد وأنهر جارية من كل جانب وهي مكان بلاسكان .

[المؤلف في ملازکرد ومنابع الفرات]

ورحلنا منها يوم الثلاثاء وعدينا الفرات وهي مقدار ربع ماهي بالبيرة ، فإن غالب المياه تخالط الفرات بعد انحدارها من ذلك المكان . ونزلنا تلك الليلة في وادٍ بين أشجار وجبال لا ساكن ولا متحرك . ثم رحلنا منها ونزلنا عشية يوم الأربعاء إلى مكان واسع وبها أكراد كالوحوش لا يشبهون الإنس إلا بالصور ، فسألناهم عن اسم المكان فأخبروا أن هذا المكان يسمى ملش كرد^(١٨٩) فصعدنا جبلاً عالياً وبتنا ببيوت أكراد واجتمعنا بالشيخ محمد الكردي ، ذكر أنه من زرية سيدنا العباس رضي الله عنه .

ثم رحلنا يوم الخميس وبتنا بوادٍ على نهر جارٍ خالٍ عن السكان ، وبات خيولنا تلك الليلة بلاعليق ، وفقدنا زادنا ، وقاسينا من التعب والنصب [ص ٦١] ما لا يمكن شرحه . / غير أن المياه الباردة كانت كثيرة والثلوج برؤوس الجبال كذلك . وأما البرد ففي الأربعينيات بحلب لم نشاهد مثله ، والحال أن سفرنا كان في آب . وضعف غالب جماعتنا من شدة البرد ، وحصل لي تشويش من ظهر يوم الجمعة إلى نصف الليل من ليلة السبت ثم خف عني ذلك والله الحمد .

(١٨٨) جباحور : محفة عن جباحجور . وهي مركز قضاء في شمال ولاية بتليس (انظر موقعها على المصور ١) .

(١٨٩) ملش كرد : والصحيح ملازکرد أو منازجرد ، اسم قضاء في لواء موش التابع لولاية بتليس التركية (قرب بحيرة وان من الغرب) وتقع ملازکرد في الشمال الشرقي من هذه الولاية ، سكانها من الأكراد والأرمن (انظر موقعها على المصور ١) .

ثم رحلنا وقت السحر ، ونزلنا بمكان بالقرب من الملاحاة البيضاء ، وأيضاً لا ساكن ولا أنيس ، وبات خيولنا بلاعليق . وكان من عناية الله وفضله كثرة العشب والمرعى ، ولولا ذلك لهلكنا ، لأن الدواب كانت تقف ونحن لا طاقة لنا بالمشي والمفازة بعيدة . ورحلنا منها في آخر الليل ، فعاودني الضعف تلك الليلة ، ووصلنا بكرة نهار الأحد إلى جسر ملزكرد ، فوجدناها قد خربت ، وذكروا لنا أن الأصل الكبير الذي تجتمع المياه [به] ويسمى الفرات ، هو هذا الماء وأوله من أرزم الروم^(١١٠) . وهذه رابع مرة عديناه من حين / عديناه من البيرة . [ص ٦٢]

وازداد ما بي في ذلك اليوم من الضعف ، وأيقنت الهلاك ، وكتبت وصية بأمور وأقت ذلك اليوم بها ، ورحلنا في الثلث الأول ، وأصبحنا بزاوية بابا طشقون ، وهم أناس يزرعون تلك الأراضي ويطعمون لمن يمر عليهم من المسافرين والفقراء ويضيفونهم على حسب طاقاتهم . ونزلنا بمكان كثير العشب والمياه ، وأقننا إلى قرب الظهر من يوم الاثنين .

[جبل سبحان]

ورحلنا منها ونزلنا من جبل سبحان^(١١١) وهو جبل عال ، والثلوج لا تفارقها صيفاً ولا شتاءً . وزاد ما كنت أجده من الضعف ، فأقت يوم الثلاثاء ، فحضر إليّ الشيخ قرط ، وذكر أنه مقيم بجبل سبحان ، وأن بالجبل فقراء ومشايخ مقيمون بها ، وتحضر إليهم النذور ، ووصف بها أشياء غريبة .

(١١٠) أرزم الروم : كذا في الأصل والصحيح أرز روم وهي مدينة تركية تقع في شمال هضبة أرمينيا على نهر قره صو ويسمى أيضاً فرات صو ويسير موازياً لنهر مراد صو - الذي يذكره المؤلف - وإلى الشمال منه ثم يلتقيان شمال شرق ملاطيا ليشكلا نهر الفرات مع روافد كثيرة أخرى (انظر المصور رقم ١) .

(١١١) جبل سبحان : جبل شاهق الإرتفاع يعلو ٤٤٣٠ متراً يقع شمال بحيرة وان التركية ويشرف عليها (انظر موقعه على المصور ١) .

وهذا الجبل يُرى من مكان بعيد من سائر الجهات . وما رأيت في [ما]
شاهدت من الجبال أعلى منه مع كثرة الجبال بذلك الإقليم ، وتبركت
[ص ٦٣] به / وتشرفت بدعائه .

وصبيحة نهار الأربعاء رحلنا ووصلنا إلى مدينة أرجيش^(١٩٢) ونزلنا بزاوية
السلطان المرحوم قرا يوسف^(١٩٣) بن محمد باك صاحب تبريز وبغداد والعراقين
كان ، وبها قبره ، وهي في غاية الإتقان . وأقمت متضعفاً خمسة أيام ورحلت يوم
الأحد بعد أن استعملت محفة للركوب لعدم طاقتي على ركوب الخيل . ونزلت
بقرية بابا حيدر ، ورحلت منها صبيحة يوم الاثنين ، ونزلت بجانب بحيرة
بندماهي^(١٩٤) ، ثم رحلت منها وتركت المحفة وجعلتها حطباً ورضيت بركوب
الخيل .

وسرنا بين جبال شاهقة وأودية نازلة ونزلنا بالقرب^(١٩٥) ثم رحلنا منها إلى
أن مرينا على واد السواد ، إلى أن نزلنا إلى مرج سكان ويتنا به . ورحلنا في آخر
الليل ووصلنا إلى مدينة خوي^(١٩٦) وهي كثيرة الأشجار والمياه في جميع جوانبها ،
[ص ٦٤] وبها من العماير / ما تدل على عظمها قديماً .

(١٩٢) أرجيش : قصبة قضاء باسمها في ولاية وان التركية ، تقع على الساحل الشمالي لبحيرة وان ،
والبلدة قديمة ذات أطلال وأثار وكان اسمها السابق آريسيسه . ويلاحظ عدم ذكر المؤلف
لبحيرة وان رغم وصوله إليها (المصور ١) .

(١٩٣) قره يوسف بن قره محمد : هو منشئ دولة (قره قيونلو) توفي عام ٨٢٣ هـ (راجع كتاب
الدول الإسلامية ٥٥٦/٢) .

(١٩٤) بند ما هي : ومعناها سكر السمك . ويطلق هذا الاسم على نهر يصب في بحيرة وان ، ولعل
المؤلف يريد النهر من ذكر البحيرة .

(١٩٥) فراغ في الأصل .

(١٩٦) خوي : مدينة إيرانية في إقليم أذربيجان وفي الشمال الغربي من تبريز (المصور ١) .

ورحلنا منها صبيحة يوم الجمعة ونزلنا بالقرب من قرية تاسو^(١٩٧) وبتنا بها ،
وأقننا يوم السبت ، ثم رحلنا يوم الأحد ونزلنا بالقرب من قرية سوران
قولي^(١٩٨) .

[وصف مدينة تبريز]

ثم منها يوم الاثنين دخلنا مدينة تبريز^(١٩٩) وهي مدينة عظيمة كثيرة
الأشجار والمياه ، وبها من العائز ما يضرب بها الأمثال خصوصاً تربة محمود قازان
خان^(٢٠٠) من ذرية هولوكو ، وهو مشهور بين أهل التاريخ . وأما تربته الآن
بتبريز والجامع بجانب التربة فما رأيت فيما شاهدت مثلها وحسن ترتيبها . وهذا
يدل على عظم الملك وسعة مملكته .

وأما الجامع والعمارة التي أنشأتها زوجه جهان شاه بن قرا يوسف بالمدينة في
غاية الإتقان والحسن ، وحقيقتها لا تعلم إلا بمشاهدتها .

(١٩٧) تاسوا : لعلها نَسَوَى أو نَشَوَى وهي نفس ناغجوان وقد ذكرها ياقوت في مادة نفجوان وفي
مادة نَشَوَى .

(١٩٨) سوران قولي : معناها ذراع سوران أي فرع من نهر سراو أو سوران .

(١٩٩) تبريز : من أكبر المدن الإيرانية وأشهرها وهي عاصمة ولاية أذربيجان . تقع في سهل فسيح
يتمد حتى بحيرة أرمية وعلى ضفة نهر كبير اسمه آجي جاي (النهر المر) وفي السطح الشمالي من
جبل شاهق اسمه سَهَنَد . وكان لها في العصر العباسي عمران أعظم من الآن ، دام إلى زمن
المماليك الكبري التي دارت بين العثمانيين والصفويين . ونشأ منها علماء وأدباء أشهرهم أبو
زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي (المصور ١) .

(٢٠٠) قازان ويقال له غازان : أحد ملوك التتار من أحفاد هولوكو أسلم وتسمى بمحمود ، تسلم الملك
سنة ٦٩٣ هـ هاجم البلاد الشامية بتشجيع من الأمير قبچق نائب دمشق وانتصر على المماليك
في وادي الخزندار ودخل دمشق سنة ٦٩٩ هـ ثم انسحب منها وأرسل جيشاً آخر سنة ٧٠٢ هـ
هزم شر هزيمة في شقحب قرب دمشق . توفي غازان سنة ٧٠٣ هـ .

ولما رحلنا من المكان المذكور أعني القريب من سوران قولي ، لاقانا [ص ٦٥] المِهْمَنْدَار^(٢٠١) الأمير رستم بجماعة وقد / أظهروا زينتهم ، وقالوا إن البادشاه بلغه وصولكم ، وقد جَهَّزْنَا إليكم وجهازاً ساطعاً لكم ، فشكرنا فضله ، ووصلنا إلى التربة ونزلنا بها .

[الليلة الأولى في تبريز]

وكنت تلك الليلة قاسيت من الحمى ما لزم الاحتماء . فأكل الرفقة ماهيئ من السباط . وتوجهنا إلى أن دخلنا مدينة تبريز ومَن لاقانا من الأمراء والأجناد إلى أن نزلنا بمكان وبتنا به .

فلما أصبحنا يوم الثلاثاء ، دخل الأمير حسن بهادر^(٢٠٢) مدينة تبريز ونزل بالدار المعدة للإمارة ، فقدم إليه بعض الفقراء طبقين فيها عسلاً وخبزاً ، فجهزها لنا مع ساعيه ، وجهاز يقول : بأنه كان قصد الإقامة في المصيف ، وما حضر إلا لما بلغه حضورنا ، فشكرنا فضله . ثم نقلنا إلى مكان أفسح وأحسن ، وهو أحد عمائر المرحومة خاتون . وقاضي القضاة علاي الدين ساكن بجوارنا في المكان . وبعض الخدم حضر وغلق الأبواب علينا من العصر وراح ، فبقينا مسجونين [ص ٦٦] وظنينا أنه يعود / المغرب فلم يحضر ، فانتظرناه إلى العشاء ، فلم يحضر وبتنا تلك الليلة في أحصر حالٍ خصوصاً لم ننظر مكاناً للتبرز .

فلما أصبحنا استغثنا إلى القاضي مما حوصرنا تلك الليلة ، فكتبت إليه رقعة أقول فيها بعد الحمد له :

(٢٠١) المِهْمَنْدَار : هو الذي يستقبل الرسل والوافدين ويسهر على راحتهم . والكلمة فارسية الأصل مؤلفة من (مِهْمَنْ) بمعنى الضيف أو المسافر و (دار) مخففة من دارنده بمعنى صاحب ، ويقوم مدير المراسم في عصرنا بهذه الوظيفة .

(٢٠٢) حسن بهادر : هو حسن بك الطويل راجع التعليقة رقم ١٧٦ .

يقبل الأرض وينهي أنه سجن من غير أمر موجب ، لا لغريم تشكى منه ،
ولا لذيّن طولب ، ورضي بذلك ، لكنه منع من الوصول إلى محل التبرز ،
وما علم المراد في عظم هذا التحرز ، والمملوك يلتجئ لمولانا قاضي القضاة في إزالة
هذه النازلة ، والمصيبة الهائلة ، وفتح الباب للذهاب والإياب ، ويقسم بالله ثم
بالطلاق ، أنه بعد هذا الإطلاق ، لا يعود إن شاء الله إلى يوم التلاق . والله
سبحانه وتعالى يصبح مولانا قاضي القضاة بما يسره .

فلما وصلت الرقعة إليه قرأها وتبسم ورسم بفتح الأبواب . ولا يخفى على
أهل الأدب ما في قولي الالتجاء والتصبيح من التهكم .

[المؤلف وحسن الطويل]

ولما كان / ضحوة نهار الأربعاء طلبني السلطان حسن للحضور بين يديه ، [ص ٦٧]
فاعتذرت لسخونة عرضت لي ، فجهز من يسأل عني ويسلم عليّ منه . وجّه شيئاً
من العسل والفاكهة وغير ذلك من المرتب .
ولما كان يوم الخميس جاءني المهندار وقال : إنّ البادشاه يرسم لك بالحضور
بعد الظهر إلى محل خلوته . فصليت وتوجهت معه . فلما وصلنا إلى قصره ،
أدخلنا مكاناً وجلسنا فيه إلى العصر ، ثم طلبنا ، فدخلت عليه وعنده جماعة من
أهل العلم والتجار الواردين عليه من سائر الأقاليم . فلما قربت منه قام من مكانه
وأجلسني بجانبه .

فأول ما بدأ أن سألني عن مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي خلد الله
ملكه ، ثم عن المقر الأشرف الأمير يَشْبَك الدوادار ، نظام الملك وباش العساكر
الإسلامية أعز الله أنصاره ، فقلت بخير ويسلمان على البادشاه .

فأثنى بكل خير / وقال : والله أنا أحبهما ولا أعلم إلا مملكتي ومملكتها واحد ، [ص ٦٨]

وهذه عساكري حاضرة مها اخترت منهم خذ ، وقد سألت السلطان بذلك مراراً فلم يرد عليّ جواب وما علمت المراد .

فقلت : بسعادة مولانا البادشاه ، الأمر ما يحتاج إلى هذا ، وسوار أقل وأخسّ من أن يجتمع عليه عسكر مولانا السلطان خلد الله ملكه وعسكر البادشاه . وهذا من بعض تركان المملكة الحلبية . ومما سبق من الأمور فسيبه ظاهر لا يحتاج إلى التفصيل ، لأن مجلس البادشاه لا يحمل بسط ذلك . ومولانا البادشاه يعلم حقيقة الحال ، وإلا من قديم الزمان وإلى الآن لم يزل كافل المملكة الحلبية بمفرده يركب على الدلفادرية ويشتت شملهم ويخرجهم من البلاد . والآن بسعادة البادشاه قد أخذت عينتاب في سبعة أيام ، وحصل الملاقاة مع بعض [ص ٦٩] عسكره بنفر قليل من الممالك السلطانية فانكسروا / وقتل باشهم وأخذ سنجقه ، وقتل من أعيانهم نحواً من أربعين نفرأ ، ولولا أنهم التجؤوا إلى الجبل لما نجا منهم أحد . وكل أمور عساكر الإسلام على أتم نظام . كل ذلك بحسن تدبير الأمير نظام الملك الشريف ، والرخا متزايد بالعساكر الإسلامية ، وقد تضعع الغريم وولى من مكانه هارباً .

ثم سألتني عن أمر العساكر الإسلامية وما هم فيه ، فأخبرته بكثرتهم وقوتهم واتفاقهم وانقيادهم لنظام الملك أعز الله أنصاره ، وأن كلاً من الكفلاء والأمراء يطلب رضاه ، وأخبرتهم بما هم فيه من إلهتمام وكثرة آلات الحصار والزرديخانه والصناع وإلى غير ذلك .

فظهر لي في وجهه الكراهة لما سمع قوة العساكر المنصورة ، ثم التفت إلى القاضي حسن وقال : « اقرأ كتابه » فقرأه وفهم ما فيه بعد أن ترجم له بعضه القاضي حسن ، ثم قال لفقيهه حاضر بالمجلس : « اقرأ لنا شيئاً من الحديث [ص ٧٠] النبوي / وذكر لي أنّ عادته في كل ليلة جمعة يجتمع عنده علماء توريث^(٢٠٣) ويقرأ

(٢٠٣) توريث : تبريز .

عنده شيء من البخاري ، يفعل ذلك للتبرك والفائدة .

فبدأ القارئ في حديث الغار وهو : الثلاثة الذين أوا إلى غار من المطر من بني إسرائيل . والحديث مشهور . فذكر في الاسناد نافعاً عن ابن عمر .

فقلت للجماعة : من هو هذا نافع الذي يروي عن ابن عمر ؟

وما أردت إلا فتح الكلام ، وإلا فهو أشهر من « قفانبك » فوالله جميع من كان بالجلس لم يعرفه ، فمنهم من قال لا يلزم معرفته ، والفطن منهم قال : هذا يعلم من أسماء الرجال .

ثم فرغ القارئ من الحديث فترجم شيخ منهم الحديث للبادشاه بغير ترتيب . ثم نقل من تفسير القاضي بأنه قال : إن أصحاب الكهف الذي ورد القرآن في حقهم هم هؤلاء الثلاثة .

فقلت له : هذا كلام منقوض .

فقال : ما النقض فيه ؟

فقلت : لأن الله سبحانه وتعالى / أنزل في حق أهل الكهف قرآناً ويبيّن [ص ٧١]

أحوالهم مفصلاً ، والنبي ﷺ ذكر أهل الغار بصيغة التنكير ، ويبيّن أنهم من بني إسرائيل وذكر عددهم ، والله سبحانه وتعالى ذكر اختلاف الناس في ذلك ، ثم أسند علم حقيقة عددهم إليه ، والنبي ﷺ بيّن عددهم وأفعالهم من الخير ولم يذكر في عددهم اختلافاً ولا ذكر أنه صحبهم كلب ، وكذلك حين استيقظوا من منامهم . واختلفوا في مدة لبثهم في الكهف وتجهيز أحدهم لشراء طعام للأكل . وحاصل الكلام ليس بين القصتين مناسبة بوجه من الوجوه .

فشرع يصيح ويستغيث بأن النقل موجود في تفسير القاضي .

فقلت له : إني أعرضت عن الذي نقلته فأجب ، فسكت .

ثم حضر الطعام فأكلوا ، وكنت متوقعاً ومد السباط للحاضرين ، وفي أمام

البادشاه مائدة صغيرة فيها خمسة أو ستة / صحن ، فطلبتني إلى مائدته المختص [ص ٧٢]

به ، فرأى اشتغالي بأكل الخبز عن الطعام واللحم . فسألني عن ذلك فقلت : إن

لي مدة ثمانية عشر يوماً مُحْتَمٍ عنهما . فطلب ربّ حصرم^(٢٠٤) ، وأحضر ذلك في صحن من دهنج^(٢٠٥) ، وأشار إليّ بالأكل من ذلك ، فأكلت منه قليلاً لأجل خاطره .

ثم قتت على عادتنا ، فتعجّب من قيامي وقال : لِمَ لَمْ تصبر حتى يرفع السباط ؟

فاعتذرت إليه بأن الطبع والعادة أغلب ، وقد سبقاني إلى ذلك من غير اختياري ، وكان الأمر كذلك .

فقال القاضي حسن : والله إنّ عادة إقليكم في غاية الوحاشة . قلت : ولِمَ ذلك ؟

قال : لأن أحدهم يأكل وغيره واقف ينتظر ليجلس مكانه ، كيف يستريح الأكل مع القائم ؟ أو القائم مع الأكل ؟

فقلت : قد ورد السنة النبوية بأن النبي ﷺ كان يوضع بين يديه المائدة [ص ٧٣] فيأكل الناس إلى أن يشبعوا ثم يقوموا فيجلس غيرهم / ثم كذلك ، وقد وقع مثل هذا كثير بل كان هذا من عادة العرب . وبعث ﷺ وهم على ذلك فأقرهم ، ووقع له ذلك ﷺ بقلّة الطعام وكثرة الناس فأكلوا فوجاً فوجاً وطائفة بعد طائفة وشبع الجميع من الطعام القليل وعُدّ ذلك من معجزاته ﷺ .

ومن ذلك قصة جابر رضي الله عنه يوم الخندق ، وأبي هريرة رضي الله عنه [عنه] حين أترّ فيه الجوع وطلب النبي ﷺ أهل الصفة وأشبعهم من القدح الواحد ، وعدد أهل الصفة مشهور .

فلما رفع السباط أذن لنا فتفرق المجلس وتأخر البعض ، وكان ممن تأخر

(٢٠٤) . الحصرم : هو العنب الفج الحامض .

(٢٠٥) دهنج : حجر خفيف هش تنسب إليه قوى غريبة في مقاومة السموم . وبالفارسية بادزهر أي طارد السم (محيط المحيط) .

الخواجا علي الآمدي وهو من الخيصين به ، فأخبرني أنه لام القاضي حسن وقال : ما كان فيكم أحد يلزمه ويحييه ؟ والله لقد صعب ذلك علي .
فما وسعه إلا أنه قال : إن علماء العجم يشتغلون بالمعقول ، وعلماء العرب ليس لهم / دأب إلا الحديث والتفسير والفقه . وقد ظهر لي أن القاصد يستحضر [ص ٧٤] شيئاً كثيراً من ذلك .

ثم طلبني يوم الأحد في محل خلوة ، وأحضر ساطاً ، فتمنعت من الأكل لما سبق من الضرورة . فلما رفع الطعام قال لي : إن في مطالعتك أن الأمير الدوّادار حمل مشافهة فهايتها .

فقلت : نعم ، أما الأولى فإنه يطلب أمير أصلان بن ملك أصلان بن دلغادر . فقال : قد رسمت بذلك إن أراد أن يتوجه بنفسه أو يجهّز قاصده معك . ثم ما ؟
فقلت : الثانية : إن بني ربيعة قد تحصنوا ببلاد الرّها ، وفي كل وقت يقطعوا الطريق ببلاد حلب وينهبوا ما يجدوه .

وكان موسى كبير بني ربيعة حاضراً ، فطلبه وأنكر عليه إنكاراً بالغا ، ومن جملة ما قاله له : والله وتربة جدي ما يبلغني صحة هذا وإلا سلخت جلد الأبعد وأخرجت جميع بني ربيعة ، كم مرة أوصيكم بالرعية خصوصاً رعية الشام .

فشرع / يعتذر ويحلف أن هذا الأمر ما وقع من طائفته ، وإنما هم عرب [ص ٧٥] غيرهم يَتَسَمَّونَ باسمهم .
فقال : ما أعرف .

ثم قال لي : إذا حصل من هؤلاء شيء ما أو من غيرهم ممن يتعلق بي فصحبوا ذلك ثم أعلموني .

وبلغني ممن أثق به أنه طلب موسى المذكور وهدده وحلف أنه إن صحّ هذا الأمر عنهم لم يبق منهم أحداً .
فقال : إيش غير هذا ؟

فقلت : إن جماعة حضروا وذكروا أن البادشاه أنعم عليهم بقرايا بيلا [د]
سروج^(٢٠٦) وهي متعلقة بالبيرة والقرى التي قبلها هي إقطاع للبحرية بالبيرة .

فقال : والله ليس لي علم بذلك .

ثم رسم بكتابة مرسومه إلى نائب الرها بالوصية بأطراف بلاد الشام ، وأنه لا يدع أحداً ولا يكتنه من التعرض للقرى التي في حد الشام ، وأكد عليه في ذلك ، وكذلك يفحص عن الكردي الذي يشوش على القرى التي من جهة الفرات [ص ٧٦] المتعلقة بقلعة المسلمين ويقابله أشد مقابلة . وكنت ذكرت له ذلك / أيضاً .

ولما كان يوم الخميس طلبني أيضاً فتوجهت إلى قصره ، فرأيت في جمع كبير من علماء تبريز ، وكان حاضراً عنده ابن السيد الشريف^(٢٠٧) شارح الكشف من شيراز ، وجماعة من علماء بغداد وسمرقند^(٢٠٨) فقام وأجلسني بجانبه . فلما تكامل المجلس أمر بقراءة البخاري على عادته في ليلة الجمعة ، فقرأ القارئ حديث (سبعة يظلمهم الله ... الحديث) فلما فرغ من قراءة الحديث شرع يترجم للبادشاه بالتركي ، ويفسره له .

(٢٠٦) سروج : كانت قرية من أعمال حرّان من ديار مضر ، وهي بين أورفة والبيرة من الجنوب ، وهي مركز قضاء سروج في الجزيرة ، وقد انقسم هذا القضاء عقب الحرب العالمية الأولى إلى قسمين : شمالي تركي وفيه سروج وجنوبي سوري باسم قضاء عين العرب ، وقد خربها تيمورلنك ، وأثار السور والخنق والحمامات باقية تحت الأرض (المصور ١) .

(٢٠٧) هو السيد الشريف الجرجاني .

(٢٠٨) سمرقند : من أكبر مدن آسيا الوسطى وأشهرها ، وتقع في إقليم الصغد بجمهورية أوزبكستان في الاتحاد السوفياتي . والمدينة تقع إلى الجنوب الشرقي من بخارى ، وكانت من أعظم مراكز الحضارة الإسلامية ، اتخذها تيمورلنك مقراً له برهة من الزمن ، وأهلها من التتار والأوزبك وبعض الروس الذين سكنوها بعد احتلالها في عام ١٨٦٨ وفيها جوامع ومدارس إسلامية كثيرة .

فقلت : هل تحفظون لهذا السابع ثامناً ؟

فكان جواب القارئ على أن كتاب البخاري كتاب جليل وليس بعد كتاب الله كتاب أصح منه ، وما ذكر فيه غير سبعة .

فقلت : صحة البخاري ما فيه كلام ، وما ثم نزاع في ذلك ما خلا جماعة من المغاربة ، فإنهم ذكروا أن كتاب مسلم أصح منه وأعلى رتبة وفضلوه على البخاري .

فقال : حاشى الله .

قلت : إن الذي قلته ذكره النووي في شرح / مسلم ، وذكره القاضي عياض [ص ٧٧] وغيره . وإذا كان لهذا ثامناً وتاسعاً لا يلزم منه الطعن في البخاري . ثم أنشدت البيت المشهور :

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

فقال شخص من الحاضرين : إذا فرضنا أن هذا السابع له ثامن فما تم في الحديث آلة حصر .

فقلت : سبحان الله ، وهل السؤال كان عن هذا . وشرع كل منهم يتكلم من جهة ويرفع صوته ، فسكتُ .

فقالوا : إن كنت تحفظ شيئاً أكثر من السبعة فقل لنا . وما أجبتهم بشيء .

فقال البادشاه : إن كنت تحفظ شيئاً فقل لهم .

فقلت : يا مولانا البادشاه ، هذا المقام مقام امتحان . وإذا حضروا مجلس الإفادة أفدتهم وأوصلتهم إلى أربعة عشر كما أفادني شيعي وأستاذي حافظ المشرق والمغرب الشيخ شهاب الدين بن حجر تغمده [الله] برحمته .

فقال : ولا أنا .

فقلت : أما مولانا البادشاه إذا رسم يكتب له ذلك إن شاء الله تعالى .

[ص ٧٨] ثم رسم بقراءة شيء / من مكان آخر وصار كلاماً كثيراً : من ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وهو قوله ﷺ « أفتان أنت يا معاذ » . فسأل البادشاه منهم ما سبب ذلك ؟ فلم يجبه أحد منهم بشيء ، والحال أنه قرئ قبل حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وهو قوله « ما صليت خلف أحد أتم ولا أخف من صلاة رسول الله ﷺ » . فرأيته يلتفت إليّ حين تحقق عجزهم عن الجواب .

فقلت يا مولانا البادشاه : إن معاذ بن جبل من أفقه الصحابة ، وكان قارئاً حافظاً أنصاريّاً ، وكان يصلي صلاة العشاء خلف رسول الله ﷺ .

فقال : ما معنى الأنصاري ؟

فقلت : كانوا طائفة يسكنون المدينة وكانوا في كل سنة يحضروا موسم الحج في الجاهلية ، فحضروا سنة من السنين قبل الهجرة وسمعوا بالنبي ﷺ ، وطلب منهم النصر فبايعوه ، وهي بيعتين يقال لهما بيعة العقبة الأولى والثانية وبايعوا [ص ٧٩] / النبي ﷺ أنه [إذا] حضر إليهم يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأموالهم . ولما هاجر إليهم النبي عليه الصلاة والسلام نصره وقاتلوا أعداءه ، فسموا بذلك أنصاراً . والمجلس لا يحتمل فإن القصة طويلة ، وهم طائفتين أوس وخزرج ، ومعاذ منهم . وكان معاذ إذا فرغ من الصلاة خلف النبي ﷺ يذهب إلى قومه فيصلي بهم العشاء ويطوّل بهم القراءة ، فشكو ذلك للنبي ﷺ ، فنهاه عن التطويل . وقوله ﷺ « أفتان أنت » ، ذكر بعض العلماء أنه تهديد لمعاذ رضي الله عنه ، حتى قال بعض الصحابة : أنه ما رأيت رسول الله ﷺ غضب مثل غضبه حين بلغه تطويل الصلاة . وقال بعضهم إن رجلاً من بني سلمة

يقال له سليم أتى رسول الله ﷺ فقال : إنا نطل في أعمالنا حتى نمسي فيأتي معاذ بن جبل فينادي بالصلاة فنأتيه فيطول علينا ، فقال له / النبي ﷺ [ص ٨٠] « لا تكن أو لا تكونن فتناً ، إما أن تصلي معي وإما أن تخفف عن قومك » .

واستدل الشافعي رضي الله عنه بالحديث الأول على جواز [صلاة] المفترض خلف المتنفل . فتقول السادة الحنفية رضي الله عنهم : إن النية أمر باطني لا يطلع عليها إلا بأخبار الناي ، فجاز أن تكون نيته مع النبي ﷺ الفرض ، وجاز أن تكون النفل ، فإذا لم يخبر بشيء من ذلك فلا يظن بمعاذ أنه يصلي إماماً بالنافلة لقوم يؤدون فروضهم ، لأن الفرض أصل والنافلة فرع . ولم يرد عن معاذ رضي الله عنه شيء .

فيجيبوا الشافعية عن ذلك ويقولوا : أن معاذ بن جبل لا يظن به أنه يترك فضيلة فرض صلاته خلف النبي ﷺ .

فتقول السادة الحنفية رضي الله عنهم : إن فضيلة صلاته خلف رسول الله ﷺ لا يفوته على الحالتين ، لكنه إذا صلى متنفلًا فسد صلاة من خلفه / وفي هذا المحذور ما لا يخفى . [ص ٨١]

ولكل من الطائفتين حجج يضيق مجلس مولانا البادشاه عن إيرادها .

فأعجبه هذا إلى الغاية ، فحضر السباط ومدّوا وأكل . وكان جماعة تبريز قد استحضروا مسائلًا من سائر العلوم ، فلم يحصل لأحد منهم نوبة للكلام لما سبق ، وكان ذلك من فضل الله وعونه .

ومن غريب ما اتفق أن القاضي حسن وهو قاضي عسكره ، وفي ذلك البلاد يكون مقام كاتب السر في المملكة المصرية ، اجتمعت به في وقت لأمر من الأمور ، فتجارينا في الكلام وكان بيني وبين والده المرحوم الشيخ شرف بن يعقوب مودة أكيدة وشركة في طلب العلم الشريف ، وكان يقرأ على شيخنا

المرحوم الشيخ شهاب الدين أحمد المرعشي تغمده الله برحمته ، وسمعت بقراءته الزهراوين من الكشف وغيره ، ورافقته وصحبته بمصر أيضاً مدة ونعم صاحب [ص ٨٢] كان رحمه الله ، / فسألني عن ترجمة المقر الأشرف أمير يَشْبَك الدَوَادار وباش العساكر المنصورة أعز الله أنصاره وأيده بملائكته الكرام ، فذكرت فضله وعقله ورأيه السديد ، وتأمله في الأمور مع تأني عالم لا خايف ، وتلقيه الوقائع بقلب قوي من غير توان فيما يأتي ، وأما سخاؤه فعام ، يعطي الجزيل ولا يمين ولا يذكر ولا يفتخر ، حتى أني منذ صحبته لم أسمع يوماً منه أنه قال : أعطيت فلاناً كذا ، أو صنعت مع فلان كذا . وأما مروته فلا يمكن وصفها واطلاعه على الحوادث وإيراده الحجج في الكلام مع الخصم إلى النهاية ، وأما شجاعته وعلمه بالفروسيات فيشهد له بذلك الصديق والعدو .

وأما علمه بدقائق الرسائل فلا يجاريه فيه إلا من رسخ في العلوم ، فبقي يتعجب من ذلك ، وربما ظهر لي منه أني أطنبت في مدحه لمحبي له ، فقلت له [ص ٨٣] وأنا أريك شيئاً يشهد ببعض ما قلت له / لك وتعلم أني قصرت في مدحه وما طولت .

وتذكرت في ذلك أنه أدام الله أيامه ، كان كتب جواباً للمخدول سوار لكلام بلغه الأمير هاييل بن طقتمر ، وكان المذكور ممسوكاً عنده فأطلقه ، وحمله كلاماً أجاب عنها ، وكانت المسودة عندي وصحبتها معي ، فطلبتها في الحال وأوقفته عليها ، فبقي كلما يقرأ فصلاً يتعجب ويقول : والله ما أطنبت في وصفه ، من يتكلم بمثل هذا الدرّ هو فوق ما وصفت .

ولما توجه إلى عند البادشاه ذكر له المجلس بتمامه ، فطلب البادشاه رستم المهندي وقال : توجه إلى القاضي الذي حضر قاصداً من الشام ودعه يحضر ومعه الكتاب الذي جهّزه الأمير الدوادار لسوار ليقرأه علينا وننظر فيه . فحضر إليّ

المذكور فتوجهت معه فلما دخلت عليه قام من مجلسه وأكرمني غاية الإكرام ،
فجلست في مكاني على العادة / فقال أحضرتـ [هـ] معك ؟ [ص ٨٤]

فقلت : نعم وهل يخالف مرسوم البادشاه .

قال : فافقرأه وفسره حتى نعلم ما فيه .

فقرأته حرفاً حرفاً ، وكلما فرغت من فصل ترجمته له وهو يقول فيما يعجبه
من الكلام « اخربت بيت القحبة زان » ويهز رأسه .

فلما فرغت من الكتاب قال : والله ما كنت أظن أنه يوجد في المماليك مثل
هذا .

وكان في الكتاب من الإستشهادات من القرآن والحديث وأشعار العرب
والترك ما يناسب الحال في كل فصل .

فقال البادشاه للقاضي حسن : اكتب نسخة هذا الكتاب عندك فإن فيه حكم
ونصائح لمن يفهم . فأخذ القاضي الكتاب مني وكتبه ثم رد المسودة إليّ .

وفي يوم الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر ، حضر إليّ الميهمندار ومعه
خلعة مفرية وشقا^(٢٠٩) ووجهه فلفل على النحيل ، وألف بنكاه وفرس وبغل
وعشرين قطعة من القماش الملون / من القطني وغيره . وكتب الجواب لي ورسم [ص ٨٥]
بأن أجمع بالأمير أمير أصلان بن ملك أصلان بن دلغادر ، واتفق معه على أنه
يحضر أول الربيع بعد الشتاء ، وأطيب خاطره ، وكتب له كتاباً معي يأمره
بذلك ، وطلب في كتابه من المقر الأشرف باش العساكر الإسلامية أعز الله
أنصاره ، جماعة من الأكراد المتسحبين من عنده إلى المملكة الإسلامية فلم يجبه إلى
ذلك .

(٢٠٩) شقا : لعلها (جوقة) وهي قماش من الصوف مبطن بشعر دقيق ناعم ، أو هي شقة بمعنى
قطعة قماش .

[عودة المؤلف من تبريز]

فأقمت بتبريز الخميس والجمعة ، وفي يوم السبت المبارك وهو العشرين من شهر ربيع الآخر ، رحلنا من مدينة تبريز ، ونزلنا بقريّة سروان قلي^(٢١٠) ، وكان من الاتفاق الغريب من حين وصولي ، حصل لي الضعف كما سبق ، ومدة الإقامة بتبريز عشرين يوماً لم تفارقني الحمى ، وخرجت وأنا موقن بالهلاك ، فأدركني الله بلطفه الخفي ، أني لما فارقت فناء تبريز رزقني الله العافية ، وكأن الضعف لم [ص ٨٦] يكن ، وبت / تلك الليلة بالمكان المذكور بخير ليلة وأصبحت وقد تزايدت العافية والله الحمد .

ونزلنا يوم الأحد بقريّة تاسوا ثم منها إلى مدينة خوي ، ثم منها بتنا بمفازة ، ثم منها بتنا بوادي الظلمات ، ثم منها نزلنا بقريّة بندماهي معناه بالعربي سكر السمك ، ومنها إلى مدينة أرجيش ، وأقمت بها يومين ، وحصل لي بعض تشويش ، ثم رزقني الله العافية ، ومنها نزلنا بقريّة نصاري ، فأمطرت علينا تلك الليلة إلى الصباح من الثلوج ما لا يعبر عنه ، وقاسى جماعتنا من الريح والبرد ما لا يعبر عنه ، وبت أنا وحدي في إصطبل البقر ، وأصبح الثلج والهواء مترادف لا ينقطع ، وقاسينا إلى أن حملنا الأحمال أشد مقاساة ، ورحلنا منها في أسوأ حال ، ومرينا على مدينة هذا الحور^(٢١١) ، وهي مدينة ذات سور وقلعة شاهقة وبها من الأنهار والبساتين شيء كثير وهي بجانب البحيرة . وماء البحيرة تضرب أمواجها سورها .

(٢١٠) سروان قلي : كذا في الأصل ، وقد تقدم رسمها « سروان قولي » مرتين .

(٢١١) الحور : لم نهد إلى أصل هذه الكلمة ، إلا أن تكون معرفة عن (عاد الجواز) وتنطبق أوصافها على ما ذكر المؤلف : فهي مركز قضاء في شمال بحيرة وان . وتقع بالقرب من البحيرة .

فما نزلنا بها / ومرينا على ظهر إلى أن نزلنا بقرية ووجدنا بها الشيخ [ص ٨٧] يوسف ، فأنزلنا عنده ، وبتنا تلك الليلة والثلج والهواء متصلان من غير انقطاع .

[لقاء المؤلف للأمير أعلان]

ورحلنا منها نهار الثلاثاء سلخ شهر ربيع الآخر ، ونزلنا بمدينة أخلاط^(٢١٢) فرأيتها مدينة ذات قلعة حصينة ، وبالقلعة جماعة صاحب بدليس^(٢١٣) محاصرون ، والقتال متصل بينهم وبين جماعة البادشاه ، وأحد الأمراء الأمير أعلان بن ملك أعلان بن دلغادر ، وكان معي كتاباً من البادشاه إليه ليجهز شخصاً ممن يثق به من جماعته ليتوجه معي وينظر كلام نظام الملك ، وفي أول الربيع يتوجه هو بنفسه إن سمع ما يرضيه .

فلما بلغه وصولي جهّز من لاقاني ، ونصب لي خاماً وأنزلني في أحسن منزل ، وأجرى الضيافة على العادة . ثم حضر إليّ فناولته الكتاب فقرأه واستبشر بحضوري ، وقال : أنت والدي ، ومهما رأيت من المصلحة فأنا ما أخالفك / في [ص ٨٨] كل ما تشير به .

فقلت : المصلحة اغتنام الفرصة لأن نظام الملك نصره الله له بكم عناية جيدة .

(٢١٢) أخلاط : قال شمس الدين سامي في قاموس الأعلام : أخلاط : قصبة قضاء في ولاية بتليس وعلى الساحل الشمالي الغربي من بحيرة وان . وقد كانت فيما مضى قصبة أرمينيا الوسطى ، وتقع على أكمة تبعد نصف ساعة عن البحيرة ، ولا تزال أطلالها ماثلة (انظر موقعها على المصور ١) .

(٢١٣) بدليس : وتكتب بتليس . مدينة كبيرة في شرق الأناضول ، وهي مركز ولاية بتليس ، وتقع على بُعد ١٥ كلم من الساحل الغربي لبحيرة وان ، وأكثر أهلها من الأكراد . ذكرها ياقوت الحموي فقال : هي بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط (انظر موقعها على المصور ١) .

فجهّز معي دوا داره خضر الدلغادري فسافرنا من أخلاط يوم الأربعاء
مستهل شهر جمادى الأولى ، والثلوج تنزل ، ولا زلنا إلى بعد العشاء ، ولا ننظر
سوى الجبال ، والأرض لا ترى من الثلج ولا أثر الطريق ، فنزلنا في غابة
وانقطع منا جماعة من شدة البرد والثلج ، وما اجتمع آخرهم إلى قرب نصف
الليل . وكان من عناية الله أن صادفنا حطباً كثيراً ، فأوقدنا منها جانباً إلى أن
رُدّت إلينا أرواحنا وحصل بذلك رفق .

[رحلة العودة إلى حلب]

ثم رحلنا وسلكننا بين جبال وأودية وثلوج إلى أن وصلنا إلى موش^(٢١٤) والحال
كما سبق ، ثم رحلنا منها وبتنا بجانب الفرات في مفاضة ، ثم منها إلى وادي
ملش كرد ، ومرينا على ظهر ونزلنا بمفاضة ، ووجدنا بها أيضاً حطباً كثيراً
[ص ٨٩] وأوقدنا على العادة . ورحلنا منها بعد صلاة / الصبح إلى أن وصلنا إلى
حبق حور ، ومن ذلك فارقنا الثلوج ، فكان جملة مسيرنا في الثلوج على الصفة
المذكورة ستة أيام .

ثم منها إلى مدينة حين ، ثم منها إلى قرية من قرى آمد ، ومنها إلى مدينة
آمد نهار الأربعاء ، وأقننا بها إلى نهار الخميس ، ورحلنا منها بعد الظهر .

وفي ظهر يوم الأحد ثاني عشر جماد الأول ، وصلنا إلى مدينة الرها^(٢١٥) ،
وأقننا بها إلى صبيحة نهار الثلاثاء . ورحلنا منها ووصلنا إلى مدينة البيرة ، ولاقنا
نائبها الأمير أردبش ، وأنزلنا بالقلعة ، وأكرمنا إكراماً بالغاً ، فالله يجازيه عنا
كل خير .

(٢١٤) موش : ذكر ياقوت أنها بلدة من ناحية خلاط بأرمينية . وقال شمس الدين سامي صاحب
قاموس الأعلام التركي : أنها مركز لواء في الشمال الغربي من بتليس وسكانها أكراة . (انظر
موقعها على المصور ١) .

(٢١٥) الرها : التعليق ١٨١ .

ثم رحلنا منها إلى جهة حلب المحروسة . وفي صبيحة نهار السبت تاسع عشره
دخلنا إلى حلب المحروسة .

[الرحلة إلى معسكر الأمير يَشْبَك]

ثم رحلنا منها يوم الخميس مستهل شهر جماد الآخر ، ووصلنا إلى العسكر
المنصور يوم الاثنين خامسه بمكان يسمى الأكليسة بالقرص^(٢١٦) / من أعمال [ص ٩٠]
حقراوة ، وقبل وصولنا شاهدنا مكان الحرب الذي وقع بين المَقَر الأشرف أمير
يَشْبَك الدوادر وباش العساكر الإسلامية أعز الله أنصاره وبين المخدول شاه سوار .
هذا ما كان من أمري .

[المؤلف يروي ما حدث أثناء غيابه]

وأما أمر العساكر الإسلامية ، فأخبرني من أثق بكلامه ، أنه لما انتهت عمارة
قلعة عينتاب ، عيّن لنيابتها الجناح العالي السيفي بهادر ، دوادر السلطان
بالشام ، إلى أن تبرز المراسيم الشريفة لمن يستقر بها ، فلم يوافق على ذلك ،
فاعتقله المَقَر الأشرف بالقلعة ثلاثة أيام ، فحضر جميع الأمراء والكفلاء ، وتراموا
على مراحم باش العساكر المنصورة ، فغفى عنه واستقر به نائباً بها ، وأضاف إليه
فرج بن مقبل أمير كبير صفد ، وأقباي الخططي الحاجب بطرابلس ، ومن جند
الحلقة إلى أن كمل مأتي نفر ، وأودع فيها زردخانه وقحاً وشعيراً ودقيقاً وباروداً
وجميع ما يحتاج إليه .

(٢١٦) أكليسة بالقرص : لعلها كَلَّيس بالقرص وقد مر الكلام على كَلَّيس . وأما قرص فتدعى قارص
الدلغادرية ، وهي مركز قضاء في ولاية أذنة نسبت إلى الدلغادرية تفريقاً لها عن قارص في
القفقاس ولأنها كانت من أملاك الدلغادرية . ولعل كَلَّيس كانت تابعة لها (راجع جغرافي
لغاتي) .



صورة قلعة بغراس

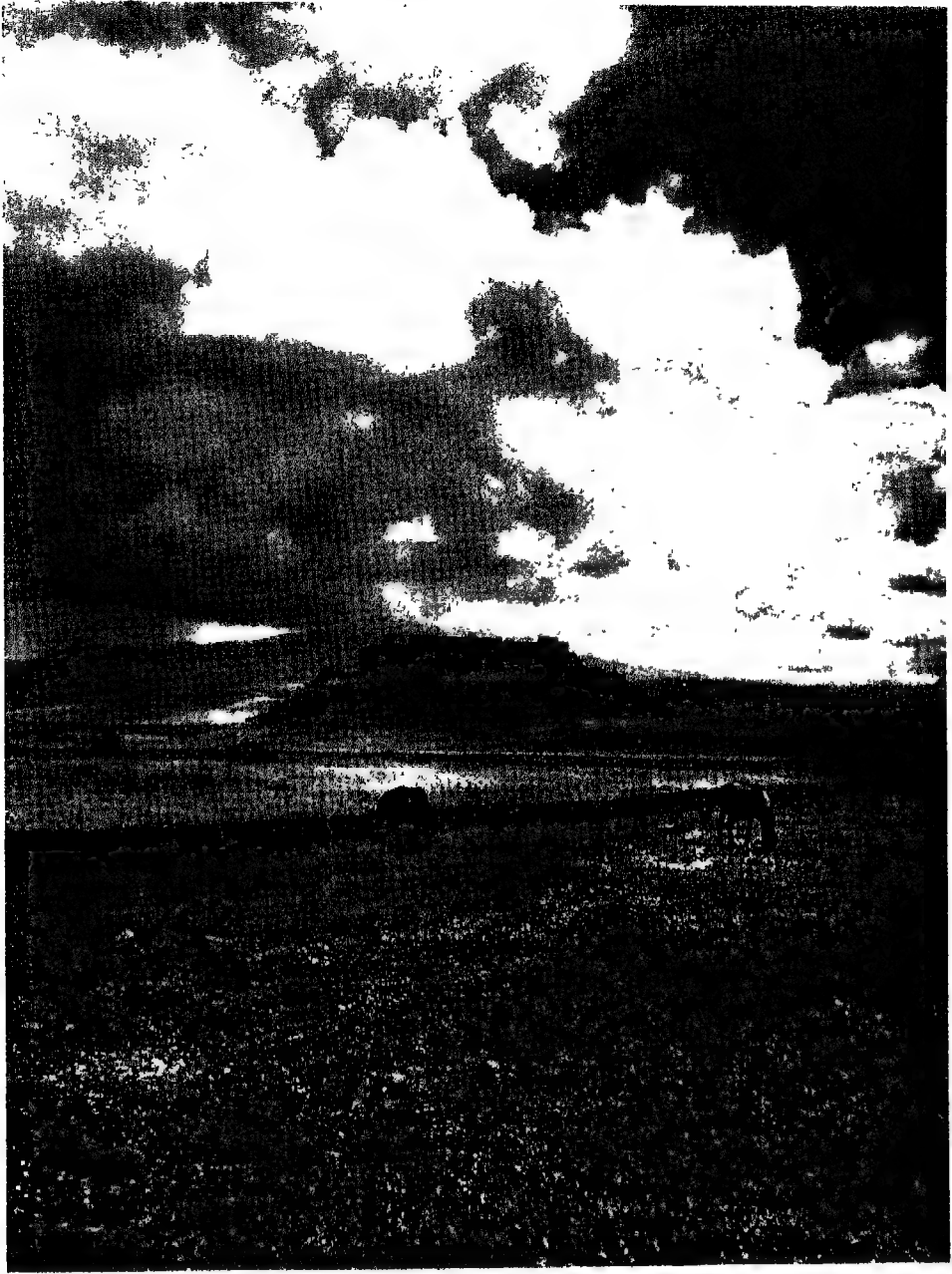
فلما / كل ذلك توجه الركاب الكريم العالي إلى جهة العمق ، وكان توجهه [ص ٩١]
في يوم السبت رابع عشر ربيع الأول . وفي يوم الخميس تاسع عشره ، نزل على
القناطر بالعمق ، ورحل منها ونزل على أنطاكية .

وفي يوم الجمعة سابع عشرين شهر تاريخه ، تسحب الأمير موسى بن قراجا ،
فأكرمه المَقَر الأشرف غاية الإكرام ، وأنعم عليه بألف دينار ، وألبسه كملية
مفرية سموراً طرشاً وفرساً بكنبوش وسرج ذهب ، وأوعده عن الصدقات الشريفة
بكل خير ، وأحضر معه رعيته ومن يلوذ به ، وقيل إنه فرّق الألف عليهم كل أحد
على قدر مرتبته ، والتزم بدخول أهل البلستين ومرعش للطاعة الشريفة .

وفي ثاني عشرين شهر ربيع الآخر ، دخل المَقَر الأشرف باش العساكر
المنصورة بمن معه من العساكر ، وعدّى عقبة بغراض^(٢١٧) وكان يوماً شديداً على
الجمال ثم منها وعدّاً باب الملك / ثم منها إلى مدينة إياس ، وفرّق بها عليق شهر [ص ٩٢]
جمادى الأول . وفي مستهله حضر الأمير سلمان بن دَلْغادر أخو شاه سوار الخذول ،
فأقبل عليه المَقَر الأشرف باش العساكر المنصورة وألبسه كملية مفرية سموراً
طرشاً ومركوب خاص بقماش ذهب وأنعم عليه بخمسمائة دينار .

وفي يوم الخميس بلغ المسامع الكريمة أن المشاة قصدهم أن يتسحبوا ، فجهز
جماعة من مماليكه لربط الطرقات ، فتوجهوا تلك الليلة ، وربطوا لهم
الطرقات ، فحصلوا منهم جماعة كثيرة ، وأحضروهم في يوم الجمعة ثالث شهر
تاريخه ، فخرج منهم عدة اثنين وثلاثين نفراً ، ولولا فعل ذلك لتسحب جميع
المشاة وتعطل أمر المهم الشريف .

(٢١٧) بغراض : اسم لقرية وقلعة مبنية فوق جبل شاهق في جبال الأمانوس بلواء اسكندرونة
تشرف على ممر يبلان الذي يجتاز الأمانوس ويمر منه طريق أنطاكية اسكندرونة ، تطل على
وادي عميق ، وهي الآن خربة وأطلالها شاخصة وقد تردد ذكر القلعة في التواريخ العربية
(انظر موقعها على المصور ٤) .



صورة تل حمدون

وفيه حضروا الكواخي^(٢١٨) بحلب فأودعهم المقر الأشرف أعز الله أنصاره الحديد ، وضرب بعضهم بالمقارع ، وكتب عليهم التزاماً وأطلقهم .

وفي يوم الثلاثاء حضر حدادار أخو سوار المخدول فألبسه كاملية / مفرية [ص ٩٣] سموراً طرشاً ومركوباً خاصاً بقماش ذهب وأنعم عليه بمئتي دينار .

وفي يوم الخميس رحل الركاب العالي بمن معه من العساكر ونزل بتل حمدون^(٢١٩) وأقام به يوم الجمعة عاشره .

وفي آخر النهار أجهر النداء لجميع العسكر المنصور بالركوب باكراً لنهار يوم السبت ، فركبوا في اليوم المذكور ، ورتب كافل الملكة الشامية في المينة ، وأضاف إليه الأمير خيرباك ومضافاته ونائب طرابلس وحماة وصفد وجعلهم ست صفوف . وفي الميسرة كافل الملكة الحلبية ، وأضاف إليه الأمير برسباي ومضافاته وجميع التركان والأكراد . وركب المقر الأشرف باش العساكر الإسلامية في وسط العسكر وصحبته الأمير تمتاز الشمسي ، ومشاة جبل نابلس وأولاد بشارة ، وترك الخيم الكريم في تل حمدون ، واستمر سائراً إلى أن وصل إلى نهر جيحون^(٢٢٠) . كل ذلك إرهاباً للعدو المخدول فلم يجد به أحداً ، فعاد / فلحقه [ص ٩٤] جماعة من العسكر ، وهو في أثناء الطريق قبل وصوله إلى الخيم ، وأخبروا أن جماعة من السوارية حضروا إلى نهر جيحون بالمكان الذي وصل إليه الركاب

(٢١٨) الكواخي : جمع كيخيا المحرفة عن كتخدا وهو القيم على المزرعة أو القرية أو القصر .

(٢١٩) تل حمدون : اسم لقرية وقلعة تقعان في شرقي سهل أضنة على التلال التي تتقدم جبال الأمانوس في سفوحها الشمالية الغربية وصفها أبو الفداء في تقويمه ٣٣٠ : وقلعة تل حمدون حصينة لها سور جيد حسنة البناء وهي على تل عالٍ ولها ربض وبساتين ونهر يجري عليها . (المصور ١) .

(٢٢٠) جيحون : والصواب جيحان وهو من أنهار الأناضول الكبرى وله روافد كثيرة ، ويصب في خليج اسكندرونة بالبحر المتوسط (انظر موقعه على المصور ١) .

الكريم ، فرجع في الحال إلى أن وصل إلى المكان المذكور فلم يجد به أحداً ، فها أمكنه العود بعد ذلك ، فرسم بإحضار الخيم الكريم ونصبت على نهر جيحون ، وأوقع الترسيم على الأمير بيبرس أمير كبير طرابلس بسبب انقطاعه عن المهم الشريف ، فترامى الكفلاء والأمراء على مراحم المقر الأشرف باش العساكر المنصورة فعفى عنه وأطلقه .

وفي ليلة يسفر صباحها عن خامس عشر جماد الأول ، عيّن المقر الأشرف باش العساكر الإسلامية الأمير إينال الأشقر رأس نوبة النوب إلى قلعة أدنة ، وجهاز صحبته جميع ما يحتاج إليه من الزردخاناه لمحاصرة القلعة .

وفيه جهّز نائب حلب المحروسة جماعة من مماليكه والتركمان كشافة ، فوقعوا

[ص ٩٥] في جماعة السوارية / وقطعوا منهم خمسة رؤوس .

وفيه حضر عادل فقيه وأقاربه ومعهم مفتاحين لقلعتين ، فألبسهم كوامل وسلاريات^(٢٢١) وأنعم عليهم بنفقات ، وفيه ضرب جماعة من التركمان ، وأجهرهم بواسطة تعديتهم إلى ذلك البر ، فإنه كان أجهر النداء أن أحداً لا يعدي خوفاً عليهم ألا يقع بهم أحداً من جماعة المخدول سوار فيحصل نقص للحرمة الشريفة .

وفي اليوم العشرين من شهر جماد الأول ، حضر الأمير^(٢٢٢) أخو المخدول سوار ، فألبسه كاملية سموراً طرشاً ومركوباً بقماش ذهب ، وأنعم عليه بنفقة مأتين دينار .

وفي الثالث عشرين من شهر تاريخه ، عيّن المقر الأشرف باش العساكر المنصورة أعز الله أنصاره وأيده ، جماعة من المماليك السلطانية وجماعة من مماليكه

(٢٢١) سلاوية : نسبة إلى سالار وهو الأمر الأعلى أو الرئيس . وسالار اسم أمير من المماليك قتله المنصور محمد بن قلاوون . ولعل هذا اللباس مما أحدثه هذا الأمير .
(٢٢٢) فراغ في الأصل .

وجعل باشاً عليهم الجناب السيفي قانباي / رأس نوبة وأعطاه شطفة وطبلاً [ص ٩٦]
وزمراً ، وتوجهوا إلى قلعة أدنة عوناً لمن بها إرهاباً للعدو المخدول ، وورد من
الجناب العالي السيفي إينال رأس نوبة النوب ، يذكر أنه ركب المكحلة على قلعة
أدنة ، ورمى بها وأخرب البرج ، واحتاج إلى بارود وزردخاناه ، ففي الحال عين
الجناب العالي جانم الزردكاش^(٢٢٢) وصحبته الزردخاناه التي طلبها .

وفي خامس عشرينه وسادس عشرينه استمرت الأمطار ليلاً ونهاراً .
وفي سابع عشرينه حضر شاه سوار المخدول إلى نهر جيحون ، ومعه عسكر
عظيم . فركب المقر الأشرف باش العساكر المنصورة وتوجه إليه . فلما وصل إلى
شاطئ النهر وجد العساكر المنصورة مفرقة على غير الهيئة التي رتبها ، فحصل
عنده تغير خوفاً عليهم ، فأجهر النداء بالعود ، وعاد إلى مخيمه الكريم ونزل به ،
وكان ذلك مكيدة للعدو المخدول حتى طمع وحضر الجميع إلى النهر ، / فلما عين [ص ٩٧]
ذلك ركب من وقته في عصر ذلك اليوم ، وتلاقى الفريقان ، فحصلت النصره
على العدو المخدول من وقته وساعته ، وولوا مدبرين هو وجميع عسكره ، وقتل
منه خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ولولا حال الليل بين الفريقين لما
كان نجا منهم أحد .

وعاد المقر الأشرف أمير الدوا دار ونظام الملك الشريف وباش العساكر
المنصورة إلى مخيمه الكريم بعد أذان العشاء بعشرين درجة مؤيداً منصوراً مسروراً
بما منحه الله من النصر العظيم والفتح المبين . وأجهز النداء لجميع العساكر المنصورة
بأن من كان معه رأس أو أسير يحضر به ، فأحضروا الرؤوس فاستعِدَّتْ فكان
عدتها خارجاً عما ترك بالأودية والجبال ثلاث مئة وعشرين رأساً ، ورسم
بتجهيزها إلى القلاع وإلى حلب والشام وإلى قلعة أدنة .

(٢٢٢) الزردكاش : المسؤول عن صنع السلاح وصيانتة .

واستعدت الأسراء / فكان عدتهم مئة نفر ونفرين .

وفي يوم الثلاثاء المبارك بعد الفجر ركب المقر الأشرف باش العساكر المنصورة بمن معه وتتبع آثار العدو ، ونزل الأمير تراز الشمسي أحد المقدمين بالخم .

وفيه حضرت بشارة أدنة ودخولها في الحوزة الشريفة .

وفي يوم الأربعاء استمر في أثره إلى أن وصل إلى قلعة^(٢٢٤) فأدخلها للحوزة الشريفة ، ونهبت العساكر ما كانت بها من الغلال والدقيق والزبيب والمشمش والنحاس ، فحملوا ما أمكن حمله وحرقوا الباقي . وصعد إليها المقر الأشرف باش العساكر المنصورة ومن معه من الأمراء ، وأذن فيها وأقيم الصلاة وشعائر الإسلام .

وعاد في يوم الخميس المبارك مستهل شهر جماد الآخرة ونزل بجبل القرص^(٢٢٥) ، وبات هناك هو وجميع العساكر ، وجّهز الأمير موسى بن قراجا إلى جهة المرعش . وكل من وجده من الأسرى فلاحاً أطلقه .

/ وفي يوم الجمعة انتقل الركاب الكريم بمن معه من العساكر المنصورة ونزل على نهر صورون .

وفيه حضر إليه الجم الغفير من الكواخي والأمراء ، وسألوا في الأمان فأجابهم ، وأخلع عليهم خلعاً ورسم لبعضهم بنفقات تليق بهم ، ورسم لكل طائفة أن يجمع قومه وينزل بالأماكن الجاري لهم بها عادة ، ففعلوا ذلك وتزايدت أدعيتهم في الصحائف الشريفة . وفي أثناء ذلك حضر صارندار^(٢٢٦) سوار ، وسأل في الأمان ، فأجابته وأمنه وأخلع عليه ورسم له بنفقة . وبعده حضر أمير

(٢٢٤) فراغ في الأصل .

(٢٢٥) جبل القرص : لعله بغراض التي مر شرحها .

(٢٢٦) صارندار : بمعنى محافظ الخزينة وربما حرفت عن سرحدار بمعنى محافظ الحدود .

آخوره^(٢٢٧) وصحبته دشار^(٢٢٨) المخدول سوار وعدته مئة وستين فرساً .

وفي يوم الأحد جهّز إلى قلعة سيس الجناب العالي السيفي سودون العلائي
وجماعة من الخاصكية وخازندار سوار المخدول يعرض عليهم الدخول للطاعة
الشريفة ويحذرهم عن السطوات / الشريفة فعاد من غير طائل . ثم جهّز المقرّ [ص ١٠٠]
المشار إليه كافل المملكة الحلبية بعسكر حلب ، وكافل المملكة الشامية ، وكافل
المملكة الحوية ، مع عسكرها ليحاصروا القلعة ، وينظروا في أمرها ، فحضر
يوم الخميس ثامن شهر جماد الآخر المجلس الناصري محمد دَوَادار كافل المملكة الحلبية
مبشراً بأن دولات باي مملوك سوار المخدول النائب بقلعة سيس أذعن لتسليم القلعة
وسلمها ، ولا بد من حضور الركاب الكريم .

[وصول المؤلف إلى المقرّ العالي]

ووصلت إلى خدمته الكريمة من عند حسن باك صاحب العراقين في يوم
الأثنين خامس شهر تاريخه ، فركب عصر يوم الخميس وتوجه إلى جهة سيس
ونزل بها بعد العشاء ليلة الجمعة . ثم أصبح يوم الجمعة وصعد القلعة وطلب دولات
باي المذكور ، وألبسه خلعة وأعطاه نفقة جليّة ولبقية الأمراء بسيس . وصعدت
معه إلى القلعة وشاهدتها ، فإذا هي من أعظم القلاع ، وفي وسطها / قلعة أخرى [ص ١٠١]
تسمى القلّة ، ورأيتها قلعة حصينة لو كان فيها رجال يحفظوها ما أمكن أخذها
بالحصار لصعوبتها وعلوها . ومن الاتفاق الغريب أن سيس كان أخذها المرحوم
عاشق تمر كافل المملكة الحلبية في أيام الأشرف شعبان سنة ست وسبعين وسبعمئة
من الأرمن وبقيت في الحوزة الشريفة .

(٢٢٧) أمير آخور : المسؤول عن اصطبل السلطان أو الأمير ، وما فيه من حيوانات .

(٢٢٨) دشار : محرفة عن جشار ومعناها مرعى الخيل ، وأطلق هنا على ما يحتويه الجشار من الخيل .

ثم استولى عليها سوار المخدول مرتين ، وأخذها منه المَقْرُ الأشرف المشار إليه في سنة ست وسبعين وثمان مئة .

ثم عزم المَقْرُ الأشرف نظام الملك الشريف أعز الله أنصاره ، بأن يتوجه بأناس قلائل ليكشف مدينة أدنة وقلعتها التي بناها سوار المخدول عند استيلائه عليها ، ثم منها إلى قلعة إياس ، ورسم للأمير تمتاز الأشرفي أنه يقيم بالخييم الكريم إلى أن يعود ، فتوجه وصحبته كافل الشام والأمير برسباي قرا وبعض الأمراء ، [ص ١٠٢] الجميع على جرائد الخيل / ورسم لي بأن أتوجه إلى حلب وأشتري له الميرة بها ، وأختار له مكاناً للنزول ، وعزم أن يشقي بها . وجهز الأمير قانباي صلق إلى الأبواب الشريفة بالأخبار مفصلاً .

ورحلنا عصر الجمعة من سيس وتوجه إلى جهة أدنة ، وتوجهت إلى حلب ، ووصلت إلى حلب المحروسة يوم الأحد ثامن عشر جماد الآخر ، ووقع اختياري على بيت قاضي القضاة الشافعي ابن الشحنة لحسن تكوينها وكثرة منافعها .

[المؤلف يطنب الأمير يَشْبَك بالمديح]

وفي رابع عشرينه ، وصل الركاب الكريم العالي إلى حلب المحروسة ، وكان لدخوله موقع عظيم ، ودعاء كثير من الرعية لما كان حصل لهم من القهر للإنكسار لمن سبق من العساكر المتوجهين لسوار . وأقام بحلب وهو مؤيد منصور ومسرور بما من الله عليه من قهر العدو المخدول وتشتيت شمله وتفريق جموعه [ص ١٠٣] وأخذته للقلع وعودها للحوزة الشريفة في هذه المدة اليسيرة ، / واتفق له من السعد واتقياد الأمور له كما يحب ويريد . وكل ذلك بحسن نيته وطويته وقصده العز للرعية وخلص حق المظلوم من الظالم . خصوصاً من الممالك السلطانية الذي جرت العادة على أنهم يفعلوا الأمور المشهورة عنهم من أخذ أموال الناس وهتك حريمها .

ومن بعض محاكماته أن جماعة من المالك السطانية كبسوا مكاناً كان فيه
أمرد وفعلوا فيه الفعل القبيح ثم أطلقوه ، فجاء إليه وتشكى وتظلم ، فطلبهم في
الحال فغيبوا منه . وظفر بشخص من أهل حلب كان معهم ، وربما هو الذي كان
دلهم عليه ، فضربه أولاً بالعصي من رأسه إلى قدمه ، ثم ضربه بالمقارع وأشهره
بالمدينة ثم حبسه . وبقي يتطلب المالك وهم يدوروا على الأمراء ويطلبوا
التراخي على مراحه ، فكل من يشفع فيه لا يجيبه إلا أن يقول له : « لو فرضنا
أن هذا الصبي لو كان ابنك أو قرابتك كان يهون عليك ، إلى أن تعب الأمراء في
الصفح عنهم / فلم يسمع لأحد منهم شفاعاة بل كلما تكلم أحد بسببهم زجرهم [ص ١٠٤]
وأسمعهم ما يكره وقطع رواتبهم وجوامكهم من الديوان السلطاني .

وأما اجتهاده في خلاص حقوق المسلمين فشيء لا يمكن وصفه ، فالحمد سبحانه
وتعالى يجازيه عن المسلمين كل خير ، فإنه أيّد الدين الحنيفية وفرح المسلمون
بطلعته السعيدة وتينوا قدومه المبارك عليهم ، خصوصاً أهل حلب فإنهم كانوا
يظنون أن العساكر إذا أقامت عندهم تغلى الأسعار كما جرت العادة قديماً في إقامة
العساكر ، فكان من الاتفاق الغريب أنه من حين دخل حلب لم تنزل الأسعار
تتراخي وتنزل يوماً فيوماً وجميع الأشياء موجودة وكثيرة ، وهذا لم يتفق لأحد
من سبقه والله الحمد على ذلك . ولم يزل مقيماً بحلب يأمر وينهى ويعطي الكثير
لمن يقصده من القصاد والوراد والتركان وغيرهم عطاء من لا يخاف الفقر . وأعرف
شخصاً واحداً / وهب له في مدة يسيرة ألفين ديناراً . وأما المئة والمئتين [ص ١٠٥]
وما دونها فشيء لا يحصر . ورأيت بعيني يوم وصول الأمير موسى بن قراجا أخلع
عليه وعلى الجماعة الذين حضروا معه من أكابر الدغادرية أربعة وتسعون خلة في
ساعة واحدة . وكنت أرى عطاياها الجزيلة وكثرتها حتى أني ما كنت أشك أن
رزقه نصره الله مبروك فيه لكثرتة .

وفُزَّقَ ليلة النصف على الفقراء من أهل العلم ، وخصهم على غيرهم من الفقراء لما يعلم أنهم يقدموا على غيرهم من الفقراء في يوم واحد خمسمائة أشرفياً منها ثلاث مائة على يدي . فالله يجزل ثوابه ويجعل لنا منه حظاً ونصيباً . وكان سبب ذلك أني تذاكرت معه ليلة الرابع عشر من شعبان في فضائل ليلة النصف ، وقلت إن بعض المفسرين ذكر في تفسير قوله تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ [ص ١٠٦] أنها ليلة النصف من شعبان ، وأن الله يقسم فيها / الأرزاق والأعمار ، ولا بأس أن تتصدقوا بشيء في هذه الليلة الشريفة ، فرسم إذ ذاك بخمسمائة دينار . فانظر إلى حسن تلقيه واعتقاده واتقياده لفعل الخيرات . وما علمت مدة إقامتي في خدمته أن مظلوماً تظلم له ولم يخلص حقه ، اللهم إلا أن يكون لذلك ضرورة يحتاج لتأخيرها لوقت آخر ، ومن ذلك أن شخصاً من أهل حماة اشتكى على استادار نائب حماة بأنه قتل ولده ، وأنه يريد مكتبة للنائب بجمع القضاة وإثبات حقه ومقابلته بما يثبت عليه شرعاً ، فتوجّه الشاكي ورجع بغير طائل ، وانتهى أن نائب حماة لم يخلص حقه ، وكان طلب نائب حماة للتوجه إلى المهمل الشريف ، فالتزم الأيمان الشرعية أنه لا يمكن الاجتماع به ولا يرى وجهه إلى أن يرضي الشاكي بأي وجه كان ، فانظر إلى هذا التجلد في خلاص الحق حرصه الله بملائكته الكرام .

[ص ١٠٧] وأما تفاصيل مكارم أخلاقه وبشاشته / وعقله وتدييره ، فشيء أعجز عن وصفه .

[استئناف الحديث عن الرحلة]

وأقام بجلب إلى أن مضى الشتاء ، وحكم الربيع ، وخرج منها يوم الأحد سادس عشرين شهر شوال في أحسن أهبة وهيبة ، وقد ألبس بماليكه بعدة كاملة ، والخذ على رؤوسهم تلمع كالبرق ، ورماحهم بأيديهم ، وألزمهم بحمل رماحهم بأيديهم ، ونادى بأن غلاماً حمل رمح أستاذه قطعت يده ، فحصل بذلك الرفق

للغلمان وزيادة هيئة للعساكر المنصورة ، فن حينئذ اقتدى به جميع الكفلاء ونزل بالأنصاري^(٢٢٩) .

وتوجه يوم الاثنين إلى جهة العمق ورسم لي بالإقامة بحلب لأمر تتعلق به ، ثم بعد أيام جهّز لي كتاباً يذكر فيه أنه وجد مكاناً بالقرب من بغراض على الطريق ، ويحصل به مشقة عظيمة للمسافرين من الصخور التي على الطريق ، وطلب حجارين لقطع ذلك ، فجهزت إليه جماعة من المعلمين وزالت عن الطريق وحصل للمسلمين بذلك رفق / عظيم والله الحمد ، وأصرف على ذلك [ص ١٠٨] جملة .

ثم رحل من العمق إلى جهة يغرا^(٢٣٠) وأقام بها أياماً ، ووصل إليه الأمير علاء الدين علي بن ططر من شاه سوار ، ومعه مكاتبة منه أنه سلم قلعة درندة لابن صاروخان ، وكان توجه لذلك ، وأنه يترامى على الصدقات النظامية ليدخل للطاعة الشريفة ويكون مملوكه ومملوك الأبواب الشريفة ، ويعفى عما صدر منه .

وكان رسم له أنه إذا حضر وداس البساط الشريف يلبسه تشريفاً شريفاً . وحلف المقرّ الأشرف النظامي له بعدم التشويش عليه بوجه من الوجوه ، فأجاب عن ذلك بأنه يعرف ما وقع منه من الأمور ، وأن وجهه بذلك أسود ، ويختشي أنه إذا حضر بأمان يحصل عليه نكد . فقبل عذره في الظاهر ، وجهاز ابن ططر المذكور إلى الأبواب الشريفة يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ذي قعدة ، ثم رحل من يغرا ونزل بمكان يسمى [^(٢٣١)] / ثم منها إلى مكان بالقرب من فم الأسد . [ص ١٠٩]

(٢٢٩) الأنصاري : كانت قرية قريبة جداً من حلب ، وهي الآن أحد أحيائها .

(٢٣٠) يغرا : اسم قرية قديمة في شمال سهل العمق في لواء اسكندرونة على بحيرة تنسب إليها ، وفيها كانت لنور الدين وقعة مع الصليبيين هزمهم فيها .

(٢٣١) فراغ في الأصل .

وأقمت بجلب إلى سادس عشرين شهر ذي قعدة ، ورحلت منها يوم الثلاثاء . وأدركته يوم الجمعة وهو نازل على مكان يسمى آغ دكرمان .

ثم رحل منها يوم السبت سلخ شهر تاريخه ونزل بكنينول^(٢٣٢) ، فرأيت الهلال على وجهه الكريم أيده الله بملائكته ، وأنشدته بيتين للمصولي^(٢٣٣) حين رأى الهلال وهو واقف عند المتوكل من بني العباس وقضيته مشهورة بين أهل التاريخ وهو قوله :

رَدُّ قَوْلِي وَصَدَّقَ الْأَقْوَالَا وَأَطَاعَ الْوَشَاةَ وَالْعَذَالَا
أَتَرَاهُ يَكُونُ شَهْرَ صَدُودٍ وَعَلَى وَجْهِهِ رَأَيْتُ الْهَلَالَا

وأخبرته بالحكاية من أولها إلى آخرها فأعجبه . ثم رحل من كينول نهار الأحد وصعد الجبل المشهور بتكلي بلي ، ولقي العساكر به مشقة عظيمة من كثرة الأحجار وصعوبة المسلك خصوصاً الجمال ، ونزل على النهر الأزرق^(٢٣٤) وانقطع [١١٠] غالب الجمال / المحملة ، وباتوا في الطريق ، وأقام يوم الاثنين ينتظر المنقطعين إلى أن تكملوا .

(٢٣٢) كينول : والصواب كينوك وهي من بلاد الروم من أعمال آسيا الصغرى . كان العرب يسمونها الحدث الحمراء لأن سيف الدولة بناها بحجارة حمراء (النجوم الزاهرة ١٦٧/٧) .

(٢٣٣) المصولي : هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول المصولي ١٧٦ - ٢٤٣ هـ ، أصله من أتراك جرجان ، نشأ في بغداد ، وتأدب بها ، فكان كاتب العراق في عصره ، كتب للمعتمد والوائق والمتوكل وتنقل في الأعمال والدواوين ، قال عنه ياقوت : كان إبراهيم إذا قال شعراً اختاره وأسقط رذله وأثبت نخبته ، ومن مؤلفاته : ديوان رسائل ، ديوان شعر ، كتاب العطر ، كتاب البطيخ .

(٢٣٤) النهر الأزرق : ويسمى بالتركية كوكسو ، وهو نهر يجري في ولاية أدنة (كيليكية) ويصب في البحر المتوسط غرب خليج مرسين (انظر موقعه على المصور ١) .

[فتح قلعة خرمان]

ووقع من الإتفاق الغريب أنه لم ينكسر بها جل واحد من فضل الله تعالى وسعده ، فالله يعطيه من الخيرات ما يؤمله . ثم رحل منها رحلة واحدة إلى أبلستين ونزل بها ، وكان سبقه نائب الشام بعسكره ، والأمير برسباي قرا بمن معه من المضافين إليه من الممالك السلطانية ، فلما نزل بها رسم لنائب الشام والأمير برسباي بالرحيل إلى جهة خرمان^(٢٣٥) ، وأقام هو إلى ظهر يوم الأربعاء ، ورحل منها إلى أن وصل قلعة خرمان أذان المغرب ، فإذا هي قلعة حصينة .

فلما أصبح المقر الأشرف نظام الملك الشريف نصره الله ، جهز إليهم شخصاً يذكرهم أنهم يسلموا القلعة وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ، فلم يرضوا وربما كلموه كلاماً قبيحاً . ثم أرسل إليهم الأمير أردوانه^(٢٣٦) فأجابوه مثل ذلك ورموا عليه سهاماً ، فرجع بغير طائل .

فلما شاهد المقر الأشرف ذلك منهم / ما وسعه إلا أنه ركب بنفسه وتولى حصار [ص ١١١] القلعة . ولم يزل يوم الخميس القتال يعمل بين الفريقين إلى المغرب وجرح جماعة منها . وبات المقر الأشرف تلك الليلة وهي ليلة الجمعة في مكان بالقرب من السور وصنف شيئاً غريب الشكل يدخله أربعة أنفار من الخشب ، ولا زال به إلى أن التصق ودخل فيه النقبابون ، وتقبوا من أسفل السور إلى أن قربوا إلى داخله ، واستمر العمل إلى ظهر يوم الجمعة ، وتحقق أهل القلعة أنهم مأخوذون فإمكنهم إلا أنهم أذعنوا للصالح وطلبوا الأمان ، فلم يجبه المقر الأشرف المشار إليه ، وقال : أنا

(٢٣٥) خرمان : لم نثر على وصفها في المصادر التي قلبناها . ويبدو أنها في شمال ألبستان .

(٢٣٦) أردوانه : هو شقيق شاه سوار .

عرضت عليهم الأمان أولاً فلم يرضوا ، والآن حين أيقنوا بالبوارج يطلبون الأمان .
فحضرت الأمراء ولا زالوا يترامون على مراحمه ويسألوه العفو والصفح عنهم إلى أن
[ص ١١٢] أمَّنهم على أنفسهم وأموالهم ، وما كان من اللبوس والقماش / وآلات القلعة وذخائر
سوار المخدول فهو للخزائن الشريفة ، فرضوا بذلك .

وبرز المرسوم الكريم للأمير خاير باك الأشرفي أحد المقدمين بالقاهرة
للمصعود إلى القلعة والإقامة بها ، وتسليم ما بها من اللبوس والغلال وغيرها . وجهَّز
معه السنجق السلطاني ، ودقت البشائر بالقلعة ، ودخلت في الحوزة الشريفة .
ووجد بالقلعة من الغلال واللبوس وبعض القماش الذي نهب لمن تقدم من العساكر
المصرية مع المقرِّ الأتابكي أربك الظاهري ، فأنعم بالغلال على الأمير خاير باك ،
وما كان من السلاح فسلم للأمير جانم الزردكاش . ووجد بها أيضاً مكحلتين
فجزهما المقرُّ الأشرف إلى قلعة زمنطوا^(٢٣٧) ، وهذا شيء لا ينهض به أحد لأن
طريق خرمان إلى زمنطوا في غاية الوعر والصعوبة ، وكل هذا لسعادته وحسن
طويته ونيتته ، فالله يجازيه عن المسلمين خيراً . وأقام أيده الله بقلعة
[ص ١١٣] خرمان / إلى يوم الأحد تاسع شهر ذي الحجة ورحل منها ونزل بخان السلطان
وهي ذات مروج ومياه ، ورحل منها يوم الاثنين فنزل بمكان يسمى^(٢٣٨) ، ثم
رحل منها ونزل برأس العين ، وإذا هي مكان ذات مروج وأزهار وأنهار ، ولقد
شاهدت رأس العين هذا وهو في غاية الأعجوبة ، يتدفق الماء من أسفل كالزلال
وبجوانبها أشجار . وفي الوادي بالقرب من العين الكبير عيون صغار ، ويجتمع
الكل ويصير نهراً كبيراً وهو أصل قزلبا أرمق^(٢٣٩) الواصل إلى أدنة . وأقام بها
الثلاثاء والأربعاء ورحل بكرة نهار الخميس ثالث عشره ونزل على قلعة زمنطوا
وأقام بها ليلة .

(٢٣٧) زمنطوا : التعليقة ٨١ .

(٢٣٨) فراغ في الأصل .

(٢٣٩) قزلبا أرمق : يتألف نهر جيحان الذي يصب في خليج اسكندرونة من عدة أنهار منها نهر =

[حصار قلعة زمنطوا]

وفي صبيحة نهار الجمعة انتقل إلى مكان بالقرب من سور القلعة بجانب الزاوية المشهورة والتربة ، وكان المقرّ الأشرف المشار إليه يذكر لم يزل ويسأل عن آلة أخشاب يرسم الستائر للحصار ، ويقال له : إن الآلة مفقودة بزمنطوا / وليس بقربها شيء . فلما وصل إلى القلعة شاهد غوطة بالقرب منها ، [ص ١١٤] فسأل عنها فقيل إن هذا من وقف المشايخ ولا يتعرض له أحد ، فتوكل على الله وطلب النجارين والنشارين وقطع منها أشجاراً كثيرة ، وكل ذلك وهو واقف على قدمه يباشر الأمور بنفسه ، وماليكه ومحبيه ومن يلوذ به ، والأمراء والنواب يترددون إلى خدمته ، وبات بها تلك الليلة والصناع يسهرون في العمل . فانظر إلى هذه المهمة العالية والغيرة على أهل الإسلام . لأن الأذى الذي حصل من سوار للرية والبلاد لم يحصل من تمرلك ، وهو أن تمرلك كانت إقامته مدة يسيرة ، وهذا تطاول أذاه وتمادى إلى خمس سنين .

وأما عموم الغلاء في المملكة الشامية فما رأينا ولا سمعنا في التواريخ ، وكان المسلمون في شدة عظيمة لسببه من عدم الأمن والغلاء والتشتيت عن أوطانهم . وفي يوم الجمعة رابع عشره وصل قاصد من عند / السلطان أبو يزيد بن [ص ١١٥] عثمان ومعه هدية ، ويذكر في مكاتبته أنه حصل له سرور بقدوم العساكر المنصورة ، وأنه يسأل في تجهيز ما يتجدد من الأخبار أولاً بأول . ومهما دعت الضرورة إليه من الغلال والمأكّل يجهز ذلك .

= أق صو الذي ينبع من شمال قضاء بهسنى ، ويمر بالقرب من مرعش حيث يلتقي بنهر يجري في طرفها ، وربما كان أحد النهرين هو النهر الذي شاهده المؤلف . مع العلم أن النهر الذي يمر بأدنة هو نهر سيحان .

وفي يوم السبت خامس عشره ، بدأ في عمل الستائر ، وعين الأمير خاير باك بالوقوف على المكحلة مع الزردكاش ، والرمي متصل بين أهل القلعة والمحاصرين من غير أن يلزم أحد بالحصار لأن قصد المَقَر الأشرف أعز الله أنصاره كان سكب مكاحل كبار ويشرع في الحصار .

فلما كان ليلة الاثنين سابع عشره ، نزل من القلعة واحدًا من ممالك سوار المخدول هارباً منه وهو ينادي الله ينصر السلطان ، فوصل إلى الجماعة المحاصرين فأخذوه وأحضروه للمَقَر الأشرف نظام الملك الشريف أعز الله أنصاره . فلما مثل بين يديه أخبره عن حال أهل القلعة وعن ما هم فيه من القلق وقلة الزاد والماء [ص ١١٦] وعدة من بها / . وأخبر أن سوار المخدول بالقلعة ومعه من خواصه ستون نفرًا . وأما النساء والأطفال فإنهم ينوفوا عن ثلاث مئة نفس ، فكرر عليه أمر سوار ، فالتزم الأيمان الشرعية أنه بالقلعة وإن لم يكن كذلك فيكون دمه حلالاً . فلما تحقق المَقَر الأشرف ذلك حصل له من الفرح والسرور مالا مزيد عليه . وركب في الحال وقبض على الأمير أردوانه شقيق سوار ، وعلى خشقدم النائب ، كان أولاً بدرندة ثم انتقل إلى خرمان ، وكان بها حين سلمت ودخلت للحوزة الشريفة وعلى جماعة من أتباعها ، ونهبت خيولهم وقماشهم ، وفي الحال احتاط بقلعة زمنطوا من أسفلها وزاد الحرس ولم يدع مكاناً إلا وأقام من يحفظه ، وبيات تلك الليلة هو بنفسه بالقرب من سور القلعة خوفاً من أن سوار يتسحب منها ليلاً ، وأصبح يوم الاثنين في عمل .

وفرق أمراء التركان في الأماكن التي كانت نخالية ، ورتب كل أمير في [ص ١١٧] مكان ، ورسم لهم أن يكونوا في غاية اليقظة / ^(٢٤٠) / كنت ما سمعت إذ ذاك و ١١٨] فاسمع الآن حيث تحققت أنني نصحتك وحصل كلام كثير بينه وبين الأمير تمتاز .

(٢٤٠) الصفحة ١١٧ ناقصة من أصل مصورة المخطوطة .

وأخر الحال تقرر الأمر على أنه ينزل إلى الخيم الكريم بشرط أن يأخذ رهايناً عنده . ثم صعدت إليه ثانياً بأنه يحلف بدخوله للطاعة الشريفة ، وأنه يكون عدواً لعدو مولانا السلطان وصديقاً لصديقه ، ويحضر متى طلب للخدمة الشريفة والمهمات الشريفة وإلى غير ذلك من الشروط اللازمة فحلف على الشرط المذكور وقال : شرطي أن الرهائن تكون الأمير خاير باك والأمير إينال الأشقر وكافل المملكة الحلبية وأخيه أردوانه ، يقيموا بالقلعة إلى أن يعود من الخيم الكريم لباساً خلعة الاستمرار ببلاده .

فلما عرضت ذلك على المسمع الكريمة النظامية توقف ولم يرض وبقي الحال بين نعم ولا إلى ظهر يوم الأربعاء ، فجدد القتال والحصار ، وشدد الأمر ، والمكاحل ترمي من الجانبين والحرس متصل / ليلاً ونهاراً خوفاً من أن يتسحب [ص ١١٩] من القلعة ويغير صورته .

وفي يوم الخميس العشرين من شهر ذي الحجة توجه الهجان إلى الأبواب الشريفة بخبر حصول سوار في القلعة وحصاره .

[مفاوضات استسلام شاه سوار]

ولما كان ليلة الاثنين الثالث والعشرين من شهر ذي الحجة ، جهّز سوار بطلب الأمان وطلب الأمير تمتاز الأشرفي بأنه يصعد إلى القلعة ، وأن الأمير دَوَادار نصره الله ينصب خيمته بالقرب من القلعة حسبها تقدم ، فتوقف في ذلك المشار إليه ، فجهاز خلفي كافل المملكة الشامية وقال : بلغني أن الأمير دَوَادار نصره الله توقف فيما سأله سوار على لسان الأمير تمتاز ، والرأي عندي أنه يسمع ذلك الكلام ولا يعرض عنه .

وكان قصد المقر الأشرف أمير دَوَادار أخذ قلعة زمנטوا وقبض سوار عنوة لا عن طلب أمان وصلاح ، فإن مروّته لا تطاوعه أن يعطي أماناً ثم يقبض عليه .

[ص ١٢٠] فبقي متحيراً ولا زالوا به إلى أن رضي بما سأله الأمير تراز / وهو أثقل عليه من الجبال الرواسي ، والله لقد شاهدت ذلك في وجهه مراراً ، ورأيت يكره ذلك كراهة تحريم ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات ، فحين رضي بما سأله تعين قبضه امتثالاً للمراسم الشريفة لأنها كانت وردت بذلك .

ولما كان نهار الثلاثاء ، حضر قاصد سوار يطلب نجاز ما وعد به الأمير نصره الله من نصب خيمته بالمكان المذكور ، فجهّز جماعة الفراشين ونصبوا خيمته في المكان المذكور ، وصعد إلى القلعة وفي صحبته من الأمراء المقدمين الأمير برسباي قرا ، ومن الأمراء العشراوات جماعة وكاتبه .

ولما وصل إلى الخيمة نزل بها وتبعه جماعة من الخاصكية فردّهم . وكان من جملة ما شرط سوار على أن لا يكون مع الأمير الدّوّادار أعز الله أنصاره سوى عشرة أو عشرين نفرأ . فلما رأى كثرة المتوجهين صحبة الركاب العالي جهّز من [ص ١٢١] القلعة نائبه جراق يقول : إنّ الإتفاق تم على عشرة / أو عشرين نفرأ ، وسأل الصدقات الكريمة في صرف غير العدد المذكور ، فرسم المشار إليه للحاضرين بأنهم ينزلوا لوطاقهم ، فنزل ناس وبقي آخرون ، وتكرر سؤال سوار في ذلك ، فأخذ المقرّ الأشرف بيده قوساً ورمى بعض الناس به ، وتفرق بعضهم يئساً ويسرة . فجاء قاصد ثان وثالث بأن المقيمين عنده كثير ، فتغير خاطره الكريم لذلك وطلب جواده وركب مغضباً ، ولحقه الأمير تراز وترامى عليه إلى أن ردّه ، فكان غيظه نصره الله موافقاً لسعده ، لأن سوار تحقق أنه لا يصيبه منه شيء ، لأن لو كان له غرض تام لصبر إلى أن يصل مقصوده .

فلما رجع بدخول الأمير تراز ومجلس في خيمته ، نزل سوار ومعه مقدار ثلاثين نفرأ من أعيان جماعته قد لبسوا دروعهم ، فرسم لي أن ألاقيه بظاهر الخيمة فلاقيته . فلما وصل إلى المقرّ المشار إليه ، دخل تحت ذيله وقبّل قدمه

المبارك / ثلاث مرات ومرتين فطيّب خاطره . وبش في وجهه وكلمه بكلام [ص ١٢٢]
أسكن روعه ، ثم طلب إفطاراً أعدّه لذلك المجلس فأخضّر وأكل معه ، وبقي
يحادثه ، ثم ذكر له أشياء صدرت منه على سبيل العتاب ، ثم طلب المشروب
فأسقاه ، ثم رسم بإحضار الخلعة المعدّة له فألبس .

ورسم بمركوب خاص بسرّج ذهب وقماش فأحضر فأركبه وقال : الواجب
أنك تنزل وتسلم على كافل المملكة الشامية ، فركب هو أيضاً ، ودقت البشائر
وكان وقتاً عظيماً ، ونزل وهو في خدمته إلى أن وصل إلى خيمته وسلّم عليه . ثم
توجه لوطاق نائب الشام ومعه الأمير تراز وكاتبه وجماعة من الأمراء العشراوات ،
إلى أن وصلنا لخيمة كافل المملكة الشامية ونزلنا ، فقام الكافل ولاقى سوار ،
وأجلسه عن شماله والأمير تراز عن يمينه ، ثم التفت إليّ وقال : إن الأمير دوادار
هو باش العساكر / وأنا تابعه مدة سنة وشهرين . وفي هذا اليوم واجب عليه أن [ص ١٢٣]
يتبعني فيما أشير به ، وقد ورد لي مرسوم شريف بذلك .

ثم قال لسوار : ما أنا في عينك بشر ، تحالفتم وحدكم وأكلتم وشربتم وحدكم ،
يا سبحان الله كذا يكون .

ثم قال له الأمير تراز خلّ هذا الكلام وهات ما عندك من الطعام
والشراب .

فقال : بسم الله . ثم نادى بأعلى صوته وهو يضحك : هاتوا الزنجير .

فظننت أنه يمزح . ثم قلعوا عنه خلعتة ، وقبضوا عليه وعلى جماعته الذين
نزلوا معه بعد أن قتل منهم أربعة أنفار امتنعوا عن القبض .

ولما رسم بالقبض قام الأمير تراز من مكانه وأراد المنع من الوصول إليه فنزع
هو من الوصول وربما ناله من بعض المماليك بما حصل به البهذلة ، ولم يُلْتَفَتْ إلى
كلامه .

[تولية شاه بذاق الإمارة الدلغادرية]

وفي ثاني يوم قبض عليه وهو يوم الأربعاء ، صعد السنجق السلطاني ونصب [ص ١٢٤] على قلعة زمنطوا . وفيه توجه الأمير قانباي صلق^(٢٤١) مبشراً / لمولانا السلطان خلد الله ملكه ، ودقت البشائر وألبس الأمير شاه بذاق بن سليمان بن دلغادر أخو سوار إمرة الدلغادرية على جاري عادة من تقدمه من أسلافه ، وتسلم القلعة ، وأنزل حريم سوار من القلعة وجواره وماله من القماش ، ولم يكن أحداً من التعرض لشيء من ذلك ، وسفرها الأمير تراز مع جماعته إلى بلاد الروم ، وكان ذلك خطأ عظيماً .

وفي يوم الخميس رحل العساكر المنصورة من قلعة زمنطوا ونزلوا بجانب قزلجا أرمق وأقام بها الخميس والجمعة .

وفي يوم السبت توجهت إلى الأمير بذاق وحلفته الأيمان الشرعية على العادة .

[الرحيل إلى درندة]

وفي يوم الأحد سلخ سنة ست ، رحل ونزل على مكان يسمى صاروز^(٢٤٢) بالقرب من جبل أوزكلي ، ثم رحل منها ونزل على عين أرتلو أبكار . ثم رحلنا منها وأصبحنا على قلعة خرمان ومرينا عليها من غير نزول إلى الظهر نزل المقر

(٢٤١) صلق : والصواب صولاق ، وهو جندي البريد السريع .

(٢٤٢) صاروز : لم نعثر على مكان اسمه صاروز . إلا أن الاسم القديم لنهر سيحان قبل الإسلام كان « سارس » فلا يبعد أن يكون ثمة مدينة قديمة على اسم النهر .

الأشرف بجانب النهر الواصل إلى جهان^(٢٤٣) وركب / منه وقت العصر [ص ١٢٥] جريدة^(٢٤٤) ، ومعه بعض أمراء وبعض ممالك لكشف قلعة درنده والنظر في أحوالها ، وركبت معه ونزل بعد العشاء على عين بجانب مزرعة خالية من السكان ورحل منها في الثلث الأخير .

ووصلنا إلى مدينة درنده قبل الظهر ، فرأيناها قلعة شاهقة وليس لها صور إلا في بعض أماكن قليلة جداً ، ولها باب وبرج فقط ، لكنها في غاية المنعة ، ويجري بأسفل منها نهر عظيم في غاية البرودة والحلاوة .

ودرنده بلدة صغيرة ، ولها بساتين وكروم ، وهي كثيرة الفواكه والخيرات ، وهي في واد ونحوها جبال من كل الجهات ، وأقمنا بها إلى قريب العصر ، ورحلنا منها ووصلنا إلى أبلستين في الثلث الأول من ليلة الخميس رابع شهر الله المحرم ، ورأينا الوطاق رحلوا فأقمنا إلى الصباح ثم رحلنا منها ونزلنا على النهر الأزرق ، ثم منه نزلنا برأس جبل تكلي بلي .

[رحلة العودة إلى حلب]

ثم نزلنا يوم الأحد على مدينة كينول^(٢٤٥) ثم منها / على عين ماء بالقرب من [ص ١٢٦] بلدة خالية من السكان . ثم سلكنا جبلاً وأودية إلى أن نزلنا على عين دلوک بالقرب من عينتاب ، ثم نزلنا عينتاب بكرة النهار .

ورحلنا منها بعد العصر ونزلنا بقرية نصقرغين ، فبلغ المقر الأشرف أن المقر الكريم قانصوه اليحياوي كافل المملكة الحلبية تخلف بأبلستين ، وما قصده

(٢٤٣) جهان : صحيحها جيحان وهو النهر المشهور في ولاية أضنة الذي مر ذكره .

(٢٤٤) جريدة : المقصود أنه سافر بسرعة .

(٢٤٥) كينول : الصواب كينوك وقد تقدم شرحها .

الإجتماع بالعساكر بحلب لأمر خاف منه وتخيله . وكان قبل ذلك جهّز كتاباً يحثه في سرعة الحضور ، فزاد خياله فرأى المصلحة في إطبابة خاطره وإزالة خياله وجهزني إليه ، وحلّقي مشافهة أديها له وأخوفه من عواقب الأمور ، وأن المصلحة في سرعة حضوره وإلى غير ذلك ، فكان ذلك من لطف الله فتوجهت إليه من زغزغن ووصلت إليه بأبلستين . فلما بلغه حضوري جهّز إليّ جماعة المهندارية ولاقوني . فلما قربت من أبلستين ركب وبقية العسكر الحلبي ولاقوني وتوجهت معه إلى مخيمه ، وتكلمت معه فيما فيه صلاح حاله ، وصرحت بأنه لا بد / من حضوره واجتماعه بالعساكر المنصورة ، ولا زلت به أكرر معه الكلام إلى أن رضي بالتوجه معي إلى حلب . وبات جميع العسكر تلك الليلة في أترّ حال فإنهم كانوا قطعوا إياسهم منه ، وربما كان قصد منهم جماعة للتسحب واللحق بالعساكر المنصورة ، وكان ذلك بهدلة عظيمة لعسكر الإسلام بعد هذا الفتح المبين . فالله ستر الإسلام برجوعه عما قصده من خوفه والله الحمد .

ونصب تلك الليلة صيواناً وأنزلني أحسن منزل ، وبعث الأسمطة وجهز لي بغلة بيضاء كان يحبها في الغاية . ثم رحل من أبلستين وأنا في خدمته إلى أن وصلنا إلى كينول ، ففارقته بعد أن ألبسني كاملية مفرية سموراً طرشاً .

ووصلت إلى حلب نهار الجمعة خامس عشرين شهر الله المحرم سنة سبع وسبعين وثمان مئة .

ودخل كافل المملكة الحلبية نهار الاثنين ثامن عشرينه ، فلاقاه المقرّ الأشرف [ص ١٢٨] أمير دؤادار أعز الله أنصاره بشاش وقشاش / ونزل بالميدان الأخضر وكان نائب الشام نازلاً به .

[المراسيم السلطانية بالتعيينات الجديدة]

وكان حضر مقدم الهجانة من الأبواب الشريفة ، ومعه مراسيم شريفة بتولية الأمير دولات باي الخازندار [نيابة] ملطية ، والأمير جانم الخازندار المشهور بخازندار نائب جدة في نيابة عينتاب ، والأمير يلبغا في نيابة إياس ، والأمير إينال الحكيم في أمرة الكبرى بطرابلس ، والأمير دولات باي النجمي في أمرة الكبرى بحلب ، فقرئ المرسوم الشريف وأُخلع على الجميع .

ثم توجّه المَقَرُّ الأشرف باش العساكر المنصورة والجميع في خدمته ، وركب نائب الشام ونائب حلب ، ودخلوا لمدينة حلب ، وأوصلوا كافلها لدار العدل بها ، فكان يوماً مشهوداً .

وفي يوم الأربعاء أمر باش العساكر المنصورة بإجهار النداء بأنهم يحضروا لقبض جوامكهم ، وأذن للمَقَرِّ الكريم برساي قرا بأن يتوجه مع مضافيه أولاً على عادته ، فرحل يوم الخميس ثاني شهر صفر الخير بمن معه .

[رحلة العودة من حلب]

ثم رحل الأمير خايرباك / يوم الجمعة بعد الصلاة ، ورحل الأمير تراز يوم [ص ١٢٩] السبت ، وفي بكرة نهار الاثنين رحل كافل المملكة الشامية في أهبة عظيمة ، وأنزل شاه سوار من القلعة وتسلمه على بابها وتوجه ، وكان يوماً مشهوداً .

وفي بكرة نهار الثلاثاء رحل المَقَرُّ الأشرف أمير دوادار حرسه الله ونصره ، ونزل بالعين المباركة وأقام . ورحل يوم الأربعاء ووصل إلى حماة بكرة نهار



صورة قلعة شيزر

الجمعة ، وأقام بها السبت وخلع على نائبيها والأمير كبير بها وعلى الأمير محمود بن سقلسيز نائب شيزر^(٢٤٦) وأخيه وعلى نائب طرابلس وأمير كبير بها إينال الحكيم .

ثم رحل بكرة نهار الأحد ونزل بالرستن ثم منها إلى حمص بكرة نهار الاثنين خامس عشر شهر تاريخه ، ثم رحل منها يوم الثلاثاء وضحى بخان منجك^(٢٤٧) وبات بمدينة قارا ، ثم صلى الصبح بها ورحل ونزل بالنبك .

[الأمير يَشْبَك في دمشق]

وفيه وصل الأمير خشكدي الظاهري الحشقدمي أحد المقدمين الألوفا كان بالقاهرة . ثم رحل منها وقت العشاء ونزل بالقطيفة / صبيحة نهار الخميس . [ص ١٣٠] وفيه وصل الأمير شادبك الجلباني أمير كبير الشام والقاضي ناظر الجيش ابن المزلق وأقام بها إلى العصر ورحل منها فلاقاه كافل المملكة الشامية . وكان قد سبق حمله وصحبته أولاده والقاضي قطب الدين الخضيري ، ونزل بمصطبة السلطان^(٢٤٨) خارج دمشق المحروسة بالقرب من القابون بعد العشاء وأصبح يوم الجمعة مقيماً بها ، فهرع أهل دمشق للسلام عليه .

(٢٤٦) شيزر : قلعة عربية حصينة على جبل الزاوية المشرف على نهر العاصي تقع إلى الشمال الغربي من حماة (انظر موقعها على المصور ٤) .

(٢٤٧) خان منجك : لا أثر لهذا الخان اليوم ، ولعله خان حسيا .

(٢٤٨) مصطبة السلطان : كان لدمشق في العصر المملوكي طريقان عظيمان ، أحدهما طريق مصر وهو أعظمها ، فإذا قدم السلطان أو النائب إلى دمشق صحبتها المواكب الرسمية حتى قبة يلبغا في قرية القدم - وقد انغى أثرها - جنوب دمشق .

والطريق الآخر طريق حلب ، وكان في سهل القابون إلى الشمال من دمشق صفة ساجها أهل دمشق مصطبة السلطان ، بقي أثرها إلى ما قبل نصف قرن ثم هدمت وسويت ، وكان السلطان أو النائب إذا كان قادماً إلى دمشق أو ذاهباً منها إلى جهة حلب تصحبه المواكب الرسمية إلى هذه المصطبة .

وفي نهار السبت ثامن عشر شهر تاريخه ، ألبس كافل المملكة الشامية مماليكه
وبالغ في ذلك إلى أن ظن أن طلبه لا يشبهه شيء ، وكان نصره الله عبى تلك
الليلة طلباً ما شوهد مثله من مثله وترتيباً عجيباً ، فلما مر طلب كافل المملكة
الشامية ، مشى طلب المشار إليه ، فلما شاهد كافل المملكة الشامية ذلك ظهر أثر
الحجل في وجهه ، ودخل دمشق وكافل المملكة الشامية عن يمينه والأمير إينال
[ص ١٣١] الأشقر عن يساره ، وبقية الأمراء والقضاة مينة ويسرة ، وتغالى الناس / في كري
أماكن الفرجة ، وبنوا مصاطب وأمكنة صرف عليها جملة ، كل ذلك رغبة لرؤية
سوار في تلك الحالة . فلما وصل الموكب لتجاه القلعة ، حضر نائب القلعة ومن
معه من تقيب القلعة والبحرية ، فتسلموا سوار وإخوته الأربعة ، وأولاد قرا
وخليل بن بوزجا وثلاثة عشر نفرأ من أعيان جماعة سوار .

ثم رجع المقر الأشرف باش العساكر المنصورة إلى مخيمه الكريم بالميدان
الأخضر^(٢٤٩) ، ونزل بالقصر ومد له كافل المملكة الشامية سماًطاً عظيماً ، وأقام
بدمشق إلى نهار الاثنين ، عمل كافل المملكة الشامية ضيافة عظيمة ، وعزم على
جميع المقدمين وهم : المقر الأشرف أمير دَوَادار ، والأمير إينال الأشقر رأس نوبة
النوب ، والأمير تمتاز الأشرفي ، والأمير برسباي قرا ، والأمير جانم الزردكاش ،
وبعض أمراء من العشراوات ، وكان مجلساً حافلاً ، وخلع على المقر الأشرف أمير
دَوَادار أعز الله أنصاره كاملية تمساح بفرو سمور / وطراز زنته ألف مثقال ، وعلى
[ص ١٣٢] بقية المقدمين بكوامل طرش سمور ، وعلى الأمير جانم الزردكاش بكاملية ، ولي
كاملية ، وجهز لكل من المذكورين مقدمة تليق به ، وقام في إكرام العسكر
المنصور أتم قيام . ويكفيك من وصفه أنه لم يسبقه أحد بمثله .

وفيه وصل الأمير جانم الدوادار بخدمة المقر الأشرف باش العساكر المنصورة

(٢٤٩) الميدان الأخضر : يقع إلى الغرب من متحف دمشق الحالي بين نهري بردى وبانياس ويقام فيه
معرض دمشق الدولي .

والقاضي شرف الدين بن غريب استادار الديوان الشريف ومهما^(٢٥٠) بطيخ صيفي وسكر وحلاوة وعشرة أجمال من ماء النيل ، ففرق جميع ذلك على العساكر المنصورة ، وعلى كافل المملكة الشامية وأمرائها ومباشرها حتى لم يدع لنفسه من ذلك البطيخة الواحدة مع كره ذلك ، فانظر إلى هذا الكرم النفس الذي أعطاه الله تعالى .

[العودة إلى القاهرة]

فرحل يوم الثلاثاء الأمير برسباي قرا ، ثم رحل الأمير خايرباك يوم الأربعاء ، والأمير تمتاز يوم الخميس ، والأمير إينال الأشقر بكرة نهار الجمعة ، والمقر الأشرف باش العساكر المنصورة رحل يوم الجمعة / ، واستمر يرحل وينزل [ص ١٣٣] من منزلة لأخرى إلى أن وصل إلى الصالحية نهار الأربعاء ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثمان مئة .

وفيها وصل الأمير قانباي صلق ومعه فرس بقماش وذهب من المقام الشريف خلد الله ملكه ، ورحل منها ونزل بالخطارة^(٢٥١) ، ودخل المقر الأشرف الوطاق وهو راكب الفرس بالقماش الذهب ، ثم رحل منها ونزل بمدينة بلبيس . وفيها وصل لملاقة المقر الأشرف باش العساكر المنصورة أركان الدولة كالقاضي كاتم الأسرار والدوادار الثاني والقاضي ناظر الجيوش المنصورة ، ولم يتخلف أحد سوى المقدمين الألوف ، ثم رحل منها ونزل بخانتقاه سرياقوس ، وبها وصل القضاة الأربع وغيرهم من الأعيان . ثم رحل منها صبيحة نهار الأحد سابع عشر شهر تاريخه ونزل بالريدانية ، وتلقاه المقدمين إلى المطرية ، وأقام بها / إلى صبيحة [ص ١٣٤] الاثنين ثامن عشره ، دخل المقر الأشرف باش العساكر المنصورة ونظام الملك

(٢٥٠) ومهما : كذا في الأصل والصحيح ومعهما .

(٢٥١) الخطارة : التعليقة رقم (٩٥) .

الشريف والعسكر في خدمته من باب النصر . كما توجه منه مسروراً بما منحه الله من النصر العظيم والظفر بالعدو .

[الدخول إلى القاهرة والاحتفال بالنصر]

فأول الأطلاب كان طُلب الأمير برسباي قرا أحد المقدمين الألوف ، ويتلوه طلب الأمير تراز الشمسي العزيزي الأشرفي ، ثم يتلوه طلب الأمير إينال الأشقر رأس النوبة النوب ، ثم طلب المقر الأشرف باش العساكر الإسلامية ، ثم المقر الأشرف وبقية الأمراء والمقدمين المسافرين ، وعلى رأسه الشطفة السلطاني ، وأمامه سوار الخدول وبقية إخوته وأمرائه .

واصطف الرجال والنساء والولدان من مخيمه بالريدانية إلى القلعة ، وتكاثرت الخلائق في الطرقات وازدحمت ، والمدينة زينت ، والألسن بالدعاء قد انطلقت . [ص ١٣٥] وعلى المقر الأشرف باش العساكر المنصورة الخلعة التي خلعها عليه كافل المملكة الشامية ، والمقدمين كذلك ، ما خلا الأمير تراز الشمسي فإنه لم يلبس الخلعة ، وكان يوماً مشهوداً . وعلى سوار الخدول قباء مخمل أحمر مزنر مذهب . ومر على داره من مدرسة ألاجاي اليوسفي .

وقد احتفل السلطان بالموكب في القصر الأبلق بقلعة الجبل ، وعمل الموكب صفين من باب البيمارستان العتيق الذي تحت الصوة إلى القصر المذكور فدخل المقر الأشرف باش العساكر المنصورة إلى القصر وفي خدمته الأمراء ، وقبلوا الأرض بين يدي المقر الشريف خلد الله ملكه وعزه ونصره ، فرحب بهم وأكرمهم ودعى لهم وشاوروه على سوار ، فلم يأذن له بالدخول . ثم خلعوا الخلع التي عليهم ليلبسوا خلع السلطان .

ثم انتقل مولانا السلطان خلد الله ملكه / إلى الإيوان الناصري الذي كان أشرف على الدثور والخراب ، بل صار معداً لرمي التراب . جده وزهره مولانا

السلطان خلد الله ملكه ، فصار في غاية ما يكون من الحسن والنضارة ، فجلس على رأس السلام من الإيوان المذكور ، وقد نصبت على رأسه سحابة من الذهب الإبريز ، في غاية الابتهاج والتعزيز ، وفرش تحت السلام زوج بسط ، ووقف الأتابكي أربك من الجانب الأيمن ، ثم بقية الأمراء على العادة ، ثم حضر الأمراء المسافرين ، فقبلوا الأرض وعليهم الخلع السلطانية .

[سوار بين يدي السلطان]

ولما تكامل هذا الأمر حضر شاه سوار المخدول ، فلما قرب منه رسم أن يتوجهوا به إلى الحوش السلطاني ، فجلس مولانا السلطان خلد الله ملكه على الدكة تحت المقعد السلطاني ، ووقف الأمراء أيضاً في مراتبهم ، فحضرُوا المسافرون ولم يقبلوا / الأرض وأحضر سوار المخدول وإخوته وجماعته وبقية [ص ١٣٧] المسوكين وكذا أخويه المسجونين بالبرج .

فلما قبّل سوار الأرض قال له السلطان خلد الله ملكه : أهلاً ومرحباً . وكله كلمات ، ثم أخروه ، ونزل المقر الأشرف باش العساكر المنصورة والأمراء في خدمته ما خلا الأمير تراز الشمسي أحد المقدمين فإنه لم يركب في خدمته لما تقدم .

[إعدام سوار وجماعته]

فلما نزل الأمراء من القلعة رسم مولانا السلطان خلد الله ملكه ، أن يشنكل سوار وإخوته الثلاثة بباب زويلة ، والثلاثة بباب النصر ، ويوسطوا جماعته هناك ، فركبوا جمالاً فسمّروا جميعاً ما خلا سوار ، فإنه أُرْكِبَ هجيناً وفي رقبته في أعلى الجنزير حديدة طويلة وفيها جرس ، فلما وصلوا إلى باب / زويلة ، [ص ١٣٨] فبطح سوار أولاً وشنكل ، ثم كاور يحيى ، ثم أردوانه ، ثم خداداد ، ووقعت

الشفاعة في الثلاثة من إخوته وهم : عيسى ويونس وسالم ، الذي كان رسم بشنقهم في باب النصر ، فأنزلوا من الجبال ، فوسطوا الباقي وهم : اثني عشر نفرأ ، واستمر سوار المخدول وإخوته المشنكلين معه معلقين والخلائق يزدهمون للتفرج عليهم ، وهم يستغيثون فلا يغاثون ما خلا شاه سوار فإنه ساكت ساكن ومات سوار في آخر يومه .

فلما كان يوم الثلاثاء تاسع عشره ، صعد المقر الأشرف الأمير دَوَادار إلى القلعة ، واجتمع بولانا السلطان ، ثم نزل وجاز من باب زويلة ، ليعود المقر الأشرف السيفي ثم الحمدي أمير حاجب الحجاب لضعف كان عرض له بعد أن تكلم مع مولانا السلطان في إطلاق أردوانه الأحب / أخو سوار ، فلما وصل إلى باب زويلة وجد سواراً ميتاً . [ص ١٣٩]

ثم إن أردوانه شكا له وتضرع فرسم للوالي بإطلاقه ، فأطلق في الحال ، وتوجهوا به إلى بيت صاحب الشرطة فسقاه وأطعمه ، وطلب له المزينين ليصلحوا حاله بالعلاج فمات في ليلته .

وفي يوم الأربعاء أنزلوهم وغسلوهم وكفنوهم وصلي عليهم ودفنوهم بمقابر المسلمين . وأراح الله البلاد والعباد منهم بفضله ومنه .

والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً وحسبنا الله تعالى فنعم الوكيل .

[استنسخت هذه الرحلة السياسية بطريق الفتوغرافية لنفسني من الكتاب (نمرة ٢٦٨) المحفوظ بالمكتبة السلطانية بسراي طوب قبو بالقسطنطينية في يوم ٢٥ رمضان سنة ١٣٢٧ و ٩ أكتوبر سنة ١٩٠٩ .

أحمد زكي

سكرتير ثاني مجلس النظار المصري [

نصوص وإضافات على الرحلة

٢

طمع الدول المجاورة بالممالك ونهاية يَشْبَك الدوادار

- تحرش حسن الطويل بالممالك .
- إرسال تجريدة لحربه وانسحابه من الحدود .
- تعيين يَشْبَك الدوادار لتأديب أمير عرب آل الفضل .
- طمعه في الاستيلاء على بلاد حسن الطويل .
- نهايته وهزيمة جيشه .

طمع الدول المجاورة بالمماليك ونهاية يَشْبَك الدوادار

تحرش حسن الطويل بالمماليك^(٢٥٢)

في رمضان سنة ٨٧٦ هـ^(٢٥٢) قدم إلى القاهرة قاصد من عند حسن الطويل ، وعلى يده هدية للسلطان قايتباي ومكاتبة فيها أشياء سرية ، فلم ينشرح السلطان لقدم هذا القاصد ولم يُعلم ما في المكاتبة .

وفي جمادى الأولى سنة ٨٧٧ هـ ، جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن حسن بك الطويل ملك العراقيين ، قد جمع من العساكر ما لا يحصى ، وهو زاحف على بلاد السلطان ، وقد بعث ولده محمداً مع عسكر ثقيل وصل إلى الرها . فكثر التَقْوُل بين الناس بسبب ذلك إذ لم يكن قد مضى أكثر من أشهر معدودة على عودة العسكر وانتهاء فتنة سوار حتى ظهرت فتنة حسن الطويل . فقلق السلطان والعسكر لهذا الخبر .

تعيين تجريدة لرد حسن الطويل

وفي جمادى الآخرة عين السلطان تجريدة إلى حسن الطويل ، وعين بها من الأمراء المقدمين ثلاثة وهم جاني بك قلقسيز أمير سلاح ، وسودون الأفرم ، وقراجا

(٢٥٢) جمعت معلومات هذا الملحق والذي يليه من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس .

(٢٥٣) بمقارنة هذا التاريخ مع مغادرة القاضي ابن أجا تبريز في ٢٠ ربيع الآخر سنة ٨٧٦ هـ يكون قد مضى أكثر من أربعة أشهر على مقابلة القاضي لحسن الطويل .

الطويل الإينالي ، وعدة من الأمراء الطبليخانات والعشرات ، ومن الجند نحو خمس مئة مملوك ، وأنفق عليهم وأمرهم بالمسير إلى حلب بسرعة من غير تأخير .

رسائل تهديد من حسن الطويل

وفي جمادى الآخرة أيضاً ، جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر حسن الطويل قد استولى على كختا وكركر ، وبعث مكاتبة مكتوبة بماء الذهب إلى شاه بضاع صاحب الأبلستين ، بأن يسلم إليه القلاع التي حوله ، ولا يخرج عن طاعته ، وأرسل له في المكاتبة ألفاظاً مزعجة بما معناه ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ ثم هدّده في مكاتبته بأنه متى خالفه يحصل له منه ماهو « كيت وكيت » . فأرسل شاه بضاع المكاتبة للسلطان ، فلما قرأها السلطان وعلم مافيها انزعج لذلك وتأثر .

وفيه أيضاً أرسل نائب الشام مكاتبة حسن الطويل إلى السلطان ، وكان أرسل يهدده في هذه المكاتبة ويأمره بأشياء عديدة ، وكتب في صدر المكاتبة ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ فانزعج السلطان لهذا الخبر .

التجريدة الكبرى لقتال الطويل

ثم عيّن السلطان الأمير يَشْبَك الدوادار باش العساكر ، وعيّن تجريدة أعظم من الأولى التي عينها قبل ذلك : فعين بها من الأمراء المقدمين : يَشْبَك الدوادار ، وإينال الأشقر ، وبرسباي قرا ، ومن الأمراء الطبليخانات والعشرات عدة وافرة ، وكتب من الجند فوق ألفي مملوك . ثم أنفق عليهم وأخذوا في أسباب الخروج إلى السفر ، فخرجت التجريدة الأولى قبل ذلك ، وكان باش عسكرها جاني بك قلقسيز أمير سلاح ومن معه من الأمراء .

فلما رحل من الريدانية خرج الأمير يَشْبَك ومن معه من الأمراء ، فرُجَّت لهم القاهرة وكان لهم يوم مشهود .

وفي رجب سنة ٨٧٧ هـ رحل الأمير يَشْبَك هو وعسكره من الريدانية ، وكان مصروف السلطان على هذه التجريدة فيما أنفقه مبلغ أربعمئة وعشرين ألف دينار خارجاً عن أشياء كثيرة بعثها للأمراء . فلما وصل يشبك إلى الخانقاه^(٢٥٤) نزل إليه السلطان وودّعه هناك ، واجتمع إليه في خلوة ، وعرض عليه مكتبة حسن الطويل التي بعثها إلى نائب الشام .

وفيه حضر قاصد نائب حلب ، وأخبر أن نائب حلب قبض على عثمان بن أغلبك وشخص آخر كان استاداراً على مقدمة حسن الطويل التي كانت بحلب ، وقبض على جماعة آخرين نحو أربعين نفرأ نسب إليهم المواطأة مع حسن الطويل ، وكانوا يكتبونه بأخبار المملكة ، فأمر نائب حلب بشنقهم .

وفي شهر رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يَشْبَك الدوادار دخل إلى حلب وكان له يوم مشهود ، فلما استقر بحلب قدم عليه قاصد من عند حسن الطويل وعلى يده مكتبة يطلب فيها فك أسر جماعته الذين أسروا وسجنوا بحلب مقابل إطلاق سراح ما عنده من الأسرى ، وكان عنده دولت باي النجمي الذي كان نائب ملطية وجماعة آخرون ، فلم يلتفت إليه يَشْبَك ولا أجابه عن ذلك بشيء .

تعيين جاني بك قلقسيز نائباً للشام

وفيه أرسل السلطان خلعتين : إحداها إلى جاني بك قلقسيز أمير سلاح بأن

(٢٥٤) يقصد بها الخانقاه السرياقوسية - راجع التعليقة رقم ٧٤ .

يستقر في نيابة الشام^(٢٥٥) عوضاً عن برقوق^(٢٥٦) بحكم وفاته ، وكان المشار إليه بالتجريدة ، فاتجه إلى الشام واستقر بها ، وأما الخلعة الثانية فبعث بها إلى إينال الأشقر بأن يستقر في أمرية السلاح عوضاً عن المذكور .

وفي ذي القعدة جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يَشْبَك بعث جماعة من العسكر إلى البيرة لقتال عسكر حسن الطويل ، وقد بلغه أن حالهم تلاشى إلى الفرار ، وأن حسن الطويل أرسل يكاتب الإفرنج على قتال المسلمين ليعينوه .

السلطان محمد الفاتح يعرض المساعدة

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان ملك الروم أرسل قاصده إلى الأمير يشبك بأن يكون عوناً للسلطان على قتال حسن الطويل ، فأكرم القاصد وأرسل صحبته القاضي شمس الدين بن أجا قاضي العسكر ، بأن يتوجه إلى ابن عثمان ، وعلى يده هدية حافلة ومكاتبة بأن ينشئ بينه وبين السلطان مودة بسبب أمر حسن الطويل .

(٢٥٥) جاني بك قلقسيز : تولى نيابة دمشق أثناء رحلته مع يَشْبَك الدَوَادار لحرب حسن الطويل ودخل دمشق في الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ٨٧٨ هـ وبقي فيها حتى وفاته سنة ٨٨٢ هـ ودفن بتربة أنشأها في باب الصغير (راجع إعلام الوري بن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى لابن طولون تحقيق محمد أحمد دهمان) .

(٢٥٦) برقوق : هو برقوق الظاهري ، تولى نيابة دمشق ودخلها في السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٨٧٥ هـ ورافق يَشْبَك الدَوَادار في حملته ضد شاه سوار ، وهو الذي غدر به وألقى القبض عليه ، ثم خرج مع يَشْبَك الدَوَادار في حملته ضد حسن الطويل سنة ٨٧٧ هـ وتوفي أثناء ذلك ، ويقول ابن طولون في إعلام الوري : إنه قد دُسَّ عليه السم في عنب أكله فسقطت عظامه ومات ، ودفن بالصوة في القاهرة سنة ٨٧٧ هـ .

انتصار الأمير يَشْبَك على عسكر الطويل

وفيه وصل إلى السلطان مكاتبة من عند ابن الصَّوَّاء^(٢٥٧) من حلب يخبر فيها بأن الأمير يَشْبَك قد انتصر على عسكر حسن الطويل ورحلهم عن البيرة ، وأن ولد حسن الطويل قد جرح جراحات بالغة ، وآخر من أولاده أصيب في عينه ، ووقع بين الفريقين مقتلة شديدة ، وقتل في المعركة شخص من الأمراء العشرات يقال له قرقاس المصارع المعروف بالعلائي أمير آخور رابع ، وكان إنساناً حسناً ديناً خيراً موصوفاً بالشجاعة والفروسية ، علامة في رمي النشاب والصراع ، أصيب بسهم في صدغه فمات لوقته ، ولم يقتل في هذه المعركة أحد سواه .

ثم رحل عسكر حسن الطويل من البيرة وقد خذلهم الله تعالى بعد ما عدوا من الفرات وطرقوا البلاد الحلبية من أطرافها فردهم الله تعالى عن المسلمين . وقد قالت الشعراء في هذه النصرة عدة مقاطع . فمن ذلك قول شمس الدين القادري :

أيما حسن الطويل بعثت جيشاً كأغنام وهنّ لنا غنائم
فنازل الحرب قد سبكت سواراً وأنت لسبكها لا شك خاتم

محاولة حسن الطويل التحالف مع الفرنج

وفي شهر ذي الحجة سنة ٨٧٧ هـ قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقد أتى من جهة البحر ، فأكرمه السلطان وأحضر صحبته مكاتبة حسن الطويل إلى ملوك الإفرنج بأن يمشوا على ابن عثمان وسلطان مصر من البحر وهو يمشي عليهم من البر^(٢٥٨) وقد ظفر هذا القاصد بقاصد حسن الطويل وهو ذاهب نحو

(٢٥٧) ابن الصَّوَّاء : هو محمد بن حسن بن الصَّوَّاء الحلبي وكيل السلطان بماردين .

(٢٥٨) في كانون الأول سنة ١٤٦٣ م وافق مجلس الشيوخ البندقي على خطة التحالف مع أوزون حسن (حسن الطويل) وأرسل كويريني إلى بلاد فارس لتنفيذ هذا الغرض . وفي ٣ آذار (مارس) =

بلاد الإفرنج فقبض عليه في أثناء الطريق وهو في مركب وأسره ، ثم إن القاصد أقام بمصر أياماً ، وأذن له بالسفر وخَلَعَ عليه .

حجاج حسن الطويل يشيرون الفتنة في الديار المقدسة

وفيه أيضاً حضر مبشر الحاج إلى القاهرة ، وأخبر بأنه لما وصل المحمل العراقي ودخل المدينة الشريفة ، كان أميرهم شحص يقال له رستم ، وصحبته قاض يقال له أحمد بن وجيه ، فضيقوا على قضاة المدينة وأمروهم بأن يخطبوا في المدينة باسم الملك العادل حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين .

فلما خرجوا من المدينة وقصدوا التوجه إلى مكة ، كاتبَ أهل المدينة أمير مكة بما وقع منهم ، فخرج إليهم الشريف محمد بن الشريف بركات ولاقام قبل أن يدخلوا إلى مكة وقبض على رستم أمير ركب المحمل العراقي ، وقبض على القاضي الذي صحبته وعلى جماعة من أعيانهم وأودعهم في الحديد ليبعثهم إلى السلطان ثم أطلق بقية من كان في ركبهم من الحجاج ولم يتعرض لهم .

وفي الشهر الحرم سنة ٨٧٨ هـ وصل الحاج وصحبته ابن أمير مكة والقاضي برهان الدين بن ظهيرة الشافعي وولده أبو السعود وأخوه ، وأحضروا صحبتهم رستم أمير الحاج العراقي والقاضي ، اللذين بعث بهما حسن الطويل وصحبتهما كسوة الكعبة المشرفة ، وأمر أهل المدينة والكعبة بأن يخطبوا فيهما باسم العادل حسن الطويل . فسجن السلطان رستم والقاضي في البرج الذي بالقلعة .

وفي ربيع الأول ، أطلق السلطان رستم أمير الحاج العراقي ، وأطلق القاضي الذي في صحبته ، وخلع عليهما وبعثهما إلى بلادهما ترضياً لخاطر حسن الطويل . وقد أشار بذلك الأمير يَشْبُك الدوادار .

= ١٤٦٤ م وصل أول مبعوث من قبل أوزون حسن يدعى مامنازب إلى البندقية وأمضى بها ستة أشهر وفي عام ١٤٦٥ م وصل قاسم حسن وببده رسالة من أوزون حسن .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان بعث عسكرياً لمحاربة حسن الطويل ،
فسر السلطان بذلك .

عودة الأمير يَشْبَك إلى القاهرة

وفيه حضر من الجند جماعة كثيرة ممن كان في التجريدة صحبة الأمير يَشْبَك
الدوادر ، فلما حضروا اختفوا بالقاهرة ولم يظهروا .

وفيه كان دخول الأمير يَشْبَك إلى القاهرة وقد عاد من التجريدة ، فكان
يوم دخوله يوماً مشهوداً ، فخلع عليه السلطان ، ونزل إلى داره في موكب
حافل .

وفي الشهر المحرم سنة ٨٧٩ هـ ، قدم قاصد حسن الطويل وعلى يده مكتابة
تتضمن الاعتذار عما كان منه ، وأن ذلك لم يكن باختياره ، فأكرم السلطان ذلك
القاصد وأظهر العفو عما جرى منه .

وكان قد أشيع عن حسن الطويل أنه قتل . وأظهر بعض التركان قيصه وهو
ملطخ بالدم . ثم ظهر كذب هذه الإشاعة ، وقد ذكر موته غير ما مرة ثم يظهر
أنه كذب .

ابن حسن الطويل يستعدي المماليك على أبيه

في ربيع الآخر سنة ٨٨٠ هـ ، جاءت الأخبار من حلب بأن أغرولو بن
حسن الطويل قد وقع بينه وبين أبيه خلاف ، وبعث يستنجد بنائب حلب على
أبيه ، فجهز نائب حلب جماعة من عساكر حلب ، وجعل عليهم باش إينال
الحكيم أتابك حلب ، وجانم السيفي ، وجاني بك نائب جدة وكان يومئذ نائب
البيرة ، ودولات باي المحوجب ، وآخرين من أمراء حلب ، فلما خرجوا إلى
عسكر حسن الطويل تقاتلوا معهم ، فانكسر عسكر حلب ، وجرح أغرولو

جرحاً بليغاً ورجع إلى حلب في خمسة أنفار وفقد إينال الحكيم في المعركة وأسر دولات باي وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة .

فلما بلغ السلطان هذا الخبر تشوش له ، وعيّن جماعة من الأمراء منهم الأتابكي أزيك ، ويشبك الدودار ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وبرسبای قرا ، وخاير بك من حديد ، ووردبش . وعيّن من الأمراء الطبليخانات والعشرات عدة وافرة ، وأمرهم بأن يتجهزوا ويكونوا على يقظة حتى يرد عليهم من أمر حسن الطويل ما يكون ، فاضطربت أحوال العسكر .

فبينما هم على ذلك ، ورد كتاب من ابن الصوّا يخبر فيه بأن عسكر حسن الطويل عاد إلى بلاده ولم يحصل منه ضرر ، فانشرح السلطان لهذا الخبر وبطلت التجريدة التي تعينت إلى حسن الطويل .

وفي جمادى الأولى سنة ٨٨٠ هـ ، وصل القاضي شمس الدين بن أجا قاضي العسكر ، وكان قد توجه قاصداً إلى حسن الطويل ، فأخبر بأن الطاعون قد هجم على بلاده ، ومات من عسكره ما لا يحصى ، وقد تلاشى أمره ، فسّر السلطان بهذا الخبر .

وفيه قدمت إلى القاهرة زوجة حسن الطويل أم ولده محمد أغرولو ، تستجير لولدها محمد بالسلطان بأن يشفع له عند أبيه ويصلح بينهما ، فلما قدمت أكرمها السلطان وأنزلها بدور الحرم .

الحملة إلى حماة ونهاية يَشُبَك الدوادار

في صفر سنة ٨٨٥ هـ جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة بحماة ، قتل فيها نائب حماة أزدمر من أربك قريب السلطان ، وسبب ذلك أن سيف أمير آل فضل خرج عن الطاعة ، فحاربه أزدمر نائب حماة فقتل في المعركة وقتل معه جماعة من أمراء حماة ، فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفي ربيع الأول عيّن السلطان الأمير يَشُبَك الدوادار للخروج إلى حماة ، وعين معه من الأمراء المقدمين : برسباي قرا ، وتاني بك قرا ، وعدة من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، وعدة وافرة من الجند . وهذه السفارة كانت آخر العهد بالأمير يَشُبَك ولم يعد منها إلى مصر وكذلك الأمراء الذين خرجوا معه .

وكان الأمير يَشُبَك قد سأل السلطان بنفسه الخروج بهذه المهمة إذ كان له غرض خاص بالسفر إلى حماة ومنها إلى ديار بكر . ذلك أن خلافاً قد وقع بين يَشُبَك وبين جلبان السلطان بسبب جاتم الشريفي ، وقد اتهم بأنه سمّه سمّاً بطيئاً فحصل بينهم تهديد ، وقصدوا قتله غير مرة . فحسن له بعض الأعاجم أن مملكة حسن الطويل سائبة وأن العسكر مختلف على ابنه يعقوب ، ومتى حاربهم لا يستطيعون الصمود أمامه ، ويتسلم مملكة العراق قاطبة . فانصاع الأمير يَشُبَك لهذا الكلام ، وسأل السلطان السفر بنفسه ، حتى يجعل الله لكل شيء سبباً لنفوذ القضاء والقدر كما قيل في المعنى :

أَتَطْمَعُ مِنْ لَيْلَى بِوَصْلٍ وَإِنَّمَا تَقَطُّعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ الْمُطَامَعِ

فلما عيّن السلطان الأمراء ، وعرض بعد ذلك الجند وكانوا نحو خمسمائة مملوك أنفق عليهم ، وأمرهم بسرعة التجهيز والخروج صحبة الأمير يَشْبَك ، فبلغت النفقة عليهم زيادة عن المئة ألف دينار .

وفي ربيع الآخر خرج الأمير يَشْبَك الدَوَادار إلى التجريدة من غير طلب لذلك . وكان عليه خدمة زائدة ، فتفائل الناس بعدم عودته إلى مصر وكذا جرى . وكان الناس يقولون : خرج لسيف وكان هذا فالأ عليه .

وفي رجب من السنة نفسها جاءت الأخبار بأن الأمير يَشْبَك الدوادار لما دخل الشام أخذ معه نائب الشام قانصوه اليحياوي ، وتوجه إلى حلب ، وأن قانباي صلق توفي بحلب ، وكان صحبة الأمير يَشْبَك وهو من ممالك شادبك الجكمي ، ارتقى حتى أمير طبلخاناه ، ورأس نوبة ، وكان لا بأس به ، ورأى غاية العز في دولة الأشرف قايتباي .

الأمير يَشْبَك يحاصر مدينة الرها

وفي شوال سنة ٨٨٥ هـ جاءت الأخبار من الرها بوقوع كائنة عظيمة طامة قتل فيها الأمير يَشْبَك الدوادار وانكسر العسكر قاطبة ، وقتل الأكثر منهم .

وكان سبب ذلك أن الأمير يَشْبَك لما دخل إلى حلب كان صحبته نائب الشام ، ونائب حلب ، ونائب طرابلس ، ونائب حماة ، والعسكر الشامي والحلي والمصري ، وغير ذلك من العساكر .

فلما استقر بحلب بلغه أن سيف أمير آل فضل الذي خرج بسببه ، فرّ وتوجه نحو الرها فقوي عزمُ الأمير يَشْبَك بأن يُعَدِّي من الفرات ، ويتبع سيفاً في أي مكان فيه ، فكان كما قيل في المعنى :

وكم من طـالب يسعى لشيءٍ وفيه هلاكه لو كان يدري

فعدى من الفرات هو والعساكر ، فاجتمع معه فوق العشرة آلاف إنسان ، فلما عدى توجه إلى الرها ، وكان المتولي أمرها يومئذ شخص يقال له باينذر أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل . فحاصر الأمير يَشْبَك مدينة الرها أشد المحاصرة ، فلما أشرف على أخذها ، أرسل باينذر يتلطف بالأمير يَشْبَك ويقول له : ضمانُ مَسْكَ سَيْفِ عليّ . وأرسل يقول له : ارحل من الرها وأنا أجمع لك من المدينة مالا له صورة^(٢٥٩) . فأبى الأمير يَشْبَك من ذلك لما رأى من كثرة العساكر التي كانت معه ، فطمعت آماله في أخذ مدينة الرها ، والزحف بعد ذلك على ملك العراق كما حسنوا له ذلك .

هزيمة يَشْبَك وأسره

فزق النفير وركب العسكر قاطبة ، فبرز باينذر ومن معه من العسكر وتحارب معهم ، فلم تكن إلا ساعة يسيرة وانكسر عسكر مصر قاطبة ، وأسر الأمير يَشْبَك وهو راكب على ظهر فرسه فأتوا به إلى باينذر .

وأسروا نائب الشام قانصوه اليحياوي ، ونائب حلب أزدمر ، ونائب حماة جانم الجداوي ، وقتل بُردُبك قريب السلطان نائب طرابلس . وأسر برسبای قرا حاجب الحجاب وتاني بك قرا أحد المقدمين ، وقتل من الأمراء العشرات ومن أمراء الشام وحلب مالا يحصى عددهم .

وكانت حوافر الخيل لا تطأ إلا على جثث القتلى من العسكر ، فكان ممن قتل من أعيان العسكر أيضاً طقطميش الخشقدمي أحد الأمراء بحلب ، وسليمان بك من أقارب سوار ، وقانصوه البواب الإينالي أحد الأمراء العشرات ورؤوس النوب ، وقرقاس الحمدي الظاهري أحد العشرات ورؤوس النوب .

(٢٥٩) مال له صورة : أي مبلغ كبير من المال .

وأما الذي قتل من الخاصكية والماليك السلطانية فما ضبط لكثرتهم ، وقتل من العساكر الشامية والحلبية وغير ذلك ما لا يحصى عددهم ، وكانت مصيبة عظيمة مهولة قل أن يقع مثلها لعسكر مصر .

مقتل الأمير يَشْبَك

وأما ما كان من أمر يَشْبَك الدوادار ، فإنه أقام في الأسر ثلاثة أيام . ثم حضر إليه في اليوم الرابع عبدُ أسود من عبيد التركان قطع رأسه في الليل وأحضرها بين يدي باينذر .

وقيل إنه حز رأسه بالسيف عدة مرات وهي لا تنقطع ، فقطعها بسكين صغير وعذبه غاية العذاب .

فلما طلع النهار وجدوا جثته بغير رأس وهي مرمية على قارعة الطريق وعورته مكشوفة حتى ستره بعض الغلمان بحشيش من الأرض . وقد أرسلَ رأسه إلى بلاد العجم عند يعقوب بن حسن الطويل « وقد حشي سلخة الرأس تبناً »^(٢٦٠) فكان له يوم مشهود بمدينة ماردين^(٢٦١) وطافوا بها بلاد العجم وهي على رمح وألبسوا رأس الأمير يَشْبَك تخفيفته الكبيرة لما طافوا به .

وطافوا بالنواب والأمراء الذين أسروا وهم في قيود وجنازير ، والماليك الذين أسروا مشاة وأرسل باينذر إلى يعقوب بن حسن بجميع ما نهبه من مالٍ وخيول وسلاح وقماش وبزك وغير ذلك مما لا يحصى . وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغريبة .

(٢٦٠) يقول ابن طولون في مفاكهة الخلان ٢٨/١ : أن محب الدين بن الفرفور صاحب ديوان الجيش قد أخبر عند عودته إلى دمشق : أن الباش ضربت رقبته بعد أن مسك على هيئة بشعة ، وحشي سلخة الرأس تبناً ، ومعه رأس ابن بداق ، وأرسل لتوريز لابن حسن باك .
(٢٦١) ماردين : مدينة في جنوب شرق تركيا (المصور ١) .

وكانت قتلة الأمير يَشْبَك في العشر الأخير من رمضان سنة ٨٨٥ هـ بالرُّها .

وفي ذي القعدة من سنة ٨٨٥ هـ ، وصلت إلى القاهرة جثة الأمير يَشْبَك الدوادار من الرُّها وهي في سحلية ، جثة بدون رأس ، فوقع الشك فيها هل هي جثته أم لا ؟ فوجدوا إمارات تدل على أنها جثته فكفَنوها ودفنوها في تربته التي أنشأها عند زاوية كهنبوش وتحقق موته ، وانقطعت الإشاعات بأنه على قيد الحياة . وحضر صحبة جثته قانصوه دَوَادارِه ، وأخبر بحقيقة موته وكيفية أمر الواقعة ومن أسر من الأمراء . وأخبر بقتل جانم قريب السلطان الذي كان أتابك العسكر بجلب .

ترجمة يَشْبَك

كان الأمير يَشْبَك أميراً جليلاً معظماً في سعة المال ، ذا شهامة زائدة وحرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وكان أصله من مشتريات الظاهر جَقَمَقُ ، وكان يعرف بِيَشْبَك من مهدي . وورقي في دولة الأشرف قايتباي حتى صار الحل والعقد بالديار المصرية ، واجتمعت فيه عدة وظائف سنية منها : الدَوَادارية الكبرى ، وأميرية السلاح ، والوزارة ، والاستادارية الكبرى ، وكاشف الكشاف ، ومدير المملكة ، وغير ذلك من الوظائف ، فعظم أمره جداً ، ووقع له أشياء غريبة لم تقع لغيره من أبناء جنسه في عصره ، ومات وله من العمر نحو ست وخمسين سنة وقد وكزه الشيب قليلاً .

وكان صفته : أبيض اللون ، مدور الوجه ، أشهل العينين ، أشقر اللحية ، طويل القامة ، ملئ الجسد .

وأنشأ أشياء كثيرة من العمار بالديار المصرية ما بين ربوع وحوانيت ، ودور جليلة ، وصهاريج ومغسل ، وأسبلة ، وزوايا ، وأنشأ قبة بالمطرية ، وقبة

برأس الحسينية ، وكان له في كل سنة عدة شقادات^(٢٦٢) محملة على جمال ، ومعها الزاد والماء ، تلاقي الحجاج من العقبة بسبب المنقطعين من الحجاج ، وله غير ذلك أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف ، وكانت له محاسن ومساوئ ، وفيه الخير والشر . وقد ساقه أجله حتى خرج في هذه التجريدة بسبب سيف أمير آل فضل فكانت منيته بالرُّها .

وكان الأمير يَشُبُّكَ باغياً على بايندُر ، فإنه قصد محاربته من غير سبب ولا موجب .

نهاية الأزمة بين السلطان ويعقوب بن حسن الطويل

وقصد السلطان السفر إلى حلب بنفسه ، ليقم بها خوفاً من عسكر يعقوب بن حسن أن يطرق بلاد حلب والشام ، فإن النواب قاطبة كانوا في الأسر عند يعقوب بن حسن ، ثم إن السلطان عيَّن الأتابكي أربك إلى حلب ، وعيَّن معه وردبش أحد المقدمين ، وخلع عليه وأقره في نيابة حلب عوضاً عن أزدمر ، وعيَّن من الأمراء العشرات والطلبخانات عدة وافرة منهم : جاني بك حبيب أمير آخور ثاني وآخرين من الأمراء .

ثم عرض الجند وكتب منهم جماعة ، واستحثهم على الخروج بسرعة قبل أن تهجم عساكر الشرق على حلب ، ولولا فعله هذا لخرج من يده غالب جهات حلب .

ثم بعد أيام خرج الأتابكي أربك من القاهرة هو والعسكر في تجميل زائد ، وكان لهم يوم مشهود .

(٢٦٢) شقادات : جمع شقدف وهو صندوق خشبي ذو شقين يوضع على ظهر الجمل .

وفوض السلطان أمر البلاد الشامية والحلبية للأتابكي أذربك ، وجعل له التكلم في أمور المملكة من ولاية وعزل .

ولما أراد الرحيل من الريدانية نزل إليه السلطان وودعه وجلس عنده ، وتشاوروا فيما يكون فيه المصلحة بسبب هذه الكائنة . ثم سافر الأتابكي أذربك .

وفي شهر صفر من سنة ٨٨٦ هـ جاءت الأخبار من حلب بأن الأتابكي أذربك لما وصل إلى حلب ، وجد أمر الفتنة التي وقعت بين عسكر مصر وبين بايندر^(٢٦٣) قد سكن ، وأن يعقوب بن حسن الطويل شق عليه ما فعله بايندر من سرعة قتله للأمير يشبك الدوادار ولامه على ذلك .

ثم إن الأتابكي أذربك أرسل جاني بك حبيب قاصداً إلى يعقوب بن حسن ، فتلطف به في الكلام ، وكان الأمير جاني بك حبيب سيوساً درياً حلو اللسان ، فأكرمه يعقوب وأجله ، ثم أطلق من كان عنده من الأسرى من النواب والأمراء وغير ذلك ، فسلمهم للأمير جاني بك حبيب ، فأتى بهم إلى حلب صحبتهم ، فلما بلغ السلطان هذا الخبر سُرَّ به جداً .

(٢٦٣) بايندر : وردا سمة في الضوء اللامع : بايندر (١١٢/٣) .

نصوص وإضافات على الرحلة

٣

تردّي العلاقات بين المماليك والعثمانيين

- أسباب النزاع العثماني المملوكي
- ثورة علي دولات
- بدء العراك بين المماليك والعثمانيين

تردّي العلاقات بين المماليك والعثمانيين

أسباب النزاع العثماني المملوكي

بعد هزيمة شاه سوار ، وإعدامه في القاهرة سنة ٨٧٧ هـ ، أعاد السلطان قايتباي شاه بضاع - شاه بداغ أو بذاق - إلى تزعم الإمارة الدلغادرية وحكم ألبستان - الأبلستين - إلا أن شقيقه علي دولات - علي بن خليل بن قراجا بن دلغادر علاء الدين الأرتقي التركي - استطاع طرد شاه بضاع سنة ٨٨٦ هـ وذلك بتأييد من السلطان العثماني بايزيد الثاني - أبو يزيد ملك الروم - ويعود تأييد بايزيد لعلي دولات إلى عدة أسباب :

فبعد وفاة السلطان العثماني محمد الفاتح سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م ، تولى ابنه بايزيد الثاني يلدرم وقد نازعه على السلطة شقيقه جم - جمجمة بن أبي يزيد بن عثمان - لكن جم لم يستطع الصمود أمام قوات بيازيد ففر من الأناضول وقدم إلى طرسوس ، وطلب من نائب حلب أزيك السماح له بدخول حلب ، فاتصل أزيك بالسلطان قايتباي الذي أذن له بالحضور إلى القاهرة مع قليل من عسكره ، ووصلها في شعبان سنة ٨٨٦ هـ وقد خرج صاحب خوشقدم إلى ملاقاته ، فد له أسمطة حافلة وخرج الأمراء المقدمون ورؤوس النوب والحجاب لاستقباله ، فكان هذا الاستقبال في منتهى الحفاوة وقد أحضر معه والدته وأولاده وعياله ، وأقام في القاهرة حتى جمادى الأولى سنة ٨٨٧ هـ ، وسمح له السلطان خلال إقامته بزيارة الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج - وكان هدف جمجمة من الحج كسب التأييد له في نزاعه من أخيه - .

لقي جم أثناء إقامته في القاهرة الترحيب الكبير وحسن المعاملة من

السلطان ، وعندما طلب من السلطان الخروج إلى بلاده ليحارب أخيه ، تردّد السلطان في ذلك ثم سمح على كره منه - وكان ذلك عين الخطأ - ، وقد ندم السلطان على ذلك فيما بعد ، فعندما خرج جم أرسل له أخوه قوة عسكرية هزمته وفرّ هارباً ، وأصبح واضحاً لبايزيد أن جمجمة إنما استأنف تمرده بتشجيع - أو على الأقل بموافقة - السلطان قايتباي مما أثار نقمته .

ويضيف ابن إياس في بدائع الزهور ٣ / ٢١٥ سبباً آخر وذلك في حوادث صفر سنة ٨٩٠ هـ هذا نصه :

« والذي استفاد بين الناس أن سبب هذه الفتنة الواقعة بين السلطان وبين ابن عثمان ، أن بعض ملوك الهند أرسل إلى ابن عثمان هدية حافلة على يد بعض تجار الهند ، فلما وصل إلى جدّة ، احتاط عليها نائب جدّة وأحضرها صحبتته إلى السلطان وكان من جملة تلك الهدية خنجر قبضته مرصعة بفصوص مئنة ، فطمع السلطان في تلك الهدية وأخذ الخنجر ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك حنق ، وجاء في عقيب ذلك أن علي دولات ترامى على ابن عثمان وشكا له من أفعال السلطان وما يصدر منه ، فتعصب لعل دولات وأمدّه بالعساكر واستمرت الفتنة تتسع .

وقد طمع غالب ملوك الشرق في عسكر مصر بموجب ما وقع لهم من سوار وبايندر .

ثم إن السلطان أرسل إلى ابن عثمان ذلك الخنجر والهدية التي بعث بها ملك الهند ، وأرسل يعتذر لابن عثمان عن ذلك ولكن بعد فوات الأوان .

علي دولات وثورته

في جمادى الآخرة سنة ٨٨٨ هـ جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن علي دولات بن دغاقد أتى إلى ماطية في جمع كبير من العساكر ، وقد حاصر البلد أشد المحاصرة فانزعج السلطان لهذا الخبر ، وعيّن تجريدة إلى حلب وبها من

الأمراء : أزدمر أمير مجلس^(٢٦٤) وكان نائباً لحلب ، والأمير تغري بردي ططر حاجب الحجاب ، وعدداً من الأمراء الطبلخانات ومن الجند نحو خمسمائة مملوك وأنفق على الأمراء والجند أكثر من سبعين ألف دينار . وقد غادرت هذه التجريدة القاهرة في شهر رجب .

في الشهر المحرم من سنة ٨٨٩ هـ عين السلطان تجريدة ثانية تقوية للتجريدة الأولى وضع عليها تراز الشمسي أمير سلاح وأمدّه بنحو أربعمئة مملوك من المماليك السلطانية وكان سبب هذه التجريدة أن السلطان قد بلغه أن ابن عثمان ملك الروم قد أمدّ علي دولات بعساكر كثيرة ، وهذا أول تحرك لابن عثمان على بلاد السلطان .

الهزيمة الأولى للمماليك :

وفي ربيع الأول سنة ٨٨٩ هـ جاءت الأخبار بأن العسكر الذي خرج من القاهرة قد تقاتل مع علي دولات ، وقد كسر العسكر وقتل منهم جماعة كثيرة من الجند ومن الأمراء .

وفي ربيع الآخر وزع السلطان النفقة على الجند المعين لتجريدة جديدة قررّها وعلى رأسها الأمير تراز أمير سلاح وأzbek اليوسفي أحد المقدمين وبلغ عدد الجند نحو ألف مملوك خرجوا في جمادى الأولى .

الهزيمة الثانية للمماليك :

وفي رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن ورد بش نائب حلب خرج في جمع من العساكر ، واتّقع مع علي دولات ، وقد أمدّه ابن عثمان بجمع كبير من

(٢٦٤) أمير مجلس : هو الأمير الذي يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير ، كما يتحدث عن الأطباء والكحالين (صبح الأعشى : ٤/١٨ ، ٥/٤٥٥) .

عساكره ، فلما التقى العسكران وقع بينهما وقعة كبيرة ، فانكسر العسكر الحلبى ، وقتل ورد بش نائب حلب وجماعة كثيرة من العسكر الحلبى والمصري منهم الماس نائب صفد وأمراء آخر .

لم تكن تجريدة تراز قد شاركت في هذه المعركة ، فلما حصلت هذه الكسرة ركب الأمير تراز وأزدمر أمير مجلس ، والعسكر المصري وتوجهوا نحو علي دولات ، فاتفق معه وانكسر علي دولات هو وعسكر ابن عثمان ، ونهب جميع بركهم وأخذت صناجق ابن عثمان ، ودخل الجند بها إلى حلب وهي منكسة .

وفي ذي الحجة حضر إلى القاهرة جماعة من الجند من كان أسر عند علي دولات ، وقد قطع أصابع جماعة منهم من حدّ إيهامه وأطلقه ، فجمع السلطان الأمراء وتشاوروا في أمر ابن عثمان وتعصبه لعلّ دولات ، فأشار الأتابكي أزبك وغيره من الأمراء بأن يرسل السلطان هدية إلى ابن عثمان لتزول الوحشة بينهما ، فعين السلطان الأمير جاني بك حبيب أمير آخور ثاني ، - وكان حلو اللسان سيوساً سبق أن توجه إلى يعقوب بن حسن الطويل ونجح بمهمته - قاصداً إلى ابن عثمان ، وقد سافر إليه بحراً من الاسكندرية في صفر سنة ٨٩٠ هـ حاملاً هدية حافلة في نحو عشرة آلاف دينار أو تزيد . إضافة إلى تقليد من الخليفة إلى ابن عثمان بأن يكون مقام السلطان على بلاد الروم وما سيفتحه الله تعالى على يده من البلاد الكفرية ، وأرسل إليه الخليفة أيضاً مطالعة تتضمن تخميد هذه الفتنة التي قد انتشت بينه وبين السلطان وفيها بعض ترقق له .

ولم يلبث السلطان أن عيّّن تجريدة أخرى إلى علي دولات ، وبها من الأمراء برسباي قرا رأس نوبة النوب ، وتاني بك الجمالي أحد المقدمين ، ورسم لهم بأن يتقدموا جاليش العسكر إلى أن يخرج الأتابكي أزبك ، وبلغت النفقة على هذه التجريدة أكثر من مائة ألف دينار وخرجت التجريدة من القاهرة في ربيع الآخر دون الأتابكي أزبك .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر ابن عثمان قد استولى على قلعة كوك بالآمان بعد أن حاصروها وأسلمها لهم طوغان الساعي أحد مماليك السلطان .

وفي شعبان سنة ٨٩٠ هـ أرسل أزدمر نائب حلب يستحث السلطان بخروج تجريدة ثقيلة أو يخرج السلطان بنفسه وذلك بعد أن توسع ابن عثمان في أطراف البلاد ، فانزعج السلطان لهذا الخبر ونادى العسكر للعرض ، ثم عرض الجند بحضرة الأتابكي أذربك ، وكان هو المشار إليه في تعيين الجند بما يختاره منهم ، ثم عرض القرانصة^(٢٦٥) وأولاد الناس ، وسمح للذي لا يرغب بالسفر منهم أن يقدم بديلاً كاملاً بفرس ولباس كامل ، أو يدفع مائة دينار ، وكادت تحدث فتنة كبيرة عندما أطلق المماليك المعينون للسفر النار على الناس ونهبوا دوابهم ، حتى دواب الطواحين التي تعطلت إلى أن تدخل السلطان وأعاد الدواب إلى أصحابها .

وخرجت التجريدة في شوال وعلى رأسها الأتابكي أذربك ، ومعه قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، وتاني بك قرا حاجب الحجاب ، وتغري بردي ططر أحد المقدمين الألوف ، إضافة إلى مقدمين آخر ، وبلغ جملة الأمراء المقدمين تسعة وعدد الجنود ثلاثة آلاف مملوك .

الصلح مع علي دولات

وفي ذي الحجة من سنة ٨٩٠ هـ جاءت الأخبار من نائب حلب بأن علي دولات أرسل يسأل في الصلح ، وكان جاني بك حبيب الذي توجه قاصداً إلى ابن عثمان بجرأ قد عاد برأ في ذي القعدة وأخبر السلطان عن أحوال ابن عثمان وإصراره

(٢٦٥) المماليك القرانصة : هم مماليك الأمراء والسلاطين السابقين ، ورغم أن خبرتهم كانت أكبر من الجلبان إلا أن السلاطين لم يكونوا يأمنون لهم .

على اعتداءاته فلم ير منه إقبالا على الصلح . وبذلك يكون علي دولات قد خرج من الفتنة وبقي ابن عثمان .

النصر الثاني للمماليك على العثمانيين

وفي ربيع الأول سنة ٨٩١ هـ وصل دَوَادار نائب حلب إلى القاهرة مبشراً بنصرة العسكر المصري على عسكر ابن عثمان ، وأسر أحمد بك بن هرسك وهو من أجلّ أمراء ابن عثمان ، وعدد من الأمراء أيضاً ، وغنم العسكر المصري ما لا يحصى من الخيول والسلاح ، واستولوا على مائة وعشرين صنجقاً ، وقد قطعت عدة وافرة من رؤوس عسكر ابن عثمان ، وسيحضرون صحبة قيت الساقى الخاصكى .

وقد وصل قيت الساقى في ربيع الآخر من حلب ، ومعه عدة رؤوس من عسكر ابن عثمان ، عدتها ما يزيد على مائتي رأس ، محمولة على الرماح ، فلما دخل القاهرة زينت له زينة حافلة ، واصطف الناس لمشاهدته ، وذهب إلى القلعة وضربت له البشائر وخلع عليه السلطان كالعادة .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان ، بعد أن حصلت لهم تلك الكسرة ، تجمع جيشاً كثيفاً وعاد للحرب ثانية ، مما اضطر عسكر السلطان للعودة إلى كوكبك بعد أن قدم إلى حلب ، فانزعج السلطان لهذا الخبر ونادى بالعسكر للعرض ، فعرض عليه فعين جماعة من الأمراء المقدمين والجند ، فكانوا نحو خمسمائة مملوك ، وعليهم يشبك الجمالي الزرد كاش الكبير أحد المقدمين ، ثم أنفق عليهم واستحثهم على الخروج إلى حلب .

وضاق الأمر بالسلطان حتى قصد أن يخرج إلى التجريدة بنفسه ، وأرسل إلى كرتباي الأحمر كاشف البحيرة بأن يجمع له من طائفة العربان الذين بالبحيرة ما يستطيع ، لا بل إنه عرض على الزعر أن ينفق على كل واحد منهم ثلاثين ديناراً ليخرجوا صحبته .

اضطراب الأحوال

وفي شوال من السنة نفسها ، جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر قد ثار على الأتابكي أزيك وقصد العودة إلى القاهرة ، فتشوش السلطان وأرسل يطلب من الأتابكي أزيك بأن ينفق على كل مملوك خمسين ديناراً ، ففعل ذلك أزيك وسكنت الفتنة .

وفيه أيضاً وصل قيت الساقى الخاصكى ، وكان قد توجه - بعد عودته من حلب - قاصداً يعقوب بن حسن الطويل في العراق ، وعاد على جناح السرعة ومعه مكتبة يظهار التودّد وصدق المحبة للسلطان .

وفي ذي القعدة حضر جماعة من الجند من حلب دون إذن من السلطان وقصدوا الإخراق بالأتابكي أزيك باش العسكر وهو مجلب فقال لهم : الذي يقصد الرواح إلى مصر فليذهب ويقابل أستاذه ، فأخذوا يتسللون .

وتزايدت الإشاعة بوقوع فتنة كبيرة ، وأخذ جماعة من المماليك الجلبان يعترضون الأمراء طالبين منهم أن ينفق السلطان عليهم ، مهددين بالفتنة ومغلطين بالقول .

ثم حضر الأتابكي أزيك وبقية الأمراء والجند إلى القاهرة ، فدخلوها بمدخل حافل ، وأمامهم الأسرى من عساكر ابن عثمان وهم مشاة في زناجير ، وصناجقهم منكسة ، وصحبتهم أمراؤهم بزناجير على خيول ، وبينهم الأمير أحمد بن هرسك راكباً وفي عنقه زنجير ، فلما قابلوا السلطان وهو بالحوش ، عاتب ابن هرسك ووبخه بالكلام ، ثم سلمه إلى الأمير قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، ثم وزع بقية الأسرى على جماعة من المباشرين حتى قضاة القضاء ، ثم خلع على الأتابكي أزيك وبقية الأمراء .

وعادت الفتنة لتظهر من المماليك الجلبان ، فقد ثار جماعة منهم على السلطان ولبسوا للحرب وأشهروا السلاح فاضطربت الأحوال وأغلقت الأسواق وجاء الزعر ، وكان ذلك بسبب رفض السلطان الإنفاق عليهم بعد نصرتهم على عسكر ابن عثمان . واستمر الأمر على هذا الحال حتى ذي الحجة ، وبعد توسط الأمير أربك لدى السلطان تقرر صرف خمسين ديناراً لكل مملوك في أول السنة الجديدة وهذأت الفتنة . وتم توزيع النفقة مع الجامكية - الراتب - بمعدل خمسين ديناراً للمماليك الجلبان وخمسة وعشرين ديناراً للقرانصة ، ومن لم يخرج للتجريدة لم ينل شيئاً .

ومع حلول السنة الجديدة ٨٩٢ هـ استمرت الأحوال مضطربة في مصر ، فقد تضاعل الخبز والطعام وغلت الأسعار وتضاعفت ، وزاد طغيان المماليك ، وكثر ضرر العربان البدو على حدود الصحراء ، وأخبار ابن عثمان تتوارد بتحركه نحو البلاد الحلبية ، مما أكثر من المصادرات لتجريد حملة جديدة ، وانقسم المماليك الجلبان إلى فرقتين : فرقة مع قانصوه خمسمائة وفرقة مع أقبردي الدوادر .

ويبدو أن السلطان قد عزم على الصلح مع ابن عثمان ، فلم يعد من السهل إخراج تجريدة جديدة أمام هذه الأحوال ، فأمر بفك قيد أحمد بن هرسك وبقيّة الأسرى ، وتجهيزهم للسفر إلى بلادهم .

وفي رجب من سنة ٨٩٢ هـ طلب السلطان من كاسباي المحتسب جميع أعيان التجار ، ولما تم ذلك ، طلب منهم السلطان مساعدتهم على خروج تجريدة بمبلغ أربعين ألف دينار ، فضجوا وأبدوا عجزهم عن تأمين المطلوب ، فظل يخفض منه حتى بلغ اثني عشر ألف دينار يدفعها التجار إذا خرجت التجريدة .

وتزايدت الأحوال سوءاً ، ففي شوال من السنة نفسها ، جاءت الأخبار بفرار شاه بضاع بن دلغادر - شقيق علي دولات - وكان مسجوناً بقلعة دمشق ،

فلما بلغ السلطان ذلك أمر بشنق نائب القلعة ، ثم تواردت الأخبار عن وصول شاه بضاع إلى ابن عثمان الذي أكرمه وأقام عنده .

وفي شهر ذي الحجة قويت الإشاعات في القاهرة بقيام فتنة بين المماليك الجلبان ، فنقل غالب الأمراء وأرباب الدولة أمتعتهم من الدور خوفاً من نهبها عند وقوع الفتنة ، وعزم السلطان على مجابهة الأمر ، فخرج إلى صلاة الجمعة ثم جلس بالحوش ، وأحضر أعيان المماليك الجلبان وكلهم كثيراً ووبّخهم ؛ ومما قاله : إذا كان قصدكم قتلي فدونكم ذلك ، فاستغفروا له ، ثم آل الأمر إلى صلحهم مع السلطان ، فلما خرجوا من عنده عادوا لما كانوا عليه من الفتنة ، حتى أشيع بين الناس أن السلطان قد تهيأ للفرار بنفسه .

وما إن حلت سنة ٨٩٣ هـ حتى تواردت الأخبار في الشهر المحرم بأن ابن عثمان بعث بعساكر عظيمة ، وقصد المحاربة لعسكر مصر فانهزج السلطان . فأزمع السلطان على تجهيز تجريدة جديدة فاستدعى في ربيع الأول بترك النصارى ورئيس اليهود وفرض عليهم مالا بسبب التجريدة وجدّد بذلك باب المصادرات للناس .

ولم تلبث الأخبار أن وردت في جمادى الأولى من حلب بأن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى أدنة ، فاضطرب السلطان ونادى بالعرض ، وحضر الأتابكي أذربك ، وعين له تجريدة جديدة ، ضمت من الأمراء المقدمين أحد عشر أميراً ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشرات أكثر من ستين أميراً ، ومن الجنود نحو أربعة آلاف مملوك وعدّت هذه التجريدة لضخامتها من النوادر .

وأرسل السلطان ثلاثة من الخاصكية على الهجن لكشف أخبار عسكر ابن عثمان على عجل ، وأمرهم بإرسال الأخبار بمنتهى السرعة ، ولم تلبث الأخبار أن حملت سقوط قلعة إياس بيد عسكر ابن عثمان دون قتال .

وفي جمادى الثانية خرجت التجريدة بقيادة الأتابكي أزيك من القاهرة ،
وقد بلغت تكلفتها قرابة مليون دينار - ألف ألف دينار - فعد ذلك من النواذر .

النصر الثالث على العثمانيين

وفي رمضان جاءت الأخبار بأن الأتابكي أزيك استولى على باب الملك ،
واستخلصه من عسكر ابن عثمان ، بعد أن أتوا إليه في نحو ستين مركباً محملة
بالمقاتلين والأسلحة ، وقد اضطرب العسكر المصري أولاً ثم هبت ريح عاصفة
أغرقت معظم هذه المراكب ومن فر من العثمانيين وصعد إلى البرقتل .

النصر الرابع على العثمانيين

وفيه أيضاً التقى العسكران المصري والعماني بمركة ضخمة ، قتل فيها عدد
كبير من الفريقين ، وكانت النصر فيها للعسكر المصري ، ووصل الخبر إلى
القاهرة ودقت البشائر .

وفي شوال وصل مغلبي البجمقدار إلى القاهرة ، وصحبته رؤوس عديدة
من العثمانية ، عدتها نحو مائتي رأس ، موضوعة على الرماح ، فدخل المدينة في
موكب حافل فخلع عليه السلطان .

وعاد عسكر ابن عثمان بعد هزيمتهم ثانية إلى أدنة ، فحاصرها العسكر المصري
وفتحها بالأمان بعد ثلاثة أشهر من الحصار .

تنازل السلطان عن السلطنة وعودته إليها

وفي ربيع الأول سنة ٨٩٤ هـ بلغ السلطان أن المماليك الذين حضروا من
التجريدة قصدوا إثارة فتنة كبيرة ، ويريدون نفقة بسبب نصرتهم ، وبلغ
السلطان أيضاً أنهم قالوا : إن لم يعطنا السلطان نفقة قتلنا الأمراء والمماليك الذين
كانوا بمصر ولم يسافروا .

فلما تحقق السلطان ذلك أخذ في أسباب تحصيل المال ، فاجتمع بالقضاة الأربعة ، وذكر لهم : « أن الخزائن نفذ ما كان فيها من المال ، وأن المالك يقصدون نفقة وإن لم أنفق عليهم شيئاً أثاروا فتنة كبيرة » ، فاتفق الحال على أن يفرضوا على أرباب الأملاك والأوقاف التي بمصر والقاهرة أجرة شهرين مساعدة للسلطان على النفقة ، فانفض المجلس على ذلك . ثم إن السلطان أمر تغري بردي الاستادار بأن يتكلم في ذلك هو وناظر الخاص ابن الصابوني ، فاقسموا التصرف في ذلك وشرعوا في جباية المال .

ثم بعد أيام دخل الأتابكي أزبك ومن كان معه مسافراً في التجريدة من الأمراء وبقية العسكر وكان لهم يوم مشهود ، ومن العجائب أنه في حالة دخولهم إلى القاهرة أشيع بين الناس عودهم إلى حلب عن قريب ، ذلك أن عسكر ابن عثمان قد استولى على سويس وعلى طرسوس وغير ذلك من البلاد الحلبية ، وحضر صحبة الأتابكي أزبك جماعة كثيرة من عسكر ابن عثمان ، أتوا طائعين باختيارهم فأنزلهم السلطان في ديوانه وقرر لهم الجوامك ، وهم باقون في الديوان ويسمون بالعثمانية ثم قويت الإشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، وأن المالك قد صمموا على أخذ النفقة لكل واحد منهم مائة دينار ، فقلق السلطان واشتد عليه الأمر .

وفي أوائل ربيع الآخر جلس السلطان على الدكة بالحوش وأرسل خلف القضاة الأربعة وسائر الأمراء فلما تكامل المجلس ، قال السلطان للقضاة والأمراء : « هؤلاء المالك يريدون مني نفقة ، وقد نفذ جميع ما في الخزائن من المال على التجاريد ، ولم يبق بها شيء من المال » . ثم أقسم بالله أنه نفذ منه على التجاريد من حين ولي السلطنة إلى الآن سبعة آلاف ألف دينار ومائة وخمسة وستون ألف دينار ، ثم قال للأمراء : « اختاروا لكم من تسلطونه غيري » . وأحضر فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش ، وأحضر القبة والطير^(١٦٦) ، ثم قام وقال

للقضاة : « اشهدوا على أني قد خلعت نفسي من السلطنة » . وشرع يفك أزراره ، وقصد الدخول إلى قاعة البحرة ، فتعلق به القضاة ومنعوه من ذلك ، وشرع قاضي قضاة المالكية محيي الدين بن تقي يبكي ، وأظهر التأسف لهذه الواقعة وصار يتفارش ويترب .

ثم إن الأمير تمتاز أمير سلاح صار يمشي بين الجلبان وبين السلطان في عمل المصالحة ، فكثرت القيل والقال في ذلك ، وضج العسكر ، وترددت الوسائط بين السلطان وبين الجلبان ، ثم تقرر الحال بعد جهد كبير على أن ينفق السلطان على الجلبان خمسين ديناراً لكل منهم ، يدفع أربعين معجلاً ، وينفق عليهم عشرة دنائير بعد شهرين ، كما ينفق على القرانصة خمسة وعشرين ديناراً ، فسكن الاضطراب قليلاً .

ثم أرسل السلطان خلف الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز وكان ساكناً عنده بالحوش ، فلما حضر جدد له مبايعة ثانية بحضرة القضاة الأربعة ، فكانت مدة سلطنته في هذه المرة الأولى إلى يوم خلعه نفسه اثنتين وعشرين سنة إلا ثلاثة أشهر .

عودة المناوشات

وفي الشهر نفسه - ربيع الآخر - جاءت الأخبار بأن شاه بضاع بن دلغادر حضر الأبلستين ومعه طائفة من عسكر ابن عثمان ، وكبس على أخيه علي دولات ، وقبض على اثنين من أولاده ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد لهذا الخبر .

وفيه أيضاً أرسل السلطان خلعة إلى عبد الرزاق أخي علي دولات ، وقرره في أتابكية حماة عوضاً عن ابن طرغل ونقل ابن طرغل إلى نيابة طرسوس .

(٢٦٦) القبة والطير : في حدائق الياسمين ما يلي : (المظلة) ويعبر عنها بالچتر ، ويقال لها القبة والطير ، وهي هيئة قبة من الحرير الأصفر مزركشة ، على أعلاها صفة طائر من فضة موهة =

كما جاءت الأخبار من عند نائب حلب ، بأن عسكر ابن عثمان ، لما بلغهم رجوع العسكر المصري ، طمع في أخذ البلاد الحلبية . وأرسل النائب يستحث السلطان في خروج تجريدة بسرعة لحفظ مدينة حلب ، فلما بلغ السلطان ذلك عرض العسكر وعين التجريدة ، وجعل الباش على هذه التجريدة قانصوه الشامي أحد المقدمين الألو ف ، وضم إليها عدداً من الأمراء وأنفق عليهم وعلى الجند ، وأمرهم بسرعة الخروج ، وتم خروجها في جمادى الآخرة ، وقد بلغت النفقة عليها مائة وخمسين ألف دينار غير جامكية أربعة أشهر وثمان الجمال .

وفي جمادى الآخرة قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن عثمان ، يشير على السلطان بأن يبعث قاصداً إلى ابن عثمان لعله يفلح في إقامة الصلح ، فأعيد له الجواب : إذا أطلق تجار الماليك الذين عنده وبعث مفاتيح القلاع التي أخذها ، كاتبناه في أمر الصلح وأرسلنا له قاصداً .

وفي شعبان دخل القاهرة اسكندر بن جيحان أحد أمراء ابن عثمان ، وقد أسره بعض النواب ، وكان علي دولات هو القائم في القبض عليه ، فكان له بالقاهرة لما دخل يوم مشهود ، وأسر معه جماعة من العثمانية ، فلما عرضوا على السلطان رسم بسجنهم .

وفي الشهر المحرم سنة ٨٩٥ هـ قدم إلى القاهرة شاه بضاع بن دلغادر ، وقد تقدم القول بأنه هرب من قلعة دمشق وتوجه إلى ابن عثمان والتف على عسكره

= بالذهب تحمل على رأس الملك حين أخذه الملك وفي العيدين ، وتكون مع راكب فرس ويحملها الأمير الكبير أو أخو السلطان أو ولده . وفي مملكة الشام وحلب (نيابة) يحملها نائبها يوم دخول السلطان . انتهى
وبعبارة عصرية نقول : القبة هي المظلة (الشمسية) تماماً غير أنها تكون أكبر منها بنحو ثلاث مرات ، وكانت من خصائص السلاطين فلا يحق لأحد استعمالها في المواكب غير السلطان .

وملك الأبلستين ، واستمر في عصيانه مدة طويلة ، ثم وقع بينه وبين ابن عثمان ، وقصد قتله ففر منه ، والتجأ إلى السلطان ، فلما حضر أكرمه وخلع عليه .

وفي ربيع الأول جاءت الأخبار من عند علي دولات بأن ابن عثمان اهتم بتجهيز عساكر وقد وصل أوائلهم إلى كوك . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد وجمع الأمراء وأخذ رأيهم في ذلك فوقع الاتفاق على خروج تجريدة صحبة أمير كبير .

ثم أخذ السلطان في أسباب جمع الخمس من نواحي الشرقية ، كما فعل عند خروج التجريدة الماضية لأجل فرسان العرب لتخرج صحبة أمير كبير باش العسكر ، فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاية الأذى وقطع الخمس من خراجهم مرتين .

وفيه عرض السلطان أولاد الناس أصحاب الجوامك من ألف درهم فما دونه ، وكان أمرهم أن يتعلموا رمي البندق الرصاص قبل ذلك ، فلما عرضهم ورموا قدامه كتبهم في التجريدة ، وأنفق على كل واحد ثلاثين ديناراً ، وأشرك كل اثنين في جمل أعطاهما ، وخرجوا صحبة التجريدة .

وفيه نادى السلطان للعسكر بالعرض ، وأشيع أمر التجريدة إلى ابن عثمان . فلما عرضهم بادر إليهم بتفرقة النفقة . ثم وقع في ذلك اليوم بعض اضطراب من الممالك الجلبان ، وقام السلطان من الدكة ونزل وقال : « أنا أنزل لكم عن السلطنة وأمضي إلى مكة » فتلطف به الأمراء . ثم آل الأمر بعد ذلك إلى أن أنفق على كل مملوك مئة دينار كالعادة وجامكية أربعة أشهر وثمان جمل سبعة أشرفيات ، فأنفق في ذلك على عدة طباق واستمر على ذلك حتى أكمل النفقة . ثم حملت نفقة الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشرات وقد تعينوا للسفر أجمعين ، ولم يبق بمصر سوى أقبردي الدوادار وأزدمر تمساح ، فكانوا على الحكم الأول كما تقدم ، فبلغت النفقة على الأمراء والجند نحو خمسمائة ألف دينار ، وكانت هذه التجريدة آخر تجاريد الأشرف قايتباي إلى ابن عثمان وغيره ولم يجردها أبداً .

ثم نادى للعسكر بأن لا يخرج منهم أحد قبل الباش فما سمعوا له شيئاً .

التجريدة الأخيرة

وفي شهر ربيع الآخر خرج أمير كبير أزبك من القاهرة قاصداً البلاد الحلبية ، وصحبته الأمراء ، وكانت عدتهم عشرة وهم على ما ذكرناه في التجريدة الماضية ، وأما الأمراء العشرات والطبلخانات فكانوا زيادة على الخمسين أميراً . وأما المماليك السلطانية فكانوا زيادة على أربعة آلاف مملوك ، فكان لهم يوم مشهود حتى رجّت لهم القاهرة ، واستمرت الأطلاب تنسحب من إشراق الشمس إلى قريب الظهر ، وخرج مماليك الأمراء وهم باللبس الكامل من آلة السلاح فعدت هذه التجريدة من نوادر التجاريد . وقد طال الأمر بين السلطان وبين ابن عثمان في أمر الفتن .

وفي شهر جمادى الآخرة قويت الإشاعات بسفر السلطان بنفسه إلى حلب ، إذ نزل إلى الميدان وعرض المهجن وعيّن جماعة من الخاصكية للسفر معه ، وأمر من بقي من العسكر بتجهيز أنفسهم وأن يكونوا على يقظة للسفر .

وفي شهر رجب وصل هجان من حلب ، وأخبر بأن العسكر قصد التوجه إلى بلاد ابن عثمان ، وقد أرسلوا ماماي الخاصكي رسولاً إلى ابن عثمان فلما أبطأ عليهم خبره ، زحف العسكر المصري على أطراف بلاد ابن عثمان ووصلوا إلى قيسارية ، وقتلوا بها ونهبوا عدة من ضياعها وأحرقوها ، ثم فعلوا مثل ذلك بعدة أماكن من بلاد ابن عثمان ، وانقسموا فرقتين : فرقة إلى ماوندة ، وفرقة مقيمة بكولك ينتظرون ما يكون من هذا الأمر . ثم حضر جان بلاط الغوري ، أحد مماليك السلطان ، وكان من الأمراء العشرات يومئذ ، وأخبر بأن العسكر في قلق زائد ، وأن العليق مفقود وأنهم قد عولوا على الهجيء إلى مصر فما سر السلطان ذلك .

وفي شهر رمضان حضر هجان وأخبر بأن العسكر على حصار قلعة كواره ، ومات في مدة المحاصرة قانصوه من فارس المعروف بقرا ، وهو من مماليك السلطان ، وكان من الأمراء العشرات ، ثم أخذت هذه القلعة فيما بعد وهدمت إلى الأرض .

وفي شهر ذي القعدة جاءت الأخبار بأخذ قلعة كواره من يد عسكر ابن عثمان ، فسر السلطان بذلك ، ثم بعد مدة وردت عليه الأخبار بأن العسكر قلقو ويطالب بالهجرة إلى مصر ، فتأكد السلطان وأرسل عدة مراسيم للأمراء بالإقامة فما سمعوا له شيئاً .

ثم جاءت الأخبار بأن أزبك أمير كبير قد دخل إلى الشام هو والأمراء والنواب والعسكر قاصدين الدخول إلى القاهرة من غير إذن ، وقد جاؤوا بنية وقوع فتنة وصرّحوا بذلك . ثم نودي من قبل السلطان بأن العسكر الذي قدم من التجريدة يصعد إلى القلعة ، فامتنع المماليك ولم يصعدوا إلى القلعة .

وفي الشهر المحرم سنة (٨٩٦ هـ) كان دخول أزبك أمير كبير ومن معه من الأمراء والعسكر ، ودخلوا إلى القاهرة في موكب حافل وكان لهم يوم مشهود . فلما طلّعوا إلى القلعة خلع السلطان على أزبك أمير كبير وعلى بقية الأمراء ، ونزلوا إلى دورهم وهذه آخر تجاريد أزبك أمير كبير إلى البلاد الحلبية .

فرض الجباية

من الحوادث المهولة أن السلطان توجه في ربيع الأول إلى قبة يَشْبَك الدوّادار التي في رأس دور الحسينية ، فجلس هناك وأرسل خلف القضاة الأربعة ، فحضر القاضي الشافعي زين الدين زكريا ، والقاضي الحنفي ناصر الدين الإخميمي ، والقاضي المالكي عبد الغني بن تقي ، والقاضي الحنبلي بدر الدين محمد السعدي ، فلما تكامل المجلس شرع السلطان في التكلم معهم ،

فذكر لهم « أن ابن عثمان ليس براجع عن محاربة عسكر مصر ، وأن أحوال البلاد الحلبية قد فسدت وآلت إلى الخراب ، وإن التجار منعوا ما كان يجلب إلى مصر من الأصناف ، وأن الممالك الجلبان يرومون مني نفقة ، وإن لم أنفق عليهم شيئاً نهبوا مصر والقاهرة وحرقوا البيوت ، ومتى رجع عسكر ابن عثمان إلى البلاد الحلبية لا يخرج العسكر من مصر حتى أنفق عليهم » .

ثم شرع يقسم بالله تعالى « أنه ما بقي في الخزان شيء من المال لا كثير ولا قليل ، والقصد أن أفرض على الأوقاف والأملاك التي بمصر والقاهرة من أماكن وغيطان^(٢٦٧) وحمامات وطواحين وأفران ومراكب وغير ذلك ، أجرة سنة كاملة أستعين بها على خروج التجريدة ، فسكت المجلس ساعة .

ثم قال القاضي الشافعي : « لعل الله يكفيكم مؤونة ذلك ، وقال القاضي المالكي إن أجرة سنة كاملة تثقل على الناس ولا يطيقون ذلك فإن كان لا بد من ذلك فلنفرض عليهم أجرة خمسة أشهر ، وقبل ذلك فرض عليهم أجرة شهرين ، فهذه سبعة أشهر وما يطيق الناس أكثر من ذلك » فتوقف السلطان .

ثم آل الأمر إلى ما قاله قاضي القضاة المالكي ، وانفض المجلس على ذلك . فلما بلغ الناس ما وقع اضطربت الأحوال وكثر القيل والقال في ذلك ، وأشيع عن السلطان أنه سيفرض على كل إنسان من ذكر وأنثى من كبير وصغير دينارين ذهب ، وتكلموا من هذا النمط بأشياء كثيرة .

ثم بعد أيام رسم السلطان لتغري بردي الاستادار بأن يكون متكلماً في جباية الأملاك من باب زويلة إلى دير الطين ، ورسم لابن الصابوني ناظر الخاص بأن يكون متكلماً في جباية الأملاك من باب زويلة إلى خارج الحسينية . فعند ذلك اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال ، وتوجهت الرسل الغلاظ الشداد ،

(٢٦٧) الغيطان : جمع غوطة وهي الأرض المزروعة زراعة كثيفة : غمار خضار ...

ولم يراعوا الوداد ، وأكثر الناس صاروا رسلاً وطلبوا أعيان الناس وانقطع الرجاء باليأس ، وصار الإنسان يخرج من داره ، فيرى أربعة من الرسل في انتظاره ، فيكون نهاره أغبر ، ويخرج في أذياله يتعثر ، فيقذحوا فيه الزناد ، ولا يرى له من اعتماد .

وفي شهر ربيع الآخر ثار المماليك الجلبان على السلطان فطلبوا منه نفقة بسبب هذه النصرة التي وقعت لهم ، فلما رأى منهم عين الجسد أنفق عليهم على العادة كما تقدم شرح ذلك .

الجباية من دمشق

وفي شهر ربيع الآخر أيضاً عيّن السلطان قرقاس أمير آخور ثاني ليتوجه إلى دمشق بسبب جباية أملاك دمشق عن خمسة أشهر كما وقع بمصر ، وعيّن قاصداً أيضاً إلى ثغري الاسكندرية ودمياط ، وكانت هذه المصيبة عامة على الناس ، حتى أخذ من أوقاف البيارستان خمسة أشهر ، وانقطع معلوم الأيتام والضعفاء في رواتبهم مدة خمسة أشهر ، وكذلك سائر أوقاف الجوامع والمدارس والترب ، وقطع معلوم الصوفية والصدقات الجارية .

فلما توجه قرقاس المذكور إلى دمشق ، أظهر بها من المظالم أشياء كثيرة . وقرقاس هذا هو الذي تولى نيابة حلب فيما بعد ، وقبض عليه طومان باي الدوّادار لما خرج إلى الشام بسبب عصيان قصره نائب الشام ، فسجن قرقاس هذا بقلعة دمشق ثم عاد إلى مصر وقد تولى الأتابكية .

قاصد ابن عثمان والصلح

وفي شهر جمادى الآخرة حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند ابن عثمان صحبة ماماي الخاصكي الذي توجه قبل تاريخه إلى ابن عثمان ، وكان هذا القاصد

الذي حضر من أجل قضاء ابن عثمان وكان متولياً القضاء بمدينة روستة ، وهو شخص من أهل العلم يقال له علي حلي ، فلما صعد إلى القلعة أكرمه السلطان وبالغ في تعظيمه جداً . وأحضر على يديه مفاتيح القلاع التي كان ابن عثمان قد استولى عليها ، فسلمها إلى السلطان وأشيع أمر الصلح فنزل القاصد إلى مكان أُعِدَّ له وهو في غاية الإكرام . ثم إن السلطان أطلق اسكندر بن جيحان الذي كان أسر وسجن كما تقدم وأقام مدة طويلة ، فلما أطلقه السلطان أحسن إليه وكساه ، وكذلك أطلق الأسرى الذين كانوا مأسورين من عسكر ابن عثمان وكساهم وأحسن إليهم ، وتوجهوا إلى بلادهم صحبة القاصد لما سافر .

وبهذا تم أمر الصلح بين السلطان وبين ابن عثمان .

وفي شهر رجب خرج جان بلاط من يَشُبَّك قاصداً من عند السلطان إلى ابن عثمان فظهر في تجمل زائد وموكب حافل ، وجان بلاط هذا هو الذي تولى السلطنة فيما بعد بعشر سنين .

وفي ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ رجع إلى دمشق الأمير جان بلاط قاصد السلطان في الصلح إلى أبي يزيد ابن عثمان ، وقد أنعم عليه وعلى ستة أنفار معه بالخلع والماليك والجواري والجمال والقماش الحرير والذهب وغير ذلك ، وأنه راض بما أراده السلطان منه ، وكانت غيبته نحو خمسة شهور ، وقد حصل للناس أمن في أوطانهم ، وتلقاه أرباب الدولة على العادة . وقد أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بعد عودته .

انتهاء أعمال ابن عثمان

والظاهر أن ابن عثمان وجد له فريسة أسمن من الحكومة المصرية فقد أتاحت له الفرصة الاستيلاء على بلاد حسن بك الطويل (أوزون حسن) .

وفي شهر ربيع الآخر سنة ٨٩٧ هـ جاءت الأخبار بأن مملكة حسن بك الطويل في اضطراب وأن ابن عثمان قد أشرف على أخذها من يد أولاده . فلما بلغ السلطان ذلك قصد أن يخرج تجريدة صحبة حسين بن أغرلو بن حسن الطويل الذي كان مقيماً بالقاهرة ثم آل الأمر إلى إهمال خروج التجريدة ومات حسين فيما بعد لما حجّ ودفن بالمدينة .

نصوص وإضافات على الرحلة

٤

تحسن العلاقات بين الدولتين المملوكية والعثمانية

- الهدوء والتقارب بين المماليك والعثمانيين .
- وفاة السلطان الأشرف قاتيباي .
- السلاطين الذين تولوا حتى قانصوه الغوري .
- العلاقات الحسنة بين المماليك والعثمانيين .
- اعتداءات الصفويين .

تحسن العلاقات بين الدولتين المملوكية والعثمانية

الهدوء والتقارب بين المماليك والعثمانيين

استمرت مدة الهدوء بين الدولتين قرابة ربع قرن (من ٨٩٧ هـ - ٩٢٢ هـ) اتسمت بقيام علاقات طيبة بينهما فكانت الوفود الرسمية (القصاد) تتبادل الزيارات بصورة مستمرة ، وكان هؤلاء القصاد يلقون الترحيب الدائم وحسن الاستقبال والحفاوة ، يحضرون و معهم الهدايا الثينة ويعودون بهدايا أثمن .

إلا أن الأوضاع الداخلية في الدولة المملوكية كانت تسير من سيء إلى أسوأ ، ففي سنة ٩٠١ هـ توفي السلطان الأشرف قايتباي وكانت وفاته نقطة تحول خطير في تاريخ هذه الدولة ، ويمكن اعتبارها بداية النهاية ، فقد حكم الدولة من بعده خمسة سلاطين لم يطل حكم الأربعة الأوائل منهم خمس سنوات ، وكانت نهايتهم العزل والقتل ، واتسم حكمهم بالمنازعات واضطراب الأحوال الداخلية . وتلام السلطان قانصوه الغوري الذي حكم ست عشرة سنة حتى كانت معركة مرج دابق ، إلا أن أحوال الدولة الداخلية - وإن كانت المنازعات والاضطرابات قد توقفت - لم تشهد عهداً من قبله تزايدت فيه المظالم وسحقت فيه حقوق الناس وتضاعفت الضرائب وزيفت فيه النقود كما حدث في عهده ، وتزايدت الأخطار الخارجية أيضاً ، فقد توصل البرتغاليون إلى الهند وقطعوا تجارتها عن البلاد العربية وتأثر بذلك دخل الدولة ، وعندما حاول الغوري مجابهتهم بحرياً ، تحطم أسطوله ولقي الهزيمة ، وظهر خطر الصفويين في إيران وشنوا أكثر من غارة على الحدود الشمالية للبلاد .

وكان العثمانيون قد وصلوا إلى أوج قوتهم ، وفتحوا شبه جزيرة البلقان

وما إن اشتدت عليهم المقاومة الأوربية حتى وجدوا من الأنسب لهم الاتجاه نحو الشرق والجنوب إلى الدولتين الكبيرتين الصفوية والمملوكية .

وفي العرض التالي لمحة عن السلطان الأشرف قايتباي وعن خلفائه وذكر لأهم الحوادث التي حدثت في عهدهم .

١ - وفاة السلطان قايتباي

لما كان يوم الأحد السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة إحدى وتسعمائة ، كانت وفاة السلطان الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري إلى رحمة الله تعالى بعد العصر ، ومات بالقلعة ، وأخرج صبيحة يوم الاثنين ثامن عشري ذي القعدة ، وتوفي وله من العمر نحو ست وثمانين سنة ، ومات وهو بعلة الدييلة واعتزته علة البطن أيضاً وامتنع عن الأكل مدة انقطاعه حتى مات .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية تسعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر ووحداً وعشرين يوماً بما فيها مدة انقطاعه عند توعك جسده .

فإنه تسلطن يوم الاثنين سادس رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وتوفي يوم الأحد سابع عشري ذي القعدة سنة إحدى وتسعمائة ، وهذه المدة لم تتفق لأحد من الملوك غيره قبله ، وعاش عمره كله وهو في عز وشهامة من حين كان خاصكياً إلى أن بقي سلطاناً وما نفي قط ولا سجن ولا تقييد .

وكانت عليه سكينة ووقار ، مهيب الشكل في العيون ، جميل الهيئة ، مبجلأ في موكبه ، كفؤاً للسلطنة ، وافر العقل ، سديد الرأي ، عارفاً بأحوال المملكة ، يضع الأشياء في محلها ، ولم يكن عجولاً في الأمور ، بطيء العزل لأرباب الوظائف ، يتروى في الأمور أياماً قبل تقريرها . وكان لا يخرج إقطاع أحد من الجند إلا بحكم وفاته ، ولا من أبناء الناس المقطعين إلا بحكم وفاته ، ويرسل من يكشف عليه وهو ميت حتى يصدق لموته .

وكانت صفته طويل القامة ، عربي الوجه ، مصفر اللون ، نحيف الجسد ، شائب اللحية .

تولى الملك وله من العمر أربع وخمسون سنة ، وكان موصوفاً بالشجاعة عارفاً بأنواع الفروسية ، ولا سيما في فن لعب الرمح ، علامة في فنه ، لكنه كان محباً لجمع الأموال ، ناظراً لما في أيدي الناس ، ولولا ذلك لكان من خيار ملوك الجراكسة على الإطلاق .

تحرك عليه في أيام سلطنته شاه سوار ، وحسن الطويل ، وابن عثمان ، وغير ذلك من ملوك الشرق . وجرد عليهم تجاريد كثيرة وهو ثابت على سرير ملكه ، لم يتزحزح ، حتى قيل : ضبط ما صرفه على نفقات التجاريد التي جردها في أيام سلطنته إلى أن مات ، فكانت نحو سبعة آلاف ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار ، خارجاً عما كان ينفقه عند عودتهم من التجاريد ، وهذا من العجائب التي لم يسمع بمثلها .

وكان مغرمًا بشراء الممالك حتى قيل لولا الطواعين التي وقعت في أيامه لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك .

وكان تقياً في نفسه لم يشرب قط خمرًا ، ولا كان يستعمل شيئاً من الأشياء المحذرة ، وكان له اشتغال بالعلم ، كثير المطالعة في الكتب ، وله أذكار وأوراد جليلة تتلى في الجوامع . وكان له اعتقاد في الفقراء ، ويعظم العلماء ، عارفاً بمقام الناس ، ينزل كل أحد منزلته ، وكان تابعاً لطريقة الصوفية في التقشف ، وكان لا يوصف بالكرم الزائد ، ولا بالبخل المفرط ، وكان له بر ومعروف ، ووقف عدة جهات على وجوه البر والصدقة .

وكانت محاسنه أكثر من مساوئه ، ولم يخلف من الأولاد سوى ولده محمد الذي تسلطن من بعده ، ولم يتزوج مدة عمره سوى فاطمة بنت العلائي علي بن خاص. بك ، واستمرت معه إلى أن مات .

وأما ما أنشأه الأشرف قايتباي في أيام دولته من البنيان الفاخر فأشياء كثيرة ، منها أنه جدد عمارة المسجد الشريف النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام لما احترق ، وأنشأ هناك مدرسة مطلة على الحرم النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام .

وأنشأ مدرسة بمكة المشرفة عند باب السلام وعدة ربوع وأماكن بمكة المشرفة ، وأنشأ مدرسة ببيت المقدس ، ومدرسة وبيوتاً ودكاكين بدمشق ، ومدرسة بغزة ، ومدرسة بثمر دمياط ، ومدرسة بثمر الاسكندرية ، والبرج العظيم^(٢٦٨) الذي أنشأه مكان الفنار القديم والبرج الذي بثمر رشيد .

وأما ما أنشأه من البنيان في الديار المصرية ، فالجامع الذي بالصحراء مكان تربته ، وجامع بالروضة ، وجامع برأس الكبش ، وجامع بباب الخرق عند الشيخ سلطان شاه والسبيل ، والمكتب الذي بقرب تحت الربع ، وجامع لطيف خارج باب القرافة ، وجدد عمارة قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه ورحمه ، وأنشأ زاوية بالمرج والزيات ، والمدرسة بالخانقاه ، وغير ذلك من الجوامع والمدارس في أماكن شتى بالقاهرة وضواحيها . وأنشأ السبيل برأس سويقة عبد المنعم ، وأنشأ بالقاهرة عدة زوايا وسبل وصهاريج وغير ذلك ، وعدة ربوع وحوانيت في مواضع متفرقة ، وجعلها وقفاً على الدشيثة^(٢٦٩) التي كان قررها بالمدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وأما ما أنشأه بالقلعة فالمقعد داخل الحوش ، والمبيتان اللذان حوله ، والحواصل بمجوار قاعة البحرة ، وجدد عمارة الإيوان الناصري بالقلعة ، وأنشأ مواضع كثيرة بالقلعة .

(٢٦٨) راجع كتاب في رحاب دمشق ، برج طرابلس ص ٢٢٣ تأخذ فكرة عن البروج الإسلامية في السواحل .

(٢٦٩) الدشيثة : حساء بهريس القمح واللحم .

وجدد عمارة قناطر أبي المنجا ، والقناطر التي بشرمنت بالجيزة ، وأنشأ هناك رصيفاً حصل به غاية النفع في أيام النيل للمسافرين ، وجدد عمارة قنطرة باب البحر ، وجدد عمارة الميدان الكبير بجوار البركة الناصرية ، وصرف عليها جملة مال .

وجدد مقام سيدي أحمد البدوي وبناه بناء حافلاً ووسعه ، وجدد بناء زاوية الشيخ عماد الدين رحمه الله ، وجدد عمارة باب القرافة ، وأنشأ هناك الربوع ، وأنشأ مقعداً ومبيتاً وجنينة بدار البقاء تحت القلعة .

وجدد عمارة جامع الرحمة بغيط جاني بك نائب جدة ، وأنشأ عدة ربوع بالخشابين والبندقانيين ، وبالجامع الأزهر وغير ذلك ، وله عدة أماكن أنشأها وحصل بها النفع العام للمسلمين .

وأما ما أبطله في أيام سلطنته من شعار المملكة ، فخدمة القصر بالشاش والقماش ، وقد قرره الملوك السالفة لإقامة الحرمة ونظام المملكة ، وأبطل الرمايات التي تعمل ببركة الحبش ، ودخول الملوك إلى القاهرة والعسكر أمامها بالشاش والقماش ليكون يوماً مشهوداً .

وأبطل لبس الصوف بالمطعم ، وكان الملك يشق من القاهرة وهو لابس صوفاً هو والأمراء ويكون لهم يوم مشهود .

وأبطل المركب المسماة بالذهبية وكانت من شعار المملكة ولاسيا في يوم الوفاء بالنيل وكانت الملوك تتوجه فيها إلى المقياس وكان بها ستون مقذاً .

وأبطل المركب^(٢٧٠) المسماة بالدرمونة وكانت تحمل مغل الحرمين الشريفين وكانت غريبة الهيئة في شكلها .

(٢٧٠) المركب : ما يشبه العرض العسكري التجميلي .

وأبطل دوران الحمل^(٢٧١) الرجبي في أيام سلطنته وما كان يعمل فيه .
وأبطل المسائرات التي كانت تعمل في تلك الأيام وكان ينفق في مدة دوران
الحمل مالا ينحصر .

وأبطل في أيام سلطنته أشياء كثيرة من شعار المملكة لم نذكرها خوف الإطالة .
وكان آخر من مشى من السلاطين على النظام القديم مما ذكرناه الظاهر خوشقدم
رحمه الله تعالى .

وأما ما عدله من المساوي فإنه لما تولى السلطنة ، ندب يَشْبَك الدَّوَادار لما تولى
الوزارة ، فقطع لحوم^(٢٧٢) جماعة من الناس كانت مرتبة لأيتام ونساء وأرامل ، وكانت
تباع وتشتري من الناس من الديوان إلى آخر دولة الظاهر خوشقدم .

ثم فعل مثل ذلك بالجوامك وقطع عدة جوامك لجماعة من أولاد الناس ، والذي
أبقاه أخذ منه مائة دينار بمن له جامكية ألفي درهم ، وأخذ بمن له جامكية ألف درهم
خمسین ديناراً ، وذلك بسبب بدل تجريدة سوار بمن لم يسافر للتجريدة .

وأخذ من أجره الأملاك والأوقاف من الجوامع والترب بالقاهرة وغيرها أجره سبعة
أشهر ، وحصل بذلك للناس الضرر الشامل . وصادر اليهود والنصارى في أيامه
مرتين . وصادر جماعة من أعيان التجار ومن تجار الأرياف . ورمى على البلاد التي
بالشرقية شيئاً يقول له الخمس بسبب خيالة تخرج مع التجريدة إلى ابن عثمان ، وفعل
مثل ذلك بعربان جبل نابلس ثم قطع هذا الخمس من خراج المقطعين .

ومنها أنه كان ولّى جماعة من مماليكه عوضاً عن جماعة العربان ، فجاروا
أيضاً على الفلاحين وأخذوا منهم غير العادة أضعافاً . وكذلك الكشاف كان يقرر

(٢٧١) الحمل الرجبي : محل يدار به في شهر رجب من قبيل العرض الشعبي في الأحياء الكبيرة في
البلد .

(٢٧٢) المقصود : اللحوم التي كانت تمنح للأيتام صدقة .

عليهم الأموال فيجورون أيضاً على البلاد ويأخذون المال أمثالاً ، فمن يومئذ تلاشى أمر البلاد وانحط خراج المقطعين جداً .

ومنها أنه أحدث مكساً على بيع الغلال ، وجعل على كل أردب نصف فضة خارجاً عن ثمنه لمن يشتري أو يبيع ، وقد تزايد الأمر بعده في ذلك حتى صار على كل أردب نصفان .

وهو أول من أحدث تفرقة الجامكية بمحضته ، وضيق على الناس ، ولم يفعل ذلك أحد من الملوك وكان مقدم الماليك وأحد رؤوس النوب يتولى تفرقة الجامكية في الإيوان ، ولم يشعر السلطان بذلك ، فبطل ذلك واستمرت من يومئذ تنفق بحضرة السلطان .

ومنها أنه فعل بجماعة من المباشرين وغيرهم الأفعال الشنيعة ، منها شنى القاضي^(٢٧٤) ابن المقسي ، وتوسيط مجد الدين بن البقري الاستادار ، وغير ذلك مما تقدم ذكره ، وقطع يد إبراهيم بن فريعين صيرفي الجامكية وكان في سن الشيخوخة ، وعاش بعد ذلك مدة طويلة وهو أقطع ، وقد رتب له السلطان ما يكفيه إلى أن مات .

ومن محاسن الأشرف قايتباي أنه كان في شدة غضبه يستحيل في الحال راضياً ويزول ما كان عنده من الحدة وهذه من أجمل الخصال .

وبالجملة كانت محاسنه أكثر من مساوئه وكان من خيار ملوك الترك بالنسبة إلى من جاء بعده من السلاطين ولو لم يكن عنده بعض طمع لكان أجلاً ملوك الشراكسة وكان من خيارهم .

(٢٧٤) كان لفظ القاضي يطلق على بعض كبار الموظفين من غير القضاة الشرعيين .

٢ - الملك الناصر محمد بن قايتباي

تولى الملك الناصر محمد بن السلطان الملك الأشرف قايتباي بعد أبيه في ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ وله من العمر خمسة عشر عاماً ، وكان فقي غراً طائشاً ، وصفه ابن إياس بأنه جاهل عسوف ، جريء اليد ، سفاك للدماء ، سيء التدبير ، كثير العشرة للأوباش من أطراف الناس ، وقع منه أمور شنيعة في مدة سلطنته ، وسار في المملكة أقبح سيرة ، ولم يقع من أبناء الملوك من السواقط ما وقع منه في سائر أفعاله حتى جاوز في ذلك الحد ، وليس له من المحاسن إلا القليل ، وكانت مدة سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوماً . وكانت أيامه كلها فتناً وشرواً وحروباً قائمة . قتل في ربيع الأول سنة ٩٠٤ هـ عندما تأمر عليه جماعة من الأمراء قرروا مع الأمير قانصوه خاله أنه إذا قتل الناصر يكون هو السلطان .

٣ - الملك الظاهر قانصوه من قانصوه الأشرفي

تولى بعد الملك الناصر سنة ٩٠٤ هـ ، واستمر بالحكم سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً ، وكانت أيامه أصلح من أيام الملك الناصر ، إذ كان هيناً لين الجانب قليل الأذى كثير البر والمعروف ، إلا أنه كان مسلوب الاختيار من الأمراء ، وقد اختفى بعد ثورة بعض الأمراء عليه في ذي القعدة سنة ٩٠٥ هـ ، جرى في عهده تبادل القصاد مع ابن عثمان ، ولم يخل عهده من تمرد بعض النواب والأمراء ، فقد تمرد قصره نائب الشام في رمضان سنة ٩٠٥ هـ وخرج عن الطاعة . وتواطأ الدوّادار طومان باي مع قصره وتآمر مع بعض الأمراء على الملك الظاهر ليتسلطن بدلاً منه وتم له عزل الظاهر .

٤ - الملك الأشرف جان بلاط من يَشْبَك الأشرفي

وفي يوم الاثنين ثاني ذي الحجة ، صعد الأمراء العسكر إلى باب السلسلة

وتشاوروا فيمن يلي السلطنة ، وكان قصد الأمير طومان باي أن يتسلطن ، وقد ظهر ذلك فيما بعد ، ولكن كان يتقدمه الأتابكي جان بلاط ، وتاني بك الجمالي أمير السلاح ، فلم يجسر أن يتسلطن ولم يكن مرضياً عنه من العسكر ، فما وسعه إلا أن تعصب للأتابكي جان بلاط وسلطنه وتسمى جان بلاط بالملك الأشرف واستمر في الحكم حتى جمادى الآخرة ٩٠٦ هـ وكان قطيع القلب ، عسوفاً ظالماً حصل منه للناس غاية الضرر من المصادرات وأخذ الأموال ، ولو أقام في السلطنة لحصل للناس منه غاية المشقة من الظلم والأذى ففعل الله به .

وقد خنق وهو مسجون في البرج بالإسكندرية في شعبان ٩٠٦ هـ .

٥ - الملك العادل أبو النصر طومان باي الأشرفي

استمر نائب الشام قصره بعصيان فسافر إليه طومان باي وكان قد تولى منصب أمير سلاح دواداراً كبيراً ووزيراً واستاداراً وكاشفاً للكشاف ومدبراً للمملكة ، وتسلطن في دمشق وعاد وهو سلطان ، فدخل القاهرة وصحبته قصره وبقية النواب ، وحاصر القلعة وألقى القبض على جان بلاط ، وتمت له السلطنة في القاهرة في جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ هـ وكان سفاكاً للدماء ، عسوفاً ، ظالماً ، وكانت سلطنته كلها شروراً وفتناً مع قصرها ، إذ لم تدم أكثر من مئة يوم غدر بصديقه قانصوه فقتله وكان قانصوه سبب نصرته في الشام والقاهرة .

وقد عزم على الإيقاع بعدد من الأمراء يوم العيد وهم بالجامع ، فانكشفت المؤامرة وهرب واختفى إلى أن قبض عليه وقطع رأسه .

٦ - سلطنة الملك الأشرف أبو النصر قانصوه من بيبردي الغوري الأشرفي وصفاته .

ولي السلطنة يوم الاثنين الأول من شوال سنة ٩٠٦ هـ وهو كاره لها ممتنع عنها ، ولقب بالملك الأشرف ، وله من العمر نحو ستين سنة ، ولعل وصف ابن

إيأس له ولفترة حكمه وأعماله توضح لنا بجلاء وضع الدولة والشعوب المحكومة في عهده .

« كانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها بألف سنة مما تعدون ، وكانت صفته طويل القامة ، غليظ الجسد ، ذا كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهوري الصوت ، مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلاً .

وكان ملكاً مهاباً جليلاً مبجلاً في المواكب ملئ العيون في المنظر ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال لكان خيار ملوك الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطبة . وكان يوكب يوم الاثنين والخميس بالحوش السلطاني ، ويوم السبت والثلاثاء بالميدان ، فينزل من السبع حدرات وقدامه طوالتين خيل بسروج ذهب وكناييش ومياتر زركش . وكان يكثر في الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوي والركب العراض ويشد في وسطه حياصة^(٢٧٥) ذهب عوضاً عن الشد البعلبكي ويلبس في أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر .

وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور ، ترفاً في مأكله ومشربه وملبسه ، يحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويُميل إليه أبناء العجم ، وربما كان يميل إلى مذهب النسيية من ميله إلى معاشره الأعاجم ، وكان مولعاً بغرس الأشجار ، وحب الرياضات ، وسماع الطيور المفردة ، ونشق الأزاهر العطرة والبخور ، وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء ، وكان نهماً في الأكل ، يغوى طيور السموع ، وكان يعرف بقانصوه من يبردي الغوري .

(٢٧٥) الحياصة : الخزام الذي يوضع في وسط الجسم .

واستمر يرتع في ملك مصر على ما ذكرناه من التمتع والرفاهية وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة ، والأمراء والنواب والعسكر في قبضة يده ، لم يختلف عليه اثنان إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم فخرج إليه ، وجرت له الكاينة العظمى التي لم تقع قط لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك ، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وقد قلت في معنى ذلك :

طالع تواريخ الملوك فهل ترى	سُمت لهم بحوادث مما جرى
لا زالت الأيام يبدو فعلها	بعجائب وغرائب بين الورى
لكن هذا حادث ما مثله	سبقت لسلطان ولا متأمرأ
والأشرف الغوري كان مليكنا	لكنه قد جار فينا وافترى
والموت أوجب هزمه مع جيشه	قد كان ذلك في الكتاب مسطرا
أعماله ردت عليه بما جنى	والدهر جازاه بأمر قدرا

وكان للغوري محاسن ومساوئ ولكن مساوئه أكثر من محاسنه .

فأما ما عد من محاسنه : فإنه كان رضي الخلق ، يملك نفسه عند الغضب ، وليس له بادرة بجدّة عند قوة خلقه ، ومنها أنه كان له الاعتقاد الزائد في الصالحين والفقراء ، ومنها أنه كان يُصَرِّف مقادير الناس على قدر طبقاتهم ، ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس في شدة غضبه ، ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء وله نظم على اللغة التركية ، وكان مغرماً بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار ، وكان قريباً من الناس يحب المزح والمجون في مجلسه غير كثيف الطبع في ذاته ، وكان عنده لين جانب ورياضه بخلاف طبع الأتراك ، ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك في أفعالهم .

وأما ما عدّ من مساوئه فإنها كثيرة لا تحصى :

فقد أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لم يحدث في سائر الدولة من قبل ، منها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات ، جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز في ملة من الملل .

ومنها ما قرره على الحسبة^(٢٧٦) في كل شهر ، وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار ، فكانت السوق تتبع البضائع بما تختاره من الأثمان ، ولا يقدر أحد يكلمهم فيقولون : علينا مال للسلطان ، فكانت سائر البضائع في أيامه غالية بسبب ذلك .

وقرر على دار الضرب مالا له صورة في كل شهر ، فكانوا يصنعون في الذهب والفضة النحاس والرصاص جهاراً ، فكان الأشراف في الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوي اثني عشر نصفاً ، وقد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين ، فلعب في أموال المسلمين ، وأتلف المعاملة وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منهم لا دينار ولا درهم ، فلما شنع جمال الدين قرر في دار الضرب المعلم يعقوب اليهودي ، فشئ على طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين ، فكان النصف فضة ينكشف في ليلته ويصير من جملة الفلوس الحر ، فاستمر الغش في معاملته في مدة دولته إلى أن مات ، وقد ورد في الحديث الشريف من غشنا فليس منا .

ومن مساوئه أنه كان سجن الرئيس كمال الدين بن شمس المزين بالمقشرة وأقام بها أياماً وكان من المقربين عنده .

ومن مساوئه أنه كان يضع يده على أموال التركات الأهلية ويأخذ مال الأيتام ظمناً ولو كان للميت أولاد ذكور وإناث فيمنعهم من ميراثهم ويخالف أمر الشرع الشريف .

(٢٧٦) الحسبة تعادل في عهدنا وظيفة البلديات وتشمل مراقبة النظافة والأسعار والصحة والبيع والشراء .

ومنها أنه كان يولي الكشف ومشايخ العربان على البلاد ، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة فتفرد الكشف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف ، فيأخذ كل منهم المثل أمثال ، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد .

وكذلك كان يولي النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والحلبية ويقرر عليهم الأموال الجزيلة في كل سنة بقدر معلوم ، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف ، فكان كل واحد منهم يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها من عظم الظلم الذي يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذي أفرده عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة ، فما حصل على أهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنع التجار من دخول بندر^(٢٧٧) جدة وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات^(٢٧٨) من مصر والأرز والانطباع وخرب البندر ، وكذلك بندر الاسكندرية وبندر دمياط ، فامتنع تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الفرنج .

وكان كل أحد من الأرازل يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرر على بيع الغلال قدر معلوماً يؤخذ على كل أردب ، وهي ثلاثة أنصاف من البائع والشاري ، وكذلك على البطيخ والرمان ، حتى صرح على بيع الملح .

وجدد في أيامه عدة مكوس من هذا النمط ، ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره وأخذ أمواله ، ولا سيما ما جرى على الشيرازي والحليبي التاجر وغيره من التجار .

(٢٧٧) البندر : الميناء .

(٢٧٨) الشاشات : جمع شاشة وهي ما يلف على الرأس من قماش .

وصادر حتى أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب وأخذ منه مالا له صورة ،
ودخل في جملة ديون حتى أورد ما قرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال : منهم القاضي بدر الدين بن مزهر
كاتب السر ، ومنهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس ، وعلم الدين
كاتب الخزانة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من المباشرين والعمال ، ماتوا في سجنه
بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ورزقهم
من غير سبب وأعطى ذلك إلى مماليكه الجلبان .

ومنها قطع جوامك الأيتام من الرجال والنساء والصغار ، فحصل لهم الضرر
الشامل بسبب ذلك .

ومنها أنه فك رخام قاعة ناظر الخاص يوسف التي تسمى نصف الدنيا ،
فوضع ذلك الرخام في قاعة البيسرية التي بالقلعة .

ومنها أنه قطع المعتدات^(٢٧٩) التي كانت تسامح بها الناس من الديون المفرد
من تقادم السنين ، وجدد أخذ الحمايات^(٢٨٠) من المقطعين من قبل أن يزيد النيل
وتزرع الأراضي ، فكان المقطعون يقاسون من البهدة مالا خيرا فيه .

وقد تزايد شحه حتى صار يحاسب السواقين الذين في سواقي القلعة ،
والخولة^(٢٨١) الذين في سواقي الميدان بجلة روث الأبقار وما يتحصل من ذلك في
كل يوم ، وقرر عليهم بيعها بمبلغ يردونه للذخيرة .

وكان أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه في غاية الضنك لا يغفل

(٢٧٩) المعتدات : ما جرت عليه العادة .

(٢٨٠) الحمايات : ما يؤخذ من المال مقابل الحماية .

(٢٨١) الخولة : القائون على خدمة الخيول .

عنهم من المصادرات ساعة واحدة ، وصادر حق المغاني النساء من الرؤساء .
وكان من حين توفي الأمير خيربك الخازندار يباشر أمر ضبط الخزانة بنفسه
ما يدخل إليها وما يخرج منها ، ويعرضون عليه الأمور في ذلك جميعه من
الوصلات بما يصرف من الخزائن في كل يوم . فكانت هذه الأموال العظيمة التي
تدخل إليه يصرفها في عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخرف الحيطان والسقوف
بالذهب ، وهذا عين الإسراف لبیت مال المسلمين .

وكان يهرب من المحاكمات كما يهرب الصغير من الكتاب ، وما كانت له محاكمة
تخرج على وجه مرض بل على أمور مستفجة .

وكان يتغافل عن أمور القتلى ، ويدفع الأخصام إلى الشرع ، ويضيع حقوق
الناس عليهم ، وكان يكسل عن علامة المراسيم فلا يعلم على المراسيم إلا قليلا ،
فيوقف أشغال الناس بسبب ذلك ، حتى كانت تشتري العلامة^(٢٨٢) العتيقة بأشرفي
حتى تلصق على المرسوم لأجل قضاء الحوايج . (ابن إياس ٥ / ٩٢) .

ولو شرحنا مساوئه كلها لطال الشرح في ذلك . ووصفه ابن إياس أيضاً
بقوله : إنه كان أخس خلق الله وأبخلهم على الإطلاق .

ونضيف إلى ذلك أن الوظائف لم تكن تمنح إلا مقابل الرشوة ففي حوادث
ذي القعدة سنة ٩١٩ هـ يذكر ابن إياس في معرض حديثه عن تعيين أربعة
قضاة : « فعَدُوا ذلك من النوادر الغربية لا سيما بولاية هؤلاء الأربعة في يوم
واحد ، وأعجب من هذا أن السلطان لم يأخذ من هؤلاء القضاة الذين تولوا ولا
الدرهم الفرد ، وقد فاته في ولاية هؤلاء القضاة الأربعة نحو اثني عشر ألف
دينار ، فعَد ذلك من النوادر الغربية » . ولم تكن هذه المساوئ مقصورة على
القاهرة ، بل كانت تتكرر بشكل أو بآخر على يد نوابه في سائر أنحاء المملكة .

(٢٨٢) العلامة : ما يقابل في عصرنا الطابع الذي يلصق على المعاملات الرسمية .

هذه صورة الأوضاع الداخلية للدولة المملوكية ، وغني عن الشرح أن أعمال وصفات هؤلاء السلاطين لا يمكن أن تساعد على ازدهار الدولة وتزايد قوتها ، بل أدت إلى تدهور أحوال البلاد وتسارع ضعفها وانحدارها .

أما العلاقات الخارجية فتميز فيها ثلاث سمات :

١ - قيام علاقات ود وصداقة بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية ، وبخاصة خلال حكم بايزيد الثاني (أبو يزيد) ، وقد تفاوضت الدولتان لتتقفا معاً أمام خطر الدولة الصفوية في إيران ، وكثر قدوم الوفود العثمانية - القصاد - إلى القاهرة وكانت تجري لهم الاحتفالات العسكرية وتقام ألعاب الفروسية بغية إظهار قوة الدولة وعظمتها .

واستمرت هذه العلاقات حتى وفاة بايزيد الثاني سنة ٩١٨ هـ حين تولى ابنه الأصغر السلطان سليم ، فسار على سياسة التطاهر بالصداقة والود ، بينما كان يخفي أطماعه في أملاك الدولة المملوكية ، ويهيء نفسه لهذا الأمر ، بعد أن اطلع بشكل جلي على أحوال البلاد عن طريق الهاربين من الغوري مما سيرد ذكره .

٢ - ظهور خطر الدولة الصفوية والتي هاجمت قواتها الأراضي الواقعة على الحدود الشمالية لبلاد الشام ، إلا أن نواب السلطان الغوري استطاعوا رد الصفويين .

٣ - تزايد الخطر البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وفقدان الدولة لنفوذها في هذين البحرين .

السلام والعلاقات الحسنة بين الدولتين :

ساد السلام وحسن الجوار بين الدولتين العثمانية والمملوكية بين سنتي ٩٠٦ هـ و ٩٢٠ هـ . تعرضت خلالها حدود الدولة المملوكية لاعتداءات الصفويين .

وفيا يلي تفصيل لهذه الأحداث سنة فسنة :

فعلى أثر تولي السلطان قانصوه الغوري سنة ٩٠٦ هـ ، فرّ دولت باي نائب الشام - وكان قريباً للملك العادل طومان باي ، وقد بلغه ما حل بالملك العادل ، فخشي على نفسه - إلى بلاد ابن عثمان ملك الروم ، ويبدو أنه حرصه على غزو بلاد السلطان فلم يصغ إليه ، ثم اتصل بعلي دولات الذي أرسل ولده فشجع له عند السلطان وحضر بالأمان في رجب سنة ٩١١ هـ .

وفي ذي القعدة من سنة ٩٠٦ هـ ، عاد قانصوه الخازندار ، وكان الظاهر قانصوه خال الناصر أرسله قاصداً إلى ابن عثمان ملك الروم .

وفي جمادى الأولى سنة ٩٠٨ هـ حضر إلى القاهرة قاصد ابن عثمان ملك الروم ، وصحبته مقدمة حافلة إلى السلطان ، فأوكل السلطان في ذلك اليوم موكباً عظيماً بالحوش وكان يوماً مشهوداً .

الاحتفال بقاصد ابن عثمان :

وفي جمادى الآخرة عزم السلطان قاصد ابن عثمان في الميدان الواقع تحت القلعة ، وأحضر في ذلك اليوم عدة مماليك يرمون بالنشاب على الخيل ، ونصب لهم هناك القبق^(٢٨٣) يرمون عليه ، وأحرق النفط بالنهار أمام القصاد وكان يوماً مشهوداً . وذلك محاولة منه لإظهار براعة جنوده بالقتال .

وفي الشهر المحرم سنة ٩٠٩ هـ ، خرج الأمير تاني بك الخازندار الذي تعين قاصداً إلى ابن عثمان ملك الروم ، فخرج وصحبته هدية حافلة إلى ابن عثمان . وعاد في ذي القعدة من نفس السنة بعد غيبة استغرقت نحو عشرة أشهر .

وفي ذي الحجة سنة ٩١١ هـ ، حضر شخص من أولاد علي دولات - شقيق

(٢٨٣) القبق : هو الهدف المستعمل في ألعاب الرماية ويصنع من الذهب والفضة في الاحتفالات .

سوار أمير التركان - وصحبته مقدمة حافلة للسلطان ، فأكرمه وخلع عليه وسافر في صفر سنة ٩١٢ هـ بعد أن حملهُ السلطان مقدمة حافلة إلى علي دولات .
وفي ذي القعدة سنة ٩١١ هـ ، حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، فأكرمه السلطان وأحسن إليه .

اعتداءات الصفويين :

وفي ربيع الآخر سنة ٩١٣ هـ ، جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن إسماعيل شاه بن حيدر الصوفي^(٢٨٤) قد تحرك على بلاد السلطان ، ووصل أوائل عسكره إلى ملطية ، وحكوا عنه أموراً شنيعة في أفعاله ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد للغاية ، وجمع الأمراء وضربوا مشورة في أمر الصوفي ، فأشار الأمراء على السلطان أن يرسل تجريدة ، فنادى للعسكر بالعرض فطلع العسكر قاطبة إلى القلعة فعرضهم وكان قاصد ابن عثمان حاضراً .

وفي جمادى الأولى من نفس السنة ، جاءت الأخبار بأن عساكر الصوفي عدت من الفرات ، ووصل جاليشهم^(٢٨٥) إلى أطراف بلاد السلطان ، وأن علي دولات جمع التركان وخرج إليهم وتحارب معهم .

(٢٨٤) إسماعيل الصوفي : هو المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية في إيران ، قضى على دولة آق قيونلو التركانية - الغم الأبيض - في معركة شرور سنة ٩٠٧ هـ ، واتخذ تبريز عاصمة له ، واستولى على كامل إيران وقضى على الدول الصغيرة المتفرقة فيها ، وتوسع شرقاً حتى هرات في أفغانستان ، وامتدت دولته غرباً حتى الفرات ، وكان المذهب الرسمي لدولته المذهب الشيعي ، وقد نسب ستانلي بول الصفويين في كتابه الدول الإسلامية (٥٦٩/٢) إلى العرب وذكر أنهم ينحدرون من الإمام السابع موسى الكاظم .
(٢٨٥) التعليقة ٦٩ .

هزيمة الصفويين وشح الغوري :

وفي جمادى الآخرة حضر قاصد من عند علي دولات ، وأخبر أنه لما توجه إلى عسكر الصوفي ، تحارب معهم فكسروهم كسرة قوية ، فانهزموا نحو بلادهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وأرسل علي دولات عدة رؤوس ممن قتل من عسكر الصوفي ، وفيهم شخص من أمرائه حياً وعلى رأسه طرطور أحمر . فلما عرضوا على السلطان سرّ بهذه الواقعة وأمر بأن تعلق تلك الرؤوس على باب زويلة . فلما تحقق صحة هذه الواقعة بطل أمر تلك التجريدة التي عينها إلى الصوفي ، ورسم بإعادة النفقة التي كان نفقها على العسكر بسبب التجريدة ، فتوجهت إليهم الطواشية^(٢٨٦) لاستعادة النفقة ، فشق ذلك على الممالك ، وكانوا تصرفوا في غالبها ، فلما بلغ السلطان ذلك رسم بأن يترك ثمن الجمل الذي كان أعطي لكل منهم وقدره سبعة دنائير ، ويعيدوا الباقي .

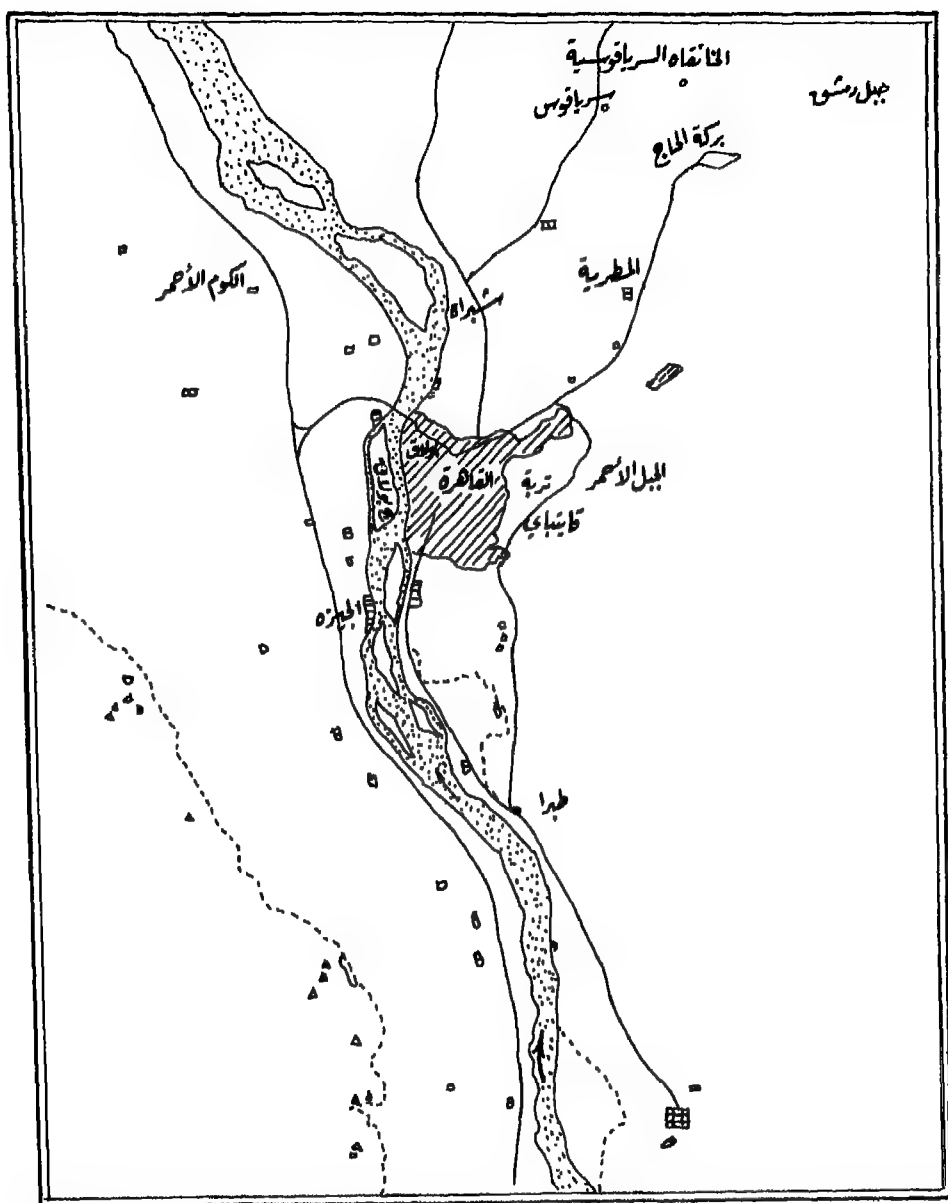
وفيه أيضاً خلع السلطان على قاصد أبي يزيد بن عثمان خلعة سنية وألبس جماعته سلاريات وشققاً وصموراً وأذن لهم بالعودة إلى بلادهم .

مظهر آخر للاحتفال بالقصاص :

وفي جمادى الآخرة أيضاً عزم السلطان على قاصد ابن عثمان في قاعة البحرة ، فأظهر في ذلك اليوم غاية العظمة في الفرش وفي الأسمطة والفواكه والحلوى وملاً صحن فرعون الذي تحت شباك قاعة البحرة سكرأ بماء الليمون برسم جماعة القاصد ، وعند الانصراف خلع على القاصد كاملية مخملاً بصمور فاخر وكان يوماً حافلاً جداً .

وفيه أيضاً حضر الأبواب الشريفة شخص يقال له كمال من خواص جماعة ابن

(٢٨٦) الطواشية : جمع طواشي وهم الممالك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحرمة .



المصور (٥) القاهرة القديمة وميدان معركة الريدانية

عثمان وقد قالوا عنه بأنه لا يكل ولا يمل من الجهاد في الفرنج ليلاً ونهاراً حتى أعبي الفرنج أمره ، وأنه رأس المجاهدين المرابطين في الإسلام . فلما حضر أكرمه السلطان وبالع في إكرامه وخلع عليه ، فأقام بمصر مدة يسيرة ورجع إلى بلاده .

اعتذار إسماعيل الصفوي :

وفي شعبان من سنة ٩١٣ هـ حضر قاصد من عند إسماعيل شاه الصوفي ، وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أن الذي وقع من عسكره في دخولهم إلى أطراف بلاد السلطان لم يكن عن إذنه ، ولا علم له بذلك ، فأكرم السلطان ذلك القاصد ، وأوكل له بالجلوس موكباً حافلاً وكان هذا القاصد ، هو وجماعته في غاية الغلاسة .

زيارة ابن بايزيد والاحتفال به :

وفي محرم من سنة ٩١٥ هـ عين السلطان الأمير علان الدوادار الثاني بأن يتوجه قاصداً إلى ابن عثمان ملك الروم .

وفي صفر من نفس السنة جاءت الأخبار من دمياط ، بأن شخصاً من أولاد ابن عثمان ، يقال له قُرُقْد بيك ، قد وصل إلى دمياط فلما تحقق السلطان من ذلك ، عين لملاقاته الأمير أقباي أمير آخور ثاني . وازدمر المهمندار ونانق الخازن ، وأرسل صحبتهم ملاقة حافلة من كل نوع فاخر ، وجَهَز المراكب حتى الحراقة الكبيرة^(٢٨٧) التي يكسر فيها السد ليحضر ابن عثمان فيها من البحر ، وجهز له حراقة نفط تحرق أمامه في البحر .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر صفر وصل قُرُقْد بيك بن عثمان إلى شبرا^(٢٨٨) ،

(٢٨٧) الحراقة : سفينة كبيرة حربية كانت تحمل الأسلحة النارية .

(٢٨٨) شبرا : كانت تقع إلى الشمال من القاهرة وهي الآن جزء منها (المصور ٥) .

وهو قُرُقْد بن أبي يزيد بن محمد بن مراد بيك المتصل بالنسب إلى جدهم عثمان ، فلما وصل إلى شبرا أخلى له السلطان قاعات البرانجية التي ببولاق^(٢٨٩) ، ورسم لناظر الخاص بأن يحضر جميع ما يحتاج له من فرش وأوان وصيني وغير ذلك من الاحتياج ، فخرج جماعة من الأمراء إلى ملاقاته وكان السلطان رسم للكشاف ومشايخ العربان بأن يلاقوه بطول الطريق ، ويضعوا له الأسمطة والمدات الحافلة ، فأرموا^(٢٩٠) على بلاد المقطعين أشياء كثيرة من أغنام وإوز ودجاج وغير ذلك ، واستمر على ذلك حتى وصل إلى قاعات البرانجية وهو في الحراقة التي يكسر فيها السد .

فلما دخل البرانجية ، مد له السلطان هناك مدة حافلة ، ثم توجه إليه الأتابكي قرقاس والأمراء المقدمون قاطبة ، فسلموا عليه ، ثم توجه إليه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف فشرع يقوم لكل من يجيء إليه من الناس .

وخلال إقامته في القاهرة ، أحسن السلطان استقباله وضيافته وأفاض في إكرامه وبالع في خلعه عليه ، وبعث إليه بعشرين ألف دينار عشرة فضة وعشرة ذهب ، ثم رتب له راتباً شهرياً قدره / ٢٠٠٠ دينار ، وكان سبب مجيئه إلى السلطان أن خلافاً وقع بينه وبين أبيه فحضر إلى السلطان ليصلح بينهما . وبقي حتى ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ عندما استأذن السلطان في العودة إلى بلاده فأذن له .

وفي أثناء ذلك عين السلطان الأمير علان الدوادار قاصداً إلى ابن عثمان ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٩١٥ هـ ، وقد سافر وعاد في ربيع الأول سنة ٩١٦ هـ وقد بالغ ابن عثمان في إكرامه وأحسن إليه .

(٢٨٩) بولاق : أحد أحياء القاهرة القديمة ويقع إلى الشمال الشرقي منها (المصور ٥) .

(٢٩٠) أرموا : بمعنى فرضوا .

هدية بايزيد إلى السلطان الغوري :

وفي رجب من السنة نفسها حضر يونس العادلي وكان السلطان أرسله إلى بلاد ابن عثمان ليشتري له أخشاباً وحديداً وباروداً ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك ، رد المال الذي كان مع يونس العادلي ، وقال : أنا أجهز من عندي زردة خاناه للسلطان ، وقد وصلت فعلاً محملة على عدة مراكب في شوال ، وشملت : مكاحل سبقيات العدد ثلاثماية ، ونشاب ثلاثون ألف سهم ، وبارود مطيب أربعون قنطاراً ، ومقاذيف خشب العدة ألفا مقذاف ، وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب ومراسي حديد وغير ذلك مما تحتاج إليه المراكب .

اعتداءات الصفويين وردهم :

وفي محرم سنة ٩١٨ هـ حضر قصاد من عند نائب حلب وأخبروا بأن أوائل عسكر إسماعيل شاه الصوفي قد وصل إلى البيرة ، وأن جماعة من عسكر البيرة التف على عسكر الصوفي فتكد السلطان في ذلك اليوم .

وفي ربيع الأول أرسل نائب سيس إلى السلطان عشرة رؤوس وعليهم طرايطر حمر وقيل إنهم من عسكر الصوفي كانوا يفسدون في البلاد ، فقبض عليهم نائب سيس وحز رؤوسهم وأرسلهم إلى السلطان ، فلما عرضوا عليه رسم ياشهارهم على رماح ، فأشهرهم في القاهرة على رماح ، ثم علقوهم على باب النصر وباب الفتوح .

وفي ربيع الآخر وصل الأمير تمر باي الهندي أحد الأمراء العشرات ، وكان قد أرسله السلطان قاصداً إلى الصوفي إسماعيل ، وكانت مدة غيبته نحو سنتين ولم ينصفه ولم يكرمه ولم يقابله غير مرة واحدة . ولم يكتب له الجواب عن مطالعة السلطان وأرسل جوابه صحبة قاصده ، وعندما قابل السلطان القاصد وقرأ

مطالعة الصوفي وجد فيها ألفاظاً يابسة وكلاماً فجاً ولم ينشرح السلطان لذلك .
وفي جمادى الأولى سنة ٩١٨ هـ ورد نبأ وفاة ملك الروم السلطان أبو يزيد
ابن السلطان محمد بن السلطان مرادخان ، فحزن عليه السلطان الغوري وبكى
وصلى عليه صلاة الغيبة بعد صلاة الجمعة .
وفيه أيضاً أحضر السلطان قصاد الصوفي وخلع عليهم وكتب إلى الصوفي
جوابه وفيه عبارات وألفاظ قاسية .

نصوص وإضافات على الرحلة

٥

النزاع بين المماليك والعثمانيين وزوال الدولة المملوكية

- مقدمات النزاع وأسبابه - بدء الفتنة ورد الفعل .
- خروج السلطان الغوري إلى حلب - معركة مرج دابق .
- السلطان سليم الأول في دمشق - سلطنة طومان باي في القاهرة .
- الزحف العثماني نحو مصر - معركة الريدانية .
- أعمال السلطان سليم في القاهرة .
- ثورة جانبردي الغزالي في دمشق .

النزاع بين المماليك والعثمانيين وزوال الدولة المملوكية

مقدمات النزاع بين المماليك والعثمانيين

ما إن تسلم السلطان سليم مُلكَ بني عثمان سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) ، حتى أعمل السيف في رقاب إخوته وأبنائهم^(٢٩١) ، وانعكس ذلك على علاقاته مع السلطان قانصوه الغوري ، ففي ذي القعدة سنة ٩١٨ هـ ، حضر أحد أولاد أحمد بيك بن بايزيد ويدعى سليمان بيك ، فأكرمه السلطان وأحسن استقباله ، وقيل إن والده أحمد بيك فر من أخيه سليم شاه وتوجه إلى الشاه إسماعيل الصوفي ، وحضر ابنه إلى عند السلطان فما انشرح السلطان لذلك وخشي ما ينتج عن هذه الحركة .

وفي العاشر من ذي القعدة خلع السلطان على الأمير أقباي أمير آخورتاني ، وعينه بأن يتوجه قاصداً إلى السلطان سليم لتهنئته بالملك ونسج مودة بينهما .

وفيه أيضاً حضر المقرء علاء الدين بيك أخو سليمان بيك أولاد المقرء الشهابي أحمد بن السلطان أبي يزيد بن عثمان ملك الروم . وقد بقي الشقيقان في مصر ، وتوفي سليمان في صفر ، وعلاء الدين في ربيع الأول سنة ٩١٩ هـ بالطاعون . وفي ربيع الأول جاءت الأخبار بأن سليم شاه قتلَ خنقاً بوتر شقيقه قُرُقْد الذي كان قد حضر إلى مصر .

(٢٩١) عرف عن السلطان سليم أنه كان سفاكاً للدماء فقد قتل جميع إخوته خشية أن ينافسه أحد منهم على الملك ، وقد مر في المقدمة عند الحديث عن إمارة دلغادر أنه قتل علي دولات وهو جده لأمه بعد أن حرّض عليه علي بك بن شاه سوار وأمدّه بالسلاح والعساكر .

ولا شك أن حضور سليمان وعلاء الدين إلى القاهرة قد أثار حفيظة سليم شاه ، ولكنه أخفى ذلك بغية الخلاص من إسماعيل الصوفي أولاً ، ففي ربيع الأول سنة ٩٢٠ هـ حضر إلى القاهرة قاصد يعرض تحالف ابن عثمان مع السلطان ضد إسماعيل الصوفي ، وقد كتب السلطان له الجواب وغادر القاصد القاهرة في الشهر نفسه .

وفي ربيع الآخر عاد أقباي الطويل الذي أرسله السلطان الغوري إلى السلطان سليم وقد بالغ السلطان سليم في إكرامه .

وعزم السلطان على الوقوف على الحياد في النزاع بين الصوفي والسلطان سليم ، ولكنه خشي من اعتداء المنتصر على بلاده ، فجمع الأمراء وتشاور معهم في ربيع الآخر ، وتقرر إرسال تجريدة إلى حلب لتحسينها وردع المعتدي .

وغادر القاصد العثماني القاهرة ، وقد صحبه إينال باي الذي أرسله السلطان ليكشف له أخبار النزاع بين الصوفي وسليم شاه بالسرعة القصوى .

وفي رمضان سنة ٩٢٠ هـ ، جاءت الأخبار من بلاد الشرق بنصرة سليم شاه على إسماعيل الصوفي بعد معركة رهيبة^(٢٩٢) بين الطرفين جرت في السادس من رجب ، كانت الكسرة فيها أولاً على ابن عثمان ، وآخر الأمر على الصوفي الذي قُتل غالب عسكره ، وكانت نقطة التحول في المعركة استعمال سليم شاه لاثني عشر ألف رام بالبندق والرصاص . فلم يرسم السلطان بدق الكوسات لهذا الخبر ، وأخذ الأمراء حذرهم من ابن عثمان وخشوا من سطوته وشدة بأسه ، وقد حضر قاصد من ابن عثمان بهذه الأخبار فأكرمه السلطان وأحسن إليه .

(٢٩٢) هي معركة جالديران وتكتب أيضاً تشالديران باسم الموقع الذي جرت فيه قرب تبريز سنة ٩٢٠ هـ - ١٥١٤ م وانتهت بانتصار العثمانيين وضم ديار بكر وما حولها إلى أملاكهم .

أسباب النزاع

تعود الأسباب البعيدة للنزاع بين الدولتين العثمانية والمملوكية إلى الأوضاع العامة لكل منهما في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين .

فقد استطاع ملوك آل عثمان أن يتوسعوا في أوروبا بعد أن أسسوا جيشاً قوياً دعموه بالأسلحة النارية - المدافع والبنادق - . وتمكن السلطان محمد الفاتح من القضاء على آخر معقل بيزنطي في مملكته ألا وهو القسطنطينية سنة ٨٧٥ هـ - ١٤٥٣ م واستمر الفتح في عهده وعهد ابنه بايزيد في شبه جزيرة البلقان .

ومع تولي سليم ابن بايزيد للسلطة كانت المقاومة الأوربية للفتح العثماني قد اشتدت بينما ظهر في الشرق الخطر الصفوي ، فقد عمد الشاه إسماعيل الصفوي إلى محاولة مدّ نفوذه في أراضي الدولة العثمانية ونشر مذهبه الشيعي في مناطق الحدود ، بينما كان العثمانيون يتبعون مذهب أهل السنة ، ومع اشتداد النزاع على الحدود كان لا بد من امتصاص قوة الجيش العثماني بنصر جديد .

التفت سليم إلى الشرق واتجه نحو الشاه إسماعيل الصفوي في إيران واستطاع أن يلحق بجيشه هزيمة كبيرة في معركة جالديران قرب تبريز (سنة ٩٢٠ هـ - ١٥١٤ م) بفضل المدافع التي استعملها ورماة البندق .

وفي الوقت الذي عرض فيه سليم على قانصوه الغوري إقامة تحالف مشترك ضد إسماعيل الصفوي ، رفض السلطان الغوري هذا العرض واكتفى بموقف المتفرج ، لا بل أرسل الغوري نديمه العجمي الشنقجي إلى الشاه إسماعيل الصفوي سراً ، لعقد تحالف ضد السلطان سليم وقد وصلت أخبار هذا التحالف إلى سليم .

وبدأت الأحداث تتسلسل لتثير نقمة السلطان سليم على المماليك .

فقد ألجأ الغوري سليمان بك وعلاء الدين بك أولاد أحمد شقيق السلطان

سليم إلى مصر ، واستقبلها بالحفاوة والترحيب . ورغم أن إقامتها لم تطل في القاهرة بسبب وفاتها بالطاعون ، إلا أن هذا العمل قد أثار حفيظة السلطان سليم وحنقه ، لكنه كظم غيظه إلى الوقت المناسب .

فالسُلطان سليم الذي عمد إلى قتل جميع أشقائه خشية منازعتهم له على الحكم لم يكن ليعتبر استقبال الغوري لأبناء شقيقه عملاً ودياً .

وساعد على تزايد رغبة السلطان سليم بالسيطرة على أملاك الدولة المملوكية ، هرب خوشقدم شاد الشون^(٢٩٣) لدى السلطان ، وهو من بماليك قانصوه الغوري - وكان الغوري قد صادره وأخذ منه خمسة آلاف دينار - وكان خوشقدم متزوجاً بنت جاني بيك دوا دار طراباي الذي كان ناظر الديوان ، وقد قبض السلطان على جاني بيك ، وأمر خوشقدم بطلاق ابنته غصباً وخشي خوشقدم إلزامه دفع ما تأخر على جاني بيك من أموال ، فهرب إلى سليم شاه ، وكان له أخ مقيم عند سليم شاه من أخصائه ، وقد أكرم سليم شاه خوشقدم الوافد إليه ، وأخذ هذا يحرض ابن عثمان على السلطان ، ويخبره بأفعاله وشتى المظالم التي كان قد أحدثها ، ومنها المشاهرة^(٢٩٤) والمجاعة على أرباب البضائع من المال ، والغش في المعاملة بالذهب والفضة ، وأعطاه تفصيلات كاملة عن أحوال مصر وجيش المماليك وعن مينائي الاسكندرية ودمياط ، وعن قضاة مصر وأخذهم الرشوة على الأحكام الشرعية ، وما إلى ذلك من سوء الأوضاع الداخلية . ويبدو أنه ساعده على الاتصال ببعض نواب السلطان أمثال خاير بك نائب حلب

(٢٩٣) شاد الشون : شاد لفظة استعملت في العصر المملوكي بمعنى مأمور أو مدير تضاف لاسم الوظيفة ، فيقال شاد الأوقاف ، وشاد الدواوين بمعنى ناظر الأوقاف أو مديرها ، وناظر أو مدير الدواوين ، وشاد الشون يقصد به قائد الأسطول والمسؤول عنه .

(٢٩٤) المشاهرة والمجاعة : إحدى الضرائب التي فرضت في عهد السلطان قانصوه الغوري وهي أموال فرضت على الباعة ، مما ساعد على جور الباعة ورفع الأسعار بحجة أن عليهم مال للسلطان يدفع شهرياً وقد بلغ وارد هذه الضريبة أكثر من ألفي دينار شهرياً .

وجانبردي الغزالي نائب حماة ، وبعض أخصائه أمثال يونس العادلي وإبراهيم السمرقندي والعجمي الشنقجي مما سيرد ذكره لاحقاً .

كل هذه الأسباب جعلت ابن عثمان يبدأ التحرش ، وقد أزمع على المضي في هذا السبيل فأثار علي باك بن شاه سوار ضد عمه علي دولات ودعاه بما يحتاج إليه من الجند ، ثم حارب علي دولات - جَدّه - وقتله وأولاده ، وقضى على إمارته ونصب ابن شاه سوار بدلاً عنه .

بدء الفتنة :

في الشهر المحرم سنة ٩٢١ هـ حضر إلى القاهرة قاصد من عند السلطان سليم يحمل رسالة للسلطان تتضمن أن خلافاً حدث بين أحد أولاد شاه سوار وبين عمه علي دولات وقد بدأ بينهما بعض الصدام وتعصب السلطان سليم لابن سوار - علي باك - وأرسل يسأل السلطان أن يعطيه بلاد أبيه التي يحكمها علي دولات .

ثم تواترت الأنباء عن هجوم علي باك على عمه علي دولات وتقهقر علي دولات إلى قلعة زمنطوا بعد مقتل ابنه في المعركة وقد قدم السلطان سليم العساكر لعلي باك .

وأرسل علي دولات إلى السلطان بقاصد حَمَلَه رسالة يذكر فيها ما حدث بينه وبين علي باك - ابن أخيه - وبين مدى تعصب ابن عثمان لعلي باك ودعاه له . فجمع السلطان الأمراء للتشاور في الأمر وتقرر إرسال أربعة من الأمراء المقدمين إلى حلب . وإرسال قاصد إلى ابن عثمان ، وتم اختيار الخاصكي جانم للتوجه إلى السلطان سليم وكان من ذوي العقول الراجحة وقد سافر فعلاً في شهر صفر .

وبعد معركة جالديران حدثت مناوشات بين علي دولات وبعض عساكر ابن عثمان ، أرسل السلطان سليم على أثر ذلك قوات كبيرة احتلت بلاد علي دولات الذي قُتل وحُزَّ رأسه وعيّن علي باك بدلاً عنه .

رد الفعل

أثارت هذه الحوادث السلطان والأمراء ، فأعلن السلطان النفير العام بالجند ، وأنه سيخرج إلى حلب بنفسه على رأس الجيش وذلك في شعبان سنة ٩٢١ هـ .

وفي أوائل رمضان سافر إلى الاسكندرية ورشيد لتفقد أحوال الأبراج ، وأرسل البنائين والحجارين لعمارة ما خرب منها وتحصينها ، وذلك لرد أية غزوة بحرية يمكن أن يرسلها ابن عثمان ، وبعد عودته بدأ بالاستعداد للخروج إلى حلب .

وفي شوال حضر إلى القاهرة ابن علي دولات الكبير ، واجتمع أولاد علي دولات وأخوه عبد الرزاق بمصر ، وحضر صحبة ابن علي دولات حاجب ثاني بحلب يدعى قانصوه من نفيس ، كان نائب حلب قد أرسله إلى ابن عثمان قاصداً بسبب القلاع التي أخذها من بلاد علي دولات ، فلما حضر قانصوه هذا من عند سليم شاه أخبر عنه أخباراً سيئة بأنه قال : « أنا ما أخذت هذه القلاع إلا بالسيف وما أردم إلا بالسيف ، وأنه ما هو راجع عن التوجه إلى حلب والشام وحدثته نفسه بأخذ مصر » ، فقد أخذ يجهز المراكب لتغزوا الاسكندرية ودمياط ، فلما سمع السلطان ذلك تنكد واجتمع هو والأمراء في ضرب مشورة بسبب ذلك .

وفي الشهر المحرم من سنة ٩٢٢ هـ ، أرسل السلطان إلى عبد الرزاق أخي علي دولات وإلى أولاد علي دولات الكبار والصغار ثمانية آلاف دينار فقسمت بينهم ، وأرسل يقول لهم : اعملوا بهذه النفقة يركم^(٢٩٥) واخرجوا سافروا قبل خروج التجريدة ، فأجمعوا عساكرهم من التركان إلى أن أحضر أنا والعسكر .

وفيه أرسل السلطان مكاحل حديد ومدافع صوان إلى ثغر الاسكندرية ،

(٢٩٥) اليرق : السلاح ، واستعملت أيضاً لتجهيزات السفر .

فكانوا نحو مائتي مكحلة ، وقد بلغه أن ابن عثمان جهز عدة مراكب تأتي إلى السواحل للديار المصرية .

وفيه قال السلطان للخليفة : اعمل يركك إلى السفر وكن على يقظة فإني مسافر إلى حلب بسبب ابن عثمان .

وفي يوم الاثنين ثالث عشر من صفر ، خرج عبد الرزاق أخو علي دولات وأولاد علي دولات الذين كانوا حضروا إلى مصر ، فلما أرسل إليهم السلطان ثمانية آلاف دينار جهزوا أنفسهم وخرجوا وسافروا في ذلك اليوم وقصدوا التوجه إلى حلب .

وفي يوم الخميس سلخ هذا الشهر ، حضر ساع وقيل اثنان من عند نائب حلب^(٢٩٦) وأخبرا بأن نائب حلب أرسل مطالعة على يديها ، فلما قرئت على السلطان فإذا فيها أن الشاه إسماعيل الصفوي ملك العراقيين جمع من العساكر مالا يحصى عددهم بمساعدة ملوك التتار وهو زاحف على بلاد ابن عثمان ، وقيل إنه كبس على جماعة ابن عثمان الذين كانوا في آمد - ديار بكر - وقد ملكها من يد الصوفي بعد معركة جالديران فجعل ابن عثمان فيها نائباً من قبله ، فأشيع أن الصوفي كبس على من كان بآمد على حين غفلة وقتل من كان بها من العثمانية واستخلصها من يدي جماعة ابن عثمان وانتصر عليهم .

فلما طرق السلطان هذا الخبر اجتمع بالأمرء في الميدان وقاموا في ضرب مشورة إلى قريب الظهر ، وقد أشيع بأن السلطان قال : « أنا أخرج بنفسي وأقعد في حلب حتى نرى ما يكون من أمر الصوفي وابن عثمان ، فإن كل من

(٢٩٦) لعب نائب حلب خاير بك دوراً كبيراً في تقويض دولة المماليك وكان على اتصال بالسلطان سليم شاه ولا شك أن رسالته هذه إنما قصد بها التويه على استعدادات السلطان سليم وتوجيه أنظار قانصوه الغوري إلى تزايد النزاع بين الصفويين والعثمانيين من جديد ، ليثبط همته في الخروج إلى حلب ويبقي طريق الفتح للعثمانيين سهلاً دون عقبات .

انتصر منها على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا » ، فانفض المجلس على أن لا بد من خروج تجريدة تقيم بحلب تحرس البلاد .

وفي ربيع الأول ورد إلى السلطان مطالعة من عند سييبي نائب الشام ، وقد بلغه حركة سفر السلطان إلى البلاد الشامية ، فأرسل يقول له : « يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلقة ، والعليق والتبن ما يوجد ، والزرع في الأرض لم يحصد ، ولا ثمَّ عدو متحرك ، فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر ، وإن كان ثمَّ عدو متحرك فنحن له كفاية » ، فلم يتلفت السلطان إلى كلامه واستمر باقياً على حركة السفر إلى حلب .

وفي ذلك اليوم أنفق السلطان على العسكر نفقة السفر ، وقد تحقق أمر خروج التجريدة .

وفي ربيع الآخر حضر إلى الأبواب الشريفة العجمي الشنقيطي نديم السلطان الذي توجه بأفيال إلى نائب الشام ونائب حلب ، وقد أبطأ مدة طويلة حتى أشاعوا موته غير ما مرة ، فظهر أن السلطان كان أرسله سراً إلى الشاه إسماعيل الصفوي ، في خبر للسلطان بينه وبين الصفوي كما أشيع بين الناس بذلك^(٢٩٧) .

وفي يوم الاثنين عاشر ربيع الآخر خرج طُلب السلطان من الميدان قبل طلوع الشمس ، ومشى به من الرملة ، ونزل به من حدرة البقر وطلع به من الصبيبة .

(٢٩٧) لا شك أن طول غياب العجمي الشنقيطي مرده إلى اتصاله بالسلطان سليم وإطلاعه على المراسلات بين الغوري والصفوي . وفي مفاكهة الخلان لابن طولون ٢٣/٢ حوادث رجب ٩٢٢ هـ « وشاع بين الناس أن سبب توجهه ، بعد أن كان قصده الصلح ، توجهه ملك الروم إليه وأخذ قلعة الروم وما والاها إلى عينتاب ، بسبب أنه اطلع على مطالبات من سلطانتنا إلى الخارجي إسماعيل الصفوي ، يستعينه على قتال ملك الروم سليم خان ، على يد البهلوان ، أحد جماعة سلطانتنا » .

موكب خروج السلطان قانصوه الغوري من القاهرة^(٢٩٨)

فلما أشرقت شمس يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر ، انسحبت أطلاب^(٥٥) الأمراء المقدمين الذين توجهوا صحبة الركاب الشريف ، فكان أولهم طلب الأمير كرتباي أحد المقدمين وهو الذي كان والي القاهرة ، ثم طلب الأمير أقباي الطويل أمير آخور^(٢٣٧) ثاني أحد المقدمين ، وبعده طُلب الأمير تاني بك الخازندار^(٦٦) ، وبعده طُلب الأمير علان من قراجا الدوادار الثاني أحد المقدمين ، وبعده طُلب الأمير أبرك الأشرفي أحد المقدمين ، وبعده طُلب الأمير بييرس قريب السلطان ، وبعده طُلب الأمير جان بلاط الشهير بالموتر ، وبعده طُلب الأمير قانصوه كرت ، وبعده طُلب الأمير تمر الحسني الشهير بالزردكاش^(٢٩٩) ، وبعده طُلب الأمير قانصوه بن سلطان جركس ، وبعده طُلب الأمير أنصباي من مصطفى حاجب الحجاب ، وبعده طُلب الأمير سودون عُرف بالدواداري رأس نوبة النوب^(٣٤) ، وبعده طُلب المقر الناصري محمد نجل المقام الشريف أمير آخور كبير ، وبعده طُلب الأمير أركاس من طرباي أمير مجلس ، وقد قرر في ذلك اليوم أمير السلاح ، ثم من بعد ذلك مشى طُلب الأتابكي سودون من جاني بك الشهير بالعجمي وكان طُلبه غاية في الحسن . فلما انتضى أمر الأطلاب ، خرج السلطان من باب الإسطبل الذي عند سلم المدرج ، فخرج وأمامه النفير السلطاني المسمى بالبرغشي ، وهو في موكب عظيم قل أن يتفق لسلطان أن يقع له موكب مثل ذلك الموكب .

(٢٩٨) عن بدائع الزهور لابن أبياس ج ٣٩/٥ .

(٢٩٩) الزردكاش : صانع الأسلحة .

فكان أول الموكب الأفيال الثلاثة وهي مزينة بالصناجق^(٣٠٠) ، ثم ترادف العسكر المنصور بالشاش والقماش ، ثم الأمراء الرؤوس النوب بالعصي يُفَسِّحُونَ الناس ، ثم ترادف الأمراء الطبلخانات^(٣٠١) والأمراء العشرات^(٣٠٢) قاطبة ثم أرباب الوظائف من المباشرين منهم : المقرّ القضي محب الدين محمود بن أجا الحلبي كاتب السر الشريف ، والقاضي ناظر الجيش^(٣٠٣) محي الدين عبد القادر القصري ، والقاضي ناظر الخاص علاي الدين بن الإمام ، والقاضي شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ومستوفي ديوان^(٣٠٤) الإنشاء الشريف ، والقاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة^(٣٠٥) الشريفة وكاتب العساكر المنصورة ، والقاضي بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة واستادار الذخيرة ، والشرفي يونس النابلسي كاتب جيش الشام واستادار العالية كان ، والقاضي أبو البقا ناظر الاسطبلات الشريفة ، وأولاد الجيعان كتاب الخزائن الشريفة ، وأولاد الملكي كتاب استيفاء الجيش ، وكتاب الزردخاناه^(٣٠٦) ، وغير ذلك من أرباب الوظائف والمباشرين ، والشرفي يونس نقيب الجيوش المنصورة .

وكان حاضراً هذا الموكب السادات الأشراف إخوة الشريف بركات أمير مكة ، فكانوا أمام الأمراء المقدمين ، ثم تقدم الأمراء المقدمون قاطبة وصحبهم ولد السلطان المقر الناصري أمير آخور كبير ، وإلى جانبه الأتابكي سودون العجمي . ثم بعد ذلك تقدم السادة القضاة الأربعة مشايخ الإسلام وهم : قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ، وقاضي القضاة الحنفي حسام الدين محمود بن شحنة ، وقاضي القضاة المالكي محي الدين بن الدميري ، وقاضي القضاة

(٣٠٠) الصناجق : الرايات والأعلام .

(٣٠١) ناظر الجيش : المسؤول عن أموال وحسابات الجيش والجنود .

(٣٠٢) مستوفي الديوان : مدقق صحة أعمال الديوان وبخاصة الأمور المالية .

(٣٠٣) ناظر الدولة : من يساعد الوزير في تسيير أعمال وزارته .

الحنبلي شهاب الدين أحمد الفتوحى الشهير بابن النجار ، ثم من بعدهم أتى أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بن المستسك بالله يعقوب العباسي وهو لابس العمامة البغدادية التي بالعذبتين وعليه قبا^(١٦٣) بعلبكي بطرز حرير أسود ، ولم يكن على رأسه صنجق خليفتي ، وقد اختصر هذا الخليفة أشياء كثيرة مما كان يعمل للخلفاء المتقدمين من أقاربه . ثم مشى الجنائب^(٢٠٤) السلطانية فكان قدامه طوالتان بعراقي وسروج بغواشي^(٢٠٥) حرير أصفر وطبول بازات ، وطوالتان خيل بكننايش^(١٠٢) وسروج ذهب ومياتر زركش ، وبعضهم بسروج بلور مزيك بذهب ، وشيء عقيق مزيك بمينة ، وقد تقدم أمر الطلب بما شرح من وصفه قبل ذلك ، ثم تقدمت جماعة من الرؤوس نوب مشاة ، والشاوشية والطبردارية^(٢٠٦) قدامه بالأطبار^(٢٠٧) ، ولم يكن أمامه الأوزان^(٢٠٨) ولا شبابة^(٢٠٩) سلطانية كما هي عادة السلاطين في الموكب ، ثم مشى البقج والمجامع بالأغطية الحرير الأصفر .

ثم أقبل السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري عز نصره ، وكان الخليفة أمامه بنحو عشرين خطوة ، وكان السلطان راكباً على فرس أشقر عالي بسرج ذهب وكنبوش وعلى رأسه كلفتاة^(٢١٠) ، وهو لابس قبا بعلبكي أبيض بطرز

(٢٠٤) الجنائب : جمع جَنَب وهي الخيول الاحتياطية التي ترافق السلطان في سفره . كما تستعمل أيضاً بمعنى الحرس المرافق .

(٢٠٥) غواشي : جمع غاشية وهي سرج يتخذ من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصوغة من الذهب ، تحمل بين يدي السلطان في الموكب الحافلة كالميدان بمصر والأعياد وتجاريد السلطان من فتح البلاد أو النصر على العدو ، وتحملها المهاترة على أيديهم تلفتها يميناً وشمالاً من حين تفرش له شقق الحرير إلى حين نزوله بمكانه .

(٢٠٦) الطبردار : هو المختص بحمل فأس السلطان عند خروجه بالموكب الرسمية .

(٢٠٧) الأطبار : جمع طبر وهو الفأس .

(٢٠٨) الأوزان : الفرقة الموسيقية .

(٢٠٩) الشبابة : آلة موسيقية .

(٢١٠) كلفتاة : جمع كلفة وهي غطاء الرأس .

ذهب على حرير أسود عريض قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب بنادقة^(٣١١) . وكان ذلك اليوم في غاية الأبهة والعظمة ، فإنه كان حسن الهيئة تملأ منه العيون مبعجلاً في المواكب ، ثم أقبل الصنjq السلطاني على رأسه ، وخلفه مقدم المالك سنبل العثماني ، وصحبته السلحدارية^(٣١٢) بالشاش والقماش ، والجمل الغفير من الخاصكية والمحدارية فدخل من باب زويلة وشق من القاهرة في ذلك الموكب الحافل ، فارتجت له القاهرة في ذلك اليوم وارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام وغيرهم ، وانطلقت له النساء بالزغاريد من الطيقان^(٣١٣) ، فاستمر في ذلك الموكب حتى خرج من باب النصر وكان يوماً مشهوداً ، ثم وصل إلى الخيم الشريف بالريدانية .

ثم في عقيب ذلك اليوم نزل حوايج خاناه من مال ما بين ذهب وفضة ، قيل إن ضمنها من الذهب ألف ألف دينار خارجاً من المعادن ، وقد فرغ الخزائن من الأموال التي جمعها من أوائل سلطنته إلى أن خرج في هذه التجريدة ، وفرغ أيضاً حواصل الذخيرة عن آخرها ، وأخذ ما فيها من التحف وآلات السلاح الفاخرة مما كان بها ، من ذخائر الملوك السالفة من سروج ذهب وبلور وعقيق وكنائش وطبول بازات بلور ومينة وبركستوانات مكفتة وأكوار^(٣١٤) زركش وغير ذلك من التحف المملوكية ، فنزل جماعة من كتاب الخزانة صحبة الحوايج خاناه ، وجماعة من الخزندارية وهم بالشاش والقماش ، فكانت تلك الحوايج خاناه محملة على خمسين جملاً ، ثم نزلت الزردخاناه وهي محملة على مائة جمل وأمامها طبلان وزمران وعيدان نفر على جمال فتوجهوا إلى الوطاق^(٣١٥) .

(٣١١) ذهب بنادقة :نسبة إلى مدينة البندقية بإيطاليا .

(٣١٢) السلحدارية : حملة السلاح .

(٣١٣) الطيقان : النوافذ .

(٣١٤) أكوار : جمع كور وهو سرج الجمل .

(٣١٥) الوطاق : مخيم السلطان .

وفي يوم الأحد سادس عشر ربيع الآخر ، نادى السلطان للعسكر في القاهرة بأن السلطان سيرحل من الريدانية يوم الجمعة عشرينه ، فلا يتأخر من العسكر الذي تعين للسفر أحد ، ولا يحتاج بحجة ولا عذر .

رافق الموكب عدد آخر من القضاة والمشايخ والمؤذنين والكتاب والأطباء والكحاليين والمزينين ومغاني الدكة والبنائين والنجارين والحدادين ، وشيخ المشايخ سلطان الحرافيش^(٣١٥) وجنده وصنجه وطبله .

الرحيل من الريدانية :

بدأ الرحيل من الريدانية يوم الثلاثاء ١٨ ربيع الآخر ، وتتابع في أيام الأربعاء والخميس والجمعة .
وقيل إن عدة الممالك السلطانية الذين خرجوا في هذه التجريدة من قرانصة وجلبان وأولاد ناس خمسة آلاف نفر ، وتأخر بالقاهرة من الممالك القرانصة والشيوخ والعواجز والممالك الجلبان في الطباق^(٣١٦) بالقلعة وأولاد الناس نحو ألفي نفر .

رسالة من سليم شاه :

ولما كان السلطان بالخيم الشريف وردت عليه مطالعة من نائب حلب ، بأن ابن عثمان أرسل قاصداً إلى حلب فعوقه نائب حلب عنده ، وأخذ منه كتاب ابن عثمان وأرسله إلى السلطان ، فوصل إليه وهو بالخيم بالريدانية ، فلما فضه السلطان قرأه فإذا فيه عبارة حسنة وألفاظ رقيقة ، منها أنه أرسل يقول له : « أنت والدي وأسألك الدعاء ، وإني ما زحفت على بلاد علي دولات إلا ياذنك ، وأنه كان باغياً عليّ ، وهو الذي أثار الفتنة القديمة بين والدي والسلطان قايتباي

(٣١٥) سلطان الحرافيش : هو شيخ مشايخ الحرف والصناعات .

(٣١٦) الطباق : جمع طبقة وهي ثكنات الممالك بالقلعة ، وكانت كل طبقة تضم الممالك المجاورة من بلد واحد .

حتى جرى بينهما ما جرى ، وهذا كان غاية الفساد في مملكتكم وكان قتله عين الصواب ، وإن ابن سوار الذي وَلِيَ مكانه ، فإن حسن ببالكم أن تبقوه على بلاد أبيه أو تولوا غيره فالأمر راجع إليكم في ذلك ، وأما التجار الذين يجلبون الممالك الجراكسة فيأني ما منعهم ، إنما هم تضرروا في معاملتكم^(٣١٧) في الذهب والفضة ، فامتنعوا من جلب الممالك إليكم ، وإن البلاد التي أخذتها من علي دولات أعيدها إليكم وجميع ما يرومه السلطان فعلناه .

فلما سمع السلطان ذلك أحضر الأمراء المقدمين ، وقرأ عليهم كتاب ابن عثمان الذي حضر ، فانشرح السلطان والأمراء لهذا الخبر واستبشروا بأمر الصلح والعودة إلى الأوطان عن قريب ، وكان هذا حيلًا وخداعًا من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد .

وفي يوم السبت ثاني عشرين ربيع الآخر ، رحل السلطان من الخيم الشريف بالريمانية وصحبته الخليفة والقضاة الأربعة وولده المقر الناصري أمير آخور كبير وأقباي الطويل أمير آخور ثاني .

وفي جمادى الأولى خرج الأمير ماماي الصغير المحتسب ، وسافر ولحق بالسلطان ، وخرج صحبته شخص صبي صغير عمره نحو ثلاث عشرة سنة ، يقال له قاسم بن أحمد بك بن أبي يزيد بن عثمان ، وكان عمه سليم شاه بن عثمان قد قَتَلَ شقيقه أحمد بك ، ففرَّ ابنه قاسم هذا هو ولالاه^(٣١٨) ودخل إلى حلب خفية ، فلما بلغ السلطان ذلك أحضره إلى مصر في الخفية وأقام بها إلى أن خرج السلطان إلى البلاد الشامية ، فأخذه صحبته ليبذل مقاصده فلم يفد من ذلك شيئاً ، فلما خرج صحبة الأمير ماماي خرج وأمامه جنائب ، وكان السلطان أقام له بَرَك ويرق وتكلف عليه نحو ألفي دينار حتى يظهر أمره ويشاع ذكره في بلاد ابن

(٣١٧) يقصد التلاعب بنسبة الذهب والفضة في النقود .

(٣١٨) لالاه : مريبه .

عثمان ، بأن في مصر من أولاد ابن عثمان ولد ذكر ، وظن السلطان أن عسكر ابن عثمان إذا سمعوا ذلك يخامرون على سليم شاه ويأتون إلى هذا الصبي قاسم ، فلم يظهر لهذا الأمر نتيجة ولا أفاد منه شيئاً .

السلطان الغوري في دمشق

وصف ابن طولون في كتابه مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ١٣/٢ دخول السلطان الغوري إلى دمشق وصفاً مسهباً .

فقد دخل إليها يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى من قبة يلبغا جنوب دمشق ماراً بها إلى المصطبة في القابون شرقي دمشق في موكب عظيم .

فعن يمينه الأمير سيباي - الملقب بملك الأمراء - وهو يحمل القبة على رأس السلطان وهي شبه نسر ظاهرها حرير أصفر وفي أعلاها هلال من ذهب .

وعن يمين النائب الأمير سودون العجمي يليه أمير السلاح أركاس وخلفهم الصنجق السلطاني من ذهب مزركش ومن خلفه المماليك .

وتقدم الموكب الخليفة العباسي المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المستمسك بالله والقضاة الأربعة ونوابهم - وقضاة الشام الأربعة وبعض نوابهم ، والأمير محمد بن السلطان وكبار أصحاب المناصب من رأس نوبة النوب وحاجب الحجاب وغيرهم ، ثم أمراء الشام وكبار موظفيها .

« وقدامهم محفتان على بغال إحداها للسلطان والثانية لابنه ، وقدامهم من الخيل المجنونة مائة ، فنها خمسون بجلال صفر من أطلس ، ومنها بلبوس مذهبة ومنها عشرة بكنائيش ذهب مرصعة باللآلئ وغيرها ، ومنها عشرة من خواص الخيل غير ملبسة .

وأمامهم مائة هجين بأكوار مزركشة ، منها خمسون على أحمر ، وبقائها
مفرق ، مكتوب على غالبيتها اسم السلطان ، وعلى بعضها طومان باي وعلى بعضها
قايتباي .

وأمامهم كرسي الملك محمل على بغل ، وهو مرصع بالدر والجوهر والبلخش
وغير ذلك ، وقدامه ثلاثة أبغال للشربدارية ، راكب في وسطها ثلاثة أولاد
صغار ، عمالين في الإنشاد ، لم نسمع أطرب منهم وهم سائرون .

وقدامهم أربعة أنفس راكبين ، وخلف كل واحد منهم فهد ، وقدامهم أحمال
الضوية ، وقدامهم البارودية ، وقدامهم الطبل والزمير ، وقدامهم السبق إلى غير
ذلك مما يطول تعداداه ، وكان يوماً مشهوداً .

« وفي يوم الأربعاء رابع عشره رحل السلطان من الصفة ، وهدت الزينة
من البلد ، وتوجه معه في الترسيم المحيي ناظر الجيش بدمشق وناظر القلعة بها
وما مع ذلك » .

« ولم يفرج السلطان في مدة إقامته بهذه المصطبة عن أحد كربة ، وكما
رفعت إليه قصة يؤخرها حتى يرجع ، وقد ذهبت مع جماعة مدرسة الشيخ أبي
عمر بصالحية دمشق لنشكو له حالهم في قح داريا ، والمال المرتب لهم في القلعة
بسبب الطعام في شهر رمضان ، فلما وصلوا إلى قربه جلس الأضرء يقرأون القرآن
له ، فأمر مماليكه بضربهم بالعصي وقالوا لهم : عندنا ميت حتى تجيوا تقرون
عليه ؟ فرجعنا خائبين منه .

وفي هذا المجلس جاء إليه قنصل الافرنج وجماعته بهدايا فقدمهم وأكرمهم
وبعد سفره جاءت الأخبار إلى دمشق بأن نائب حلب خاير بك ونائب
حماة جانبردي الغزالي ومعهما قضاة البلدين لاقوا السلطان في القطيفة .

السلطان في حلب :

دخل السلطان حلب يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة ، وكان لدخوله يوم مشهود ، وأمامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء كوكبه بالشام . وحمل القبة والجلالة على رأسه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب ، وفي حال دخول السلطان إلى حلب ، وصل إليها قصاد من عند السلطان سليم وهم قاضي عسكره وهو شخص يقال له ركن الدين ، وأحد أمرائه يقال له قراجا باشاه وصحبته سبعاية عليقة ، فنزلوا بمدينة حلب ، وقد عاتبهم السلطان الغوري لما حضرا بين يديه في أفعال ابن عثمان وما يبلغه عنه في حقه ، وأخذ به بلاد علي دولات ، فقال له قاضي ابن عثمان وقراجا باشاه : نحن فوض لنا أستاذنا الأمر وقال مهما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاوروني .

وكل هذا حيل وخداع حتى تبطل همة السلطان عن القتال ويثني عزمه عن ذلك ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد . ومن مظاهر مخادعة ابن عثمان للسلطان ، أنه أرسل يطلب منه سكرأ وحلوى فأرسل إليه السلطان مائة قنطار سكرأ وحلوى في علب كبار .

ثم إن قاضي ابن عثمان أحضر فتاوى من علماء بلاده ، وقد أفتوا بقتل الشاه إسماعيل الصوفي ، وأن قتاله جائز في الشرع . وأرسل يقول في كتابه : « السلطان والدي وأسأله الدعاء ، لكن لا يدخل بيني وبين الصوفي فإني ما أرجع عنه حتى أقطع جادرتي من على وجه الأرض ، فلا تدخل بيننا بشيء من أمر الصلح » . وأظهر أنه قاصد نحو الصوفي ليحاربه والأمر بخلاف ذلك .

وذكروا أنه على القيسارية يقصد التوجه إلى محاربة الصوفي ، ثم إن السلطان خلع على قصاد ابن عثمان الخلع السنية ، وقيل إن ابن عثمان أرسل إلى السلطان مقدمة حافلة .

ثم إن السلطان عين مغلباي دودار سكين بأن يتوجه إلى ابن عثمان ، وعلى يده مطالعة من عند السلطان إلى ابن عثمان تتضمن أمر الصلح بينهما ، والأمراء والعسكر منتظرون رد الجواب عن ذلك . ثم إن السلطان فرق على مماليكه الجلبان خيولاً كثيرة وصار ينعم عليهم بالعطايا الجزيلة من مال وخيول وسلاح ، ولم يعط المماليك القرانصة شيئاً ، فعز عليهم ذلك في الباطن .

وأحضر السلطان الأمراء المقدمين والنواب والأمراء الطبلخانات والأمراء العشرات ، وحلفهم على مصحف شريف بأنهم لا يخونوه ولا يغدرون به ، فحلفوا كلهم على ذلك . ثم نادى للعسكر بالعرض في الميدان بحلب ، فعرضوا وهم باللباس الكامل ، وأدخلهم من تحت سيفين هيئة قنطرة ، كما هي عادة الأتراك ، وعندهم أن هذا القسم العظيم ، ثم إن السلطان أرسل خلف قاسم بك بن أحمد بك بن عثمان الذي خرج من مصر صحبة السلطان كما تقدم ، وكان السلطان عندما توجه إلى حلب ترك قاسم بك في حماة فطلبه وخلع عليه وشهر أمره بحلب .

مقدمات الحرب :

ثم وردت الأخبار إلى حلب بأن سليم شاه بن عثمان قبض على قاصد السلطان الذي جهزه السلطان إليه وهو مغلباي أحد الدوادارية السكين ووضعه في الحديد . وكان السلطان جهز الأمير كرتباي الأشرفي أحد الأمراء المقدمين الذي كان والي القاهرة - إلى ابن عثمان ، وصحبته هدية حافلة بنحو عشرة آلاف دينار ، وخلع على قاضي عسكر ابن عثمان ووزيره قراجا باشاه الذي تقدم ذكر حضورهما إلى حلب خلعاً سنينة ، وأذن لهما بالعودة إلى بلادهم ، وكان هذا عين الغلط من السلطان الذي أطلق قصاد ابن عثمان قبل أن يحضر مغلباي دودار سكين ويظهر له من أمر ابن عثمان ما يعتمد عليه ، فلما وصل الأمير كرتباي

عينتاب بلغه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح وأنه يهدل مغلباي ووضعه في الحديد وقصد شنتقه حتى شفع فيه بعض وزرائه ، وقصد حلق لحيته وقد قاسى منه من البهدلة مالا يمكن شرحه . فلما تحقق الأمير كرتبای من ذلك رجع إلى حلب وأعلم السلطان بما فعله سليم شاه بن عثمان ، وأن طوالع عسكره قد وصل إلى عينتاب فهرب نائبها ، وملك عسكر ابن عثمان قلعة ملطية وپهسنا وكركر وغير ذلك من القلاع ، فلما وصل كرتبای بهذه الأخبار الردية إلى السلطان اضطربت أحواله وأحوال العسكر قاطبة .

ثم إن السلطان خلع على الأمير عبد الرزاق شقيق علي دولات وولاه على إقليم أولاد دلفادر ، فخرج من حلب وصحبته ملك الأمراء خاير بك - نائب حلب - وعساكرها في موكب حفل . ونزلوا عن حلب بيوم وصحبته من المشاة خمسة آلاف ماش ، ونفق عليهم السلطان جامكية شهر واحد ، ثم خرج بعده ملك الأمراء سيبای نائب الشام ، وقرارز نائب طرابلس ، وطراباي نائب صفد ، ونائب حمص ، ونائب غزة ، فخرجوا من حلب يوم السابع عشر من رجب . وقد أشيع أن ابن عثمان ماش من جهة ، وابن سوار ماش من جهة ، ثم إن السلطان نادى للعسكر بالرحيل من حلب والنزول على حيلان لقتال ابن عثمان ، وأن السلطان والأمراء يخرجون قريباً إلى القتال ، والذي يريد الله تعالى هو الذي يكون ، وهذا ما نقل من شرح كتاب أمير المؤمنين الذي أرسله إلى والده أمير المؤمنين يعقوب (ابن إياس ٥ / ٦٤) .

وفي شعبان حضر كتاب إلى القاهرة على يد ساع مطرد من عند الأمير علان الدوادار الثاني أحد الأمراء المقدمين ذكر فيه أن السلطان كان يكذب عليه في أمر سليم شاه بن عثمان ويصدق ، إلى أن حضر مغلباي دوادار سكين وهو في حال

النحس بزملط^(٣١٩) أقرع على رأسه وهو لابس كبر^(٣٢٠) عتيق دنس ، وراكب على أكديش هذيل ، وقد نهب بركة وأخذت خيوله وقاشه ، وأخبر أن ابن عثمان أبي من الصلح وقال له : « قل لأستاذك يلاقيني في مرج دابق » ، وأخبر أنه وضع في الحديد وقصد أن يخلق لحيته وقدمه إلى المشنقة عدة مرات حتى شفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله في قفة على رأسه ، وقاسى من البهدة مالا خير فيه ، فلما سمع السلطان ذلك تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان ، فقبل إنه أنعم على مغلباي بألف دينار وخيول وقماش وبرك في نظير ما ذهب له .

خروج السلطان من حلب :

وفي يوم الثلاثاء في العشرين من رجب سنة ٩٢٢ هـ ، خرج السلطان من ميدان حلب بعد أن صلى الظهر ، وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، وكان قد تقدمه نائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط حتى رجت لهم حلب فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان فبات بها .

معركة مرج دابق^(٣٢١) :

فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب ، رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق ، فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب ، وهو يوم نحس مستمر ، فلم يشعر إلا وقد دهته عساكر سليم شاه بن عثمان فصلى السلطان صلاة الصبح ، ثم ركب وتوجه إلى زغزغن وتل الفار ، وقيل هناك مشهد نبي

(٣١٩) الزملط : لباس يوضع على الرأس .

(٣٢٠) كبر : سرج .

(٣٢١) مرج دابق : التعلقة رقم ١٥٠ .

الله داود عليه السلام ، فركب السلطان وهو بتخفيفة^(٢٢٢) صغيرة وملوطة بيضاء ، على كتفه طبر ، وصار يرتب العساكر بنفسه فكان أمير المؤمنين عن ميمته وهو بتخفيفة وملوطة وعلى كتفه طبر مثل السلطان وعلى رأسه الصنجق الخلفي ، وكان حول السلطان أربعون مصحفاً في أكياس حرير أصفر على رؤوس جماعة أشراف ، وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكان حول السلطان جماعة من الفقهاء^(٢٢٣) وهم : خليفة سيدي أحمد البدوي ومعه أعلام حمر ، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدي أحمد بن الرفاعي ومعه أعلام خليفتي ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضي الله عنها بأعلام سود . وكان الصبي قاسم بك بن أحمد بك بن عثمان المقدم ذكره واقفاً يأزاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أحمر . وكان الصنجق السلطاني واقفاً خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعاً وتحتة مقدم المالك سنبل العثماني والسادة القضاة والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين ، وكان على مينة العسكر سيبيائي نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب .

فقبل أول من برز إلى القتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيبيائي نائب الشام والماليك القرانصة دون الماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة ، وأخذوا منهم سبعة صناجق وأخذوا المكاحل التي على العجلات ورماة البندق ، فهم ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان ، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان وكانت النصر لعسكر مصر أولاً ، ثم بلغ الماليك القرانصة أن السلطان قال للماليك الجلبان : « لا تقاتلوا شيء وخلوا الماليك القرانصة تقاتل وحدهم » .

(٢٢٢) التخفيفة : عمامة توضع على الرأس .

(٢٢٣) الفقهاء : مشايخ الطرق .

فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم على ذلك وإذا بالأتاكي
سودون العجمي قد قتل في المعركة ، وقتل ملك الأمراء سيباي نائب الشام ،
فانهزم من في المينة من العسكر . ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر
الميسرة ، وأسر الأمير قانصوه بن سلطان جركس وقيل قتل ، ويقال إن خاير
بك نائب حلب كان متواطئاً على السلطان في الباطن ، وهو مع ابن عثمان على
السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، فكان أول من هرب هو قبل العسكر
قاطبة .

وكان ذلك خذلاناً من الله تعالى لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر . فصار
السلطان واقفاً تحت الصنجق في نفر قليل من المماليك ، فشرع يستغيث
للعسكر : « يا أغوات هذا وقت المروءة قاتلوا وعليّ رضاكم » . فلم يسمع له أحد
قولاً ، وصاروا يتسحبون من حوله شيئاً بعد شيء ، فالتفت للفقراء والمشايخ
الذين حوله وقال لهم : « ادعوا إليّ الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم » ، وصار
ما يجد له من معين ولا ناصر ، فانطلق في قلبه جمره نار لا تطفئ ، وكان ذلك
اليوم شديد الحر ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لا يرى بعضهم بعضاً ،
وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر وغلت أيديهم عن
القتال ، وقد قلت في هذه الواقعة : (ابن إياس ٧٠/٥)

لما التقى الجيشان مع سلطاننا	في مرج دابق قال : هل من مسعف
فله أجاب لسان حال قائلاً	عرضت نفسك للبلا فاستهدف
واشتد بالجلبان رعب قلوبهم	وغدوا يقولوا أي أرض نختفي
والنهب أطمعهم لذل نفوسهم	حتى أتاهم بالقضاء المتلف

موت السلطان الغوري :

فلما اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال ، خاف الأمير تمر الزرد كاش على الصنّجق ، فأنزله وطواه وأخفاه ، ثم تقدم إلى السلطان ، وقال له : « يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك واهرب إلى حلب » . فلما تحقق السلطان ذلك نزل عليه في الحال خلط فالحج أبطل شفتيه وأرخی حنكه ، فطلب ماءً فأتوه بماء في طاسة ذهب ، فشرب منه قليلاً ، وأدار فرسه ليهرب ، فمشی خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره ؛ وقيل فقعت مرارته وخرج من حلقه دم أحمر ، وقيل إنه لما رأى الكسرة عليه ابتلع فص ماس كان معه ، فلما نزل جوفه غاب عن الوجود وسقط عن فرسه ومات من وقته ، على ما قيل من هذه الإشاعة . فلما أشيع موته ، زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان ، فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين قريب السلطان ، والأمير أقباي الطويل أمير آخور ثاني أحد المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان ممن كان حوله .

وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر ، ولا وقف له أحد على أثر ولا ظهرت جثته بين القتلى ، فكأن الأرض قد انشقت وابتلعتة في الحال^(٣٢٤) وفي ذلك عبرة لمن اعتبر . فداس العثمانية المصاحف التي كانت حول السلطان بأرجل الخيول ، وفقد المصحف العثماني ، وأعلام الفقراء وصناجق الأمراء ، ووقع النهب في عسكر مصر ، وزال ملك الأشرف الغوري على لمح البصر فكأنه لم يكن

(٣٢٤) يؤكد ذلك ابن طولون في المفاكمة ٢٤/٢ بقوله : « وأما السلطان فقطع رأسه ووجهه إلى اصطنبول كما قال لي الحب ناظر الجيش ، وجثته قيل دفنت عند الشيخ داود بأرض دابق ، وقيل حملت إلى حلب ودفنت بتربة له فيها كانت قديماً لما كان متولياً الحجووية الكبرى بها ، والصحيح أنه لم يعلم حاله » .

- فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير - بعدما تصرف في ملك مصر وأعمالها من البلاد الشامية والحلبية ، فكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فإنه وَلِيَ ملك مصر في مستهل شوال سنة ست وتسعمائة وتوفي في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فكان الناس معه في هذه المدة في غاية الضنك وقد قلت^(٣٢٥) في المعنى :

اعجبوا للأشرف الغوري الذي مذ تزايد ظلمه في القاهرة
زال عنه ملكه في ساعة خسر الدين إذا والآخرة

قتلى المعركة :

استمرت هذه الواقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر ، وانتهى الحال على أمر قدّره الله تعالى ، فقتل في تلك الساعة من عسكر ابن عثمان ومن عسكر مصر مالا يحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة وهم : الأتابكي سودون العجمي وبيبرس قريب السلطان ، وأقباي الطويل ، وأسر قانصوه بن سلطان جركس ، وقتل سيبيائي نائب الشام ، وتمرارز نائب طرابلس ، وطراباي نائب صفد ، وأصلان نائب حمص ، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من أمراء طبلخانات وعشرات وخاصكية ، وأكثر من قتل من عسكر مصر المماليك القرانصة ، ولم يقتل من المماليك الجلبان إلا القليل ، فإنهم لم يقاتلوا في هذه الواقعة شيئاً ، ولا ظهر لهم فروسية فكأنهم خشب مسندة ، وقتل من عسكر ابن عثمان مالا يحصى ضبطه ، وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميراً ، وقتل في ذلك اليوم القاضي ناظر الجيش عبد القادر القصري ، وجماعة كثيرة من الجند ، فكانت ساعة يشيب منها الوليد ويدوب لسطوتها الحديد ، فصارت في مرج دابق

(٣٢٥) القول لابن إياس في بدائع الزهور وقد أخذنا الوصف منه .

جثث مرمية ، وأبدان بلا رؤوس ووجوه معفرة في التراب قد تغيرت محاسنها ، وصار في ذلك المكان خيول مرمية موقى بسروج مغرق ، وسيوف مسقطه بذهب وبركستوانات فولاذ وخوذ وزرديات^(٢٢٦) وبقج قماش فلم يلتفت إليها أحد ، وكل من العسكريين اشتغل بما هو أهم من ذلك .

الغنائم :

ثم إن ابن عثمان زحف بعسكره وأتى إلى وطاق السلطان ، ونزل في خيامه ، وجلس في المدورة^(٢٢٧) ، واحتوى على الطشتخاناه^(٢٢٨) وما فيها من القماش ، وعلى الشراب خاناه^(٢٢٩) وما فيها من الأواني الفاخرة ، وعلى الزردخاناه^(٢٣٠) وما فيها من السلاح ، وعلى خزائن المال والتحف ، ونزل كل أمير من أمرائه في وطاق أمير من أمراء السلطان واحتوا على ما فيها ، فاحتوى على وطاق خمسة عشر أميراً مقدماً ألف ، خارجاً عن الأمراء الطبلخانات والعشرات والعسكر ، وكذلك احتوى عسكره على خيام العسكر المصري والشامي والحلي وغير ذلك من العساكر .

لم يقع قط للملوك بني عثمان أخت هذه النصره على أحد من الملوك قاطبة ، ولم يقع قط لأحد من سلاطين مصر أنه وقع له مثل هذه الكاينة ومات تحت صنجة في يوم الحرب ، وانكسر على هذا الوجه أبداً ، ولا سمع بمثل ذلك ونهب

(٢٢٦) الزرديات : الأسلحة .

(٢٢٧) المدورة : صدر الوطاق حيث يجلس السلطان .

(٢٢٨) الطشتخاناه : بيت الطشت وفيه أنواع الطشوت اللازمة لغسل الأيدي والقماش وغيرها ، فضلاً عن المقاعد والحداد والسجاد الذي يلزم السلطان (صبح الأعشى ١٠/٤) .

(٢٢٩) الشراب خاناه : بيت الشراب وفيه شتى أنواع الأثربة التي يحتاجها السلطان فضلاً عن الأواني النفيسة المصنوعة من الصيني الفاخر (صبح الأعشى ١٠/٤) .

(٢٣٠) الزردخاناه : بيت السلاح والذخيرة .

ماله وبركه بيد عدوه ، غير قانصوه الغوري وكان ذلك في الكتاب مسطوراً . ولم يكن السلطان والأمرء ينظرون في مصالح المسلمين بعين العدل والإنصاف ، فَرَدَّتْ عليهم أعمالهم ونياتهم وسلَّطَ الله تعالى عليهم ابن عثان حتى جرى لهم ما جرى .

ثم إن ابن عثان تحول عن مرج دابق ودخل إلى حلب فللكها من غير مانع ، فنزل بالميدان الذي بها .

الجيش المهزوم :

وأما ما كان من أمر الأمرء والعسكر بعد الكسرة ، فإنهم توجهوا إلى حلب وأرادوا الدخول إليها ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة ، وقتلوا جماعة منهم ونهبوا سلاحهم وخيولهم وبركهم وودائعهم التي كانت بحلب ، وجرى عليهم من أهل حلب ما لا جرى عليهم من العساكر العثمانية . وكان بين أهل حلب وبين المماليك السلطانية حقد قديم منذ أن توجه المماليك صحبة قانباي أمير آخور كبير ، فنزلوا في بيوت أهل حلب غصباً وحصل منهم غاية الضرر ، فما صدق أهل حلب بهذه الكسرة التي وقعت لهم فأخذوا بثأرهم منهم ، فلما رأى الأمرء وبقية العسكر ذلك خرجوا من حلب على حَمِيَّة ، وتوجهوا إلى دمشق فدخلوها وهم في أنحس حال ، لا برك ولا قماش ولا خيول ، ودخل غالب العسكر إلى الشام : بعضهم راكب على حمار ، وبعضهم راكب على جمل ، وبعضهم عريان وعليه عباءه أوبشت .

ولم يقع لعسكر مصر مصيبة قط أعظم من هذه المصيبة ، وأقام الأمرء والعساكر في الشام حتى يتكاملوا . وقيل إن الأمرء لما دخلوا الشام صاروا في حر الشمس ولم يجدوا ما يستظلون به حتى صنع لهم الغلمان عرايش من فروع الشجر يستظلون تحتها .

السلطان سليم في حلب :

أما السلطان سليم فبعد أن ملك حلب وأقام فيها بالميدان ، توجه إليه أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الثلاثة وهم : قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ، وقاضي القضاة محيي الدين بن الدميري المالكي ، وقاضي القضاة شهاب الدين الفتوح الحنبلي ، وأما قاضي القضاة الحنفي محمود بن الشحنة فإنه هرب مع العسكر ، وتوجه إلى الشام ، ونهب جميع بركه وقاشه ، ودخل إلى الشام في أنحس حال .

وقيل لما دخل أمير المؤمنين على ابن عثمان وهو بالميدان قام له وعظمه وأجله وجلس بين يديه ، فأشيع أنه قال له : « أصلكم من أين » ، فقال له : « من بغداد » ، فقال له ابن عثمان : « نعيذك إلى بغداد كما كنتم » ، والأقوال في ذلك كثيرة . فلما أراد الخليفة الانصراف خلع عليه دلامة حرير من ملابسه ، وأنعم عليه بمال له صورة ، وردّه إلى حلب ، ووكل به كيلا يهرب من حلب ، وقيل لما دخل عليه قضاة القضاة وبجهم بالكلام وقال لهم : « انتوا تأخذوا الرشوة على الأحكام الشرعية وتسعوا بالمال حتى تتولوا القضاء ليش ما كنتوا تمنعوا سلطانكم عن المظالم التي كان يفعلها بالناس » . وأشاعوا من هذه أخبار العجائب والغرائب .

وعندما ملك السلطان سليم حلب سلمه أهلها المدينة بالأمان ، وهرب قانصوه الأشرفي نائب قلعة حلب وتوجه إلى الشام مع العسكر ، وترك أبواب قلعة حلب مفتحة ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك ، أرسل إليها شخصاً من جماعته ، وهو أعرج أجروود وفي يده دبوس^(٣٣١) خشب . فطلع إلى قلعة حلب فلم يجد بها مانعاً يردّه ، فختم على الحواصل التي بها ، واحتوى على ما فيها من مال وسلاح

(٣٣١) دبوس : عصا بدبسه .

وتحف وغير ذلك . وقد فعل ابن عثمان أباحه^(٣٣٢) أنه أخذ قلعة حلب بما فيها بشخص أعرج وفي يده دبوس خشب وهو أضعف من في عسكره .

السلطان سليم ومخلفات الغوري :

وأشيع أن ابن عثمان من حين استولى على حلب لم يدخل مدينتها غير ثلاث مرات : المرة الأولى دخلها وصعد إلى القلعة بسبب عرض حواصلها ، فلما عرضها رأى ما أدهشه من مال وسلاح وتحف فاحتوى ما كان من المال نحو مائة ألف ألف دينار ، والكنائش والزركش وأرقاب^(٣٣٣) الزركش ، والقبعة والطير والسروج الذهب والبلور والطبول بازات^(٣٣٤) المينة واللجم المرصعة بالفصوص المثمنة ، والبركستوانات الفولاذ ، والحمل الملون ، والسيوف المسقطة بالذهب ، والزرديات والخوذ الفاخرة وغير ذلك من السلاح ، فرأى مالا قط رآه ولا فرح به أحد من أجداده ولا أحد من ملوك الروم ، والذي جمعه الغوري من الأموال من وجوه المظالم والتحف التي أخرجها الغوري من الخزائن من ذخائر الملوك السالفة في عهد ملوك بني أيوب الأكراد وغيرها من ملوك الترك والجراكسة ، احتوى عليها سليم شاه بن عثمان من غير تعب ، هذا خارجاً على ما كان للأمرء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشرات والمباشرين والعسكر قاطبة من الودائع بحلب من مال وسلاح وقماش وبرك ، فاحتوى ابن عثمان على ذلك جميعه .

وقيل إنه ملك ثلاث عشرة قلعة من بلاد السلطان ، واحتوى على ما فيها من مال وسلاح وغير ذلك من التحف . فكان الذي ظفر به سليم شاه بن عثمان في هذه السنة من الأموال والسلاح والخيول والبغال والجمال والخيام والبرك ، ولا سيما

(٣٣٢) أباحه : كلمة تحقير .

(٣٣٣) أرقاب : جمع رقبه وهي قماش حرير مذهب يوضع على رقبة فرس السلطان .

(٣٣٤) الطبول بازات : يقصد بها الطبول المطعمة بالمينة .

ما كان مع السلطان والأمراء والعسكر مالا ينحصر ولا يضبط .

ودخل المرة الثانية فصلى صلاة الجمعة في جامع الأطروش بحلب ، وخطب باسمه ودّعي له على المنابر في مدينة حلب وأعمالها ، ولما صلى صلاة الجمعة زينت له المدينة ، وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، والتف عليه الخوارج إبراهيم السمرقندي ، والخوارج يونس العادلي ، والعجمي الشنقجي ، وكان هؤلاء من أخصاء الغوري ، وكانوا مع ابن عثمان في الباطن ، ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار الملكة ، فلما فقد السلطان أظهروا عين المحبة لابن عثمان ، وصاروا يحيطون على الغوري ، ويذكرون أفعاله الشنيعة وانضموا لجماعته ونسوا إحسان الغوري لهم .

ومن كان موالسا على السلطان في الباطن خاير بك نائب حلب ، فإنه أول من كسر عسكر السلطان الغوري وهرب عن ميسرته فتوجه إلى حماة ، فلما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه وخلع عليه ، وصار من جملة أمرائه ، ولبس زي التراكمة العمامة المدورة والدلامة ، وقصص ذقنه وسماه ابن عثمان خاين بك ، لأنه خان سلطانه وأطاع ابن عثمان ، فلما جرى ذلك تسحبت ممالك خاير بك نائب حلب ، وتوجهوا صحبة العسكر إلى مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان .

ثم إن ابن عثمان دخل إلى مدينة حلب ثالث مرة بسبب أنه دخل بها الحمام ، وأنعم على معلم الحمام بمبلغ كبير من المال .

واستمر الخليفة والقضاة الثلاثة الشافعي والمالكي والحنبلي في الترسيم^(٢٣٥) بحلب لا يخرجون منها إلا أن يأذن لهم ابن عثمان ، وأقام بحلب جماعة كثيرة من أعيان الناس بعد الكسرة ، منهم : القاضي عبد الكريم بن الجيعان كاتب الخزانة الشريفة ، وعبد الكريم بن فخيرة أحد كتاب الماليك ، وعبد الكريم بن اللاذني

(٢٣٥) الترسيم : تقابل في عصرنا الإقامة الجبرية .

مستوفي الزرد خاناه ، والرئيس محمد بن القيصوني ، وإمام السلطان السديسي الذي كان قاضي قضاة الحنفية ، وإمام السلطان ابن الرومي ، والخواص مؤذن السلطان ، ورفيقه رصاص المؤذن ، ويحيى بن بكير وأخوه ، وجماعة آخرون ، فهؤلاء تخلفوا بحلب بعد الكسرة وغيرهم آخرون - ولما دخل ابن عثمان إلى مدينة حلب نادى فيها بالأمان والبيع والشراء ، وأن كل من كان عنده وديعة للأمرء وللعسكر من خيول وسلاح وقماش يحضر ما عنده ، وإن غمز عليه ولم يحضر ما عنده شنى من غير معاودة .

أسباب الهزيمة :

تعود أسباب الهزيمة إلى عوامل عديدة :

١ - وضع كل من الجيشين العثماني والمملوكي :

دخل السلطان سليم معركة مرج دابق على رأس جيش كبير العدد اختلفت فيه الروايات بين ستين ألفاً ومئة ألف ومئة وعشرين ألفاً ، فكان في الحد الأدنى للتقديرات يزيد عن ضعف الجيش المملوكي .

وقدم هذا الجيش إلى المعركة وهو يحمل انتصارات البلقان العديدة ، وقد تَوَجَّهًا بانتصاره على الجيش الصفوي في جالديران ، فتأجج بالروح المعنوية العالية لانتصاراته من جهة وبتجاربه المستمرة في الحروب من جهة أخرى .

ودعم هذا الجيش بالأسلحة النارية - المدافع والبنادق - مما كان يفتقر إليه خصمه .

أما الجيش المملوكي فقد كان أقل عدداً من الجيش العثماني ، إذ خرج السلطان الغوري بخمسة آلاف مقاتل من مصر ، ولو أضفنا إليهم مماليك نواب بلاد الشام - غزة - صفد - دمشق - طرابلس - حماة - وحلب ، لما اجتمع لديه أكثر من ثلاثين ألفاً كحد أعلى .

وافتقر هذا الجيش للروح المعنوية العالية بسبب ما سمعه من انتصارات الجيش العثماني ، وآخرها في جالديران ، كما افتقر إلى الخبرة القتالية بسبب توقف المماليك عن الفتح من جهة ، وعدم تعرض بلاد الشام ومصر لغزوات كبرى منذ مدة طويلة ، ولم تتعد مهمات الجيش تأديب البدو ، أو ردّ بعض الاعتداءات البسيطة على الحدود ، وقد رأينا كيف أن ثورة شاه سوار قد كلفت الدولة في عهد السلطان الأشرف قايتباي إرسال أربع حملات حتى قضى عليها .

وحافظ الجيش المملوكي على تقاليده القديمة في الفروسية والقتال ، ولم يحاول السلاطين تطوير هذا الجيش مع تطور تسليح الجيوش في ذلك الوقت ، ولم يتعظوا بما سمعوه عن عمل الأسلحة الجديدة . وهكذا دخل الجيش المملوكي معركة مرج دابق بأسلحته التقليدية المعروفة ، بينما كانت مدافع وبنادق السلطان سليم له بالمرصاد .

إن ما مر في وصف ابن إياس لمعركة مرج دابق من انتصار المماليك في بدء المعركة ، لم يكن إلا خطة عسكرية طبقتها السلطان سليم في مرج دابق ، وكان قد طبقتها قبل عامين مع الصفويين ، وتقضي هذه الخطة بالهجوم والتقدم أولاً ، ثم بالتراجع حتى يصبح الجيش المعادي على مرمى المدفعية والبنادق التي تعمل في الوقت المناسب ، ولا أدل على ذلك مما ورد في إحصاء لعدد قتلى المماليك الذي بلغ خمسمائة بالرصاص والبنادق .

ولا شك أن الفروسية في الجيش المملوكي لا تتلاءم مع حمل البنادق والقتال بها ، لا بل وحتى بعد معركة مرج دابق بقي المماليك يصرون على عدم استعمال الأسلحة النارية .

وافتقر الجيش المملوكي إلى الوحدة في التشكيل ، فقد تألف من المماليك الذين رافقوا السلطان الغوري عند خروجه من مصر ، مع مماليك نواب بلاد

الشام ، عدا عن أن التنافس والبغضاء كانت تدب بين فرق الجيش الذي تألف من المماليك الجلبان والمماليك القرانصة ومماليك الأمراء والنواب ، وكان الغوري قد أكثر من المماليك الجلبان ، وكان يميزهم بالأعطيات على القرانصة رغم قلة خبرتهم لحداثة سنهم . ومما رواه ابن إياس أن السلطان قد قال للمماليك الجلبان « لا تقتاتلوا شيء واخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم » وكان هدفه من ذلك التخلص من المماليك القرانصة لضمان إخلاص الجلبان له ، وقد علم القرانصة بذلك أثناء القتال فأخذوا يتخاذلون .

٢ - الخيانة :

لعبت الخيانة دوراً كبيراً في تقويض الدولة المملوكية ، سواء أكان ذلك قبل أو أثناء أو بعد معركة مرج دابق ، فقد سعى كبار رجال الدولة المملوكية إلى تحريض السلطان سليم سراً وتشجيعه على غزو الدولة المملوكية .

وقد رأينا كيف هرب خوشقدم شاد الشون إلى السلطان سليم ، وكشف له مساوئ حكم السلطان الغوري ومظالمه ، واستياء السكان منه ، ومن المحتمل أنه لعب دوراً بالاتصال بنائبي حماة - خاير بك - وحلب - جانبردى الغزالي - .

وجاءت الخيانة من أكثر المقربين إلى السلطان قانصوه الغوري وهم :

إبراهيم السمرقندي ، يقول ابن إياس : إنه من أهل المدينة المنورة^(٢٣٦) ، وكان قد تجول في بلاد العجم والروم ويعرف اللغة التركية ، وقد دخل مصر وتقرّب من السلطان الغوري وأصبح من جملة أخصائه ، والتف حول سليم شاه بعد مرج دابق ، وقيل إنه حسن له دخول مصر ، وقد أرسله سليم شاه إلى مصر قبل معركة الريدانية للتجسس ، فقدم إلى أحد العربان وبات عنده ، فلما عرفه

(٢٣٦) تدل نسبته (السمرقندي) ومعرفته للتركية إنه تركي الأصل من آسيا الوسطى .

حز رأسه ليلاً وأحضره إلى السلطان طومان باي فكافأه بألف دينار . وقد ظهر أنه كان يرأس السلطان سليم مع يونس العادلي وذلك من الوثائق التي ضبطت في منزله بالقاهرة في رمضان سنة ٩٢٢ هـ^(٣٣٧) .

وكان يونس العادلي من أكثر المقربين إلى السلطان الغوري ، وكان يعتمد عليه في المهمات الخاصة ، ففي سنة ٩١٦ هـ أرسله إلى الأناضول لشراء الخشب والحديد والبارود ، وفي سنة ٩٢٠ هـ كلفه بصحبة الخاصكي ماميه بالسفر إلى دمشق لخطبة ابنة نائب الشام سيباي إلى ابنه محمد ، وقد حضرا إلى دمشق وعقدا العقد على الابنة الصغرى شقراء بسبب وفاة الكبرى وهم في طريقهم إلى دمشق . وقد انضم للسلطان سليم في حلب ، ودخل معه إلى دمشق ، ثم دخل القاهرة بعد معركة الريدانية صحبة خوشقدم الذي سبق أن فر إلى السلطان سليم وحرّضه على غزو بلاد الشام ومصر . وقد تأكد أنه كان يرأس السلطان سليم ويخبره بأحوال السلطان وأمور الدولة^(٣٣٧) .

أما العجمي الشنقي فقد كان نديماً ومضحكاً للسلطان ، يتقدمه في المواكب السلطانية ، وكان الأمراء يعظمونه ويقفون له عند دخوله ، ويتوسطه الناس لقضاء حوائجهم لدى السلطان ، وقد أرسله السلطان في مهمة سرية بشهر رمضان سنة ٩٢١ هـ إلى الشاه إسماعيل الصفوي مع فيلين هدية ، وأُشيع في حينه أنه ذهب إلى نائبي الشام وحلب ، وعاد في ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هـ وظن أنه مات لطيلة غيبته ، ويبدو أنه أطلع السلطان سليم على مهمته السرية ومراسلات الغوري والصفوي^(٣٣٨) .

(٣٣٧) بدائع الزهور ٨٤/٥ .

(٣٣٨) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لابن طولون (٢٢/٢) .

ولعب خاير بك نائب حلب دوراً فعالاً في سرعة هزيمة الجيش المملوكي ، إذ كان يقف على مسيرة الجيش وانسحب من المعركة بعد أن أشاع مقتل الغوري فسادت الفوضى بين المقاتلين ، وأصله من صمصوم^(٣٣٩) قدمه والده للسلطان الأشرف قايتباي الذي جعله من جملة المماليك السلطانية ، ثم قرره خاصكيا ، وأخذ يترقى في المناصب إلى أن جعله السلطان قانصوه الغوري حاجب الحجاب ، وبقي كذلك حتى توفي شقيقه قانصوه البرجي نائب الشام ، فنقل السلطان الغوري سيباي من نيابة حلب إلى نيابة الشام ، واستقر خاير بك في نيابة حلب من سنة ٩١٠ هـ ، وكان على اتصال بالسلطان سليم ، وقد كتب إلى السلطان الغوري في صفر سنة ٩٢٢ هـ محاولاً منعه من القدوم إلى حلب^(٣٤٠) ، وانسحب بقواته من مرج دابق وتوجه إلى حماة ، ثم عاد إلى حلب بعد دخول السلطان سليم إليها ، وصار من جملة أمرائه ، فلبس زيه ، وقص ذقنه ، وسماه ابن عثمان خاين بك لخيانته لسلطانه ، ودخل دمشق صحبة يونس العادلي تمهيداً لقدم السلطان سليم ، ورافقه إلى مصر ، وأقره السلطان سليم على نيابة مصر في شعبان سنة ٩٢٣ هـ وبقي فيها حتى توفي في ذي القعدة سنة ٩٢٨ هـ . وكان جباراً عسوفاً سفاكاً للدماء داهية كثير الخداع ، وقد حسنَ للسلطان سليم التوجه إلى مصر وعرفه ما يصنع ، ودفعه لشنق السلطان طومان باي على باب زويلة ، ولم تكن تحصى مساوئه .

وكان جانبردي الغزالي نائب حماة أكثر دهاءً من خاير بك ، فقد انسحب من مرج دابق مع ممالিকে متظاهراً بالهزيمة ، وحضر إلى دمشق مع محمد بن السلطان الغوري ، وتولى نيابتها باتفاق الأمراء الذين اجتمعوا فيها ، ثم غادرها إلى مصر ، ولعب دوراً كبيراً في انتصار السلطان سليم في معركة الريدانية ، فقد

(٣٣٩) صمصوم : مدينة تقع على ساحل البحر الأسود شمال تركيا (المصور ١) .

(٣٤٠) راجع الصفحة ٢٣٥ من هذا الكتاب .

قاد تجريدة من ألفي مملوك أوقعهم في كمين نصبه سنان باشا وزير السلطان سليم في بيسان بفلسطين ، لم ينج منهم سوى العدد الضئيل ، وعاد إلى القاهرة متظاهراً بجرحه في المعركة ، وأشار على السلطان طومان باي بجفر نفق لنصب المدافع فيه وغمرها بالرمال بغية إخفائها عن القوات العثمانية قبل معركة الريدانية ، وكشف مواقع المماليك وتوزيعهم لخاير بك سراً ، فكان أن التف العثمانيون حول المدافع والمماليك ، قبل أن يتمكن المماليك من استعمالها ، فكانت هزيمة المماليك في الريدانية بعد ساعات قليلة من بدء المعركة .

وكشف جانبردي الغزالي نفسه بعد دخول السلطان سليم القاهرة بحجة طلبه للأمان ، وتولى نيابة الشام بعد ذلك حتى وفاة السلطان سليم ، فقام بثورته على السلطان سليمان القانوني مما سيرد ذكره .

السلطان سليم في دمشق :

بدأ وصول الأمراء والعساكر المهزومة إلى دمشق من مرج دابق بدءاً من الثالث من شعبان ، وقد أغلقت أبواب البلد كلها ، وشاعت الفوضى فيها ، وانتشر الزعر وقتلوا خلقاً كثيراً .

ووصل إليها محمد بن السلطان الغوري ، ومعه جان بردي الغزالي نائب حماة ، وبعض الأمراء والمباشرين ، وأخبروا بمقتل السلطان ، وناظر الجيش القصري ، ونائب الشام سيبي .

وفي الخامس من شعبان اتفق جماعة من الأمراء العائدين من مرج دابق على نيابة جان بردي الغزالي للشام ، وتم ذلك في إصطبل دار السعادة^(٣٤١) ، وولوا

(٣٤١) إصطبل دار السعادة : موقع إصطبل دار السعادة هو مقر وزارة العادلة في دمشق حالياً ، أما دار السعادة فكانت شرقياً داخل السور غربي جامع الأحمدية بسوق الحميدية يفصل بينها الطريق فقط ، وهي دار أيوبية الأصل كان الولاة المماليك ينزلون فيها . « راجع ولاية دمشق في عهد المماليك طبعة دار الفكر ص ٣٨ للاطلاع على المزيد من التفاصيل عنها » .

نيابة صفد وطرابلس لشخصين آخرين ، ونودي بالأمان في دمشق ، وفتحت المدينة أبوابها ، ومنع الغزالي العساكر من السفر إلى القاهرة ريثا يأتي جواب طومان باي الدوا دار الكبير في مصر .

وفي العشرين منه وصل إلى دمشق متسلماً^(٣٤٢) حماة وحمص - وكان الغزالي قد ولّاهما قبل ثلاثة أيام - وأخبر أن سليم شاه قد ولى فيها متسلمين من عنده ، فسمح الغزالي للعساكر بالسفر إلى مصر ، وأخذ يجهز نفسه للسفر ، وغادر دمشق محمد بن السلطان الغوري وزوجته ابنة سييبي نائب الشام المقتول ووالدها ، وعدد كبير من الأمراء والعساكر والمباشرين وأرباب الوظائف .

وفي الثامن والعشرين منه ، وصل متسلم سليم شاه إلى القابون الفوقاني ، واسمه مصلح ميزان ، ووجه اثنين من الخاصكية ومعهما إبراهيم السمرقندي ويونس العادلي وابن عطية التاجر إلى دمشق ليكشفوا هل يسلم أهالي دمشق أم يقاتلوا ؟ .

وكان قد اجتمع بعض مشايخ دمشق ومشايخ الحارات في المصلى بميدان^(٣٤٣) الحصى واتفقوا على تسليم البلد ، فاستقبل الأهالي الخاصكيين ومن معهم بالتهليل مع المناداة بالأمان إلى أن وصلوا إلى باب الفرج^(٣٤٤) ، فوجهوا الأمير إسماعيل بن الأكرم إلى نائب القلعة ، فامتنع عن تسليمها ، فسلمهم الأهالي البلد وفتحوا أبوابها .

ثم دخل المتسلم مصلح ميزان المدينة ، ومعه نحو مائتي رجل ، وزع بعضهم عند أبواب الحارات ، وحضر إلى الجامع الأموي ومعه القضاة الأربعة ، وكتبوا إلى سليم شاه بما حدث لينادي بعساكره تجنب الناس .

(٣٤٢) المتسلم : الحاكم .

(٣٤٣) ميدان الحصى : هو حي الميدان التحتاني في دمشق حول جامع باب مصلّى .

(٣٤٤) باب الفرج : هو باب المناخية قرب سوق النحاسين حالياً بدمشق .

وفي التاسع والعشرين منه دخل دمشق خاير بك نائب حلب السابق ، وقد حلق لحيته ولبس اللباس العثماني ، وصحبته يونس العادلي ومصلح ميزان ، واجتمعوا بنائب قلعة دمشق علي باي .

ثم دخل نائب الشام من قبل سليم شاه واسمه يونس باشا ونزل بالمرجة ، وحضر إليه خاير بك ، ثم ذهب وأحضر نائب القلعة ، واتفق النائب معه على أن يبقى في القلعة إلى أن يحضر السلطان سليم .

وتتابع وصول العساكر إلى دمشق فنزل بعضهم على أناس خارج دمشق كرهاً ، فاشتكى هؤلاء إلى النائب فربط العسكر بالحبال وضرب أعناقهم ، فارتدع بقية العسكر بهم .

وفي يوم السبت الأول من رمضان ، وصل السلطان سليم إلى المصطبة في القابون الفوقاني بجيش قيل إن عدته مائة وثلاثون ألفاً . وأمامه ثلاثون عربية ، وعشرون قلعة على عجلات يسحب كلاً منها بغلان ولما أطلقوا البارود في المصطبة ، ظن أهل دمشق أن السماء انطبقت على الأرض ، وخلفهم النايات والطبول النقارة ، وخلفهم المشاة ورماة البندق ، وخلفهم الخنكار^(٣٤٥) سليم الملك المذكور وخلفه السناجق والطوخان^(٣٤٦) والعساكر على حسب طبقاتهم .

(٣٤٥) الخنكار : كلمة فارسية الأصل استعملت بمعنى الملك أو السلطان .

(٣٤٦) الطوخان : جمع طوخ وتقابل الجاليش عند الأيوبيين والمماليك وهي عمود خشبي يرفع على رأسه شعار الدولة وهو كرة مذهبة قد يعلوها هلال وفي أسفل الكرة خصلة من ذيل حصان مصبوغة باللون الأحمر .

صفة معسكر السلطان في القابون :

يصف ابن طولون المعسكر في المفاكهة ٢ / ٣١ .

« وفيه ذهبت إلى وطاق الخنكار ، قاصداً الاجتماع بالمدرسين الذين معه ويقال إن عدتهم ستة وثلاثون مدرساً حنفياً ، فلم يتيسر ذلك لعدم المعرفة بلسانهم فدرت فيه فذهلت من كثرتة وتعجبت من الأسواق التي فيه ، وقلما تروم شيئاً إلا تجده فيها وهي سائرة معه من بلاده ، فمن صنف اللحامين خمسة عشر قالياً للحم ومثلها من الطباخين لعدة ألوان ، ومثلها حكماء ، ومثلها جرايحة ، ومثلها بياطرة ، ومثلها أساكفة ، ومثلها حدادون ، ومثلها علافون ، وهذه الأعداد تقريباً ، وغالب ظني أنها أكثر من ذلك ، إلى غير ذلك من السُّوقَة .

ثم ذهبت إلى العربات والقلاع ، فتفرجت فيها ، ولم أرها قبل ذلك فإذا هي أمر عجيب تدل على تمكنه ، والعربات مجنزرة بعضها في بعض بحيث إذا صفت تكون كالسور ، وكل عربة ترمي بندقية ملء كف الرجل من رصاص ، ولهذا البندق صندوق تحتها ، وهي مركبة عليه في طول الشخص .

ثم ذهبت إلى مخيم الخنكار فلم أتمكن من القرب به ، وتفرجت على طبوله فإذا كل طبل قدر حمولة رجلين يحمل كل اثنين منها على جمل ، ومخيمه على نفس المصطبة والعسكر بالبعد منه قدر رمية حجر من كل جانب وهم محتاطون به كالسور على البلد .

وفي يوم الخميس السادس من رمضان دخل الخنكار إلى دمشق لأول مرة من المصطبة في القابون إلى حمام الحموي في عمارة السلطان قايتباي^(٣٤٧) بمحلة مسجد

(٣٤٧) حمام الحموي : في زاوية أول الطريق المتجه من مسجد الأقصاب إلى باب السلام بدمشق مسجد صغير يلاصقه من جهة الغرب حمام السلطان قايتباي ، وعلى رأس الحمام اسم قايتباي =

القصبة ، وكان أمامه عدد كبير من الخاصكية ، وخلفهم رماة البندق وخلفهم الشاوشية ثم هو ، وخلفه مملوكان أمردان بشعور لابسين كوفيتين من ذهب ، وخلفها جمع من عسكره ، وكان قبل دخوله بلحية لطيفة ، حلقها بالحمام كغالب عسكره ثم ركب ورجع المصطبة .

وفي اليوم التالي الجمعة أتى إلى الجامع الأموي ودخل من الباب الشمالي المسمى الناطفانيين^(٣٤٨) ثم مشى بخط مستقيم إلى أن أتى من باب جانب السدة ثم مشى إلى تحت قبة النسر ثم إلى المقصورة ، وخطب القاضي الشافعي الولوي بن الفرفور ، واستطرد في الخطبة الأولى إلى ذكر السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ومنهم الإمام العادل وطبق ذلك على ملك الروم الحاضر ، وذكر في الثانية نسبه باختصار عند الدعاء له ، ولقبه بالملك المظفر ، وصرّح بأنه سلطان الحرمين الشريفين .

وانصرف السلطان سليم بعد الصلاة وخرج من المكان الذي دخل منه ، وأرسل للخطيب ثلاثة آلاف عثماني ومثلها للمؤذنين ومثلها لأئمة الجامع وألفاً لبواب المقصورة ومائة رأس من الغنم ، ثم عاد إلى المصطبة .

ويقول ابن طولون^(٣٤٩) « وفي يوم الثلاثاء حادي عشره هرب هؤلاء الذين لبسوا الخلع من دمشق دغشة وهجم العساكر عليها وعلى ضواحيها للسكنى بها ،

= وهذا الحمام يسمى « حمام السلطان » ، والظاهر أن عمارة قايتباي كانت على مقربة من هذا الحمام . وهي عبارة عن وكالة (خان تجاري) ، وقد دثرت هذه العمارة وبقي الحمام ، ويبدو أن حمام الحموي كان قريباً من هذه العمارة ، وهو منسوب إلى الأمير عز الدين ايبك الحموي . انظر كتابنا : ولاية دمشق في عهد المماليك ص ٧٩ .

(٣٤٨) باب الناطفانيين : هو باب العمارة بدمشق وسمي بهذا الاسم لشهرة حي العمارة بصنع نوع من الحلوى ما زال يصنع في الأعياد ويدعى « الناطف » .
(٣٤٩) المفاكهة ٣٤/٢ .

فأخرجت أناس كثيرة من بيوتها ، ورميت حوائجهم ومؤنهم ، وطرح جمع من النساء الحبالى ، وحصل على الناس شدة لم تقع لأهل دمشق وضواحيها قط ، حتى سافر من له قدرة ، وبعضهم سكن الجوامع والمدارس بجريهم ، وأخرجت من بيتي ورميت كتبي ، ولم يوقروا أحداً ، لا صغيراً ولا كبيراً ، ولا أهل القرآن ، ولا أهل العلم ولا الصوفية ولا غيرهم . »

واستمر الأمر هكذا إلى يوم الخميس ثالث عشره ، فنزل السلطان إلى دمشق وسكن في بيت تم نائب غيبة سيبي - الذي سافر إلى مصر - خلف المدرسة النورية^(٣٥٠) ، وجعل قيسارية القواسين^(٥٦) مطبخاً لهم ، ورحل أهل المحلة كلهم .

وفي يوم الجمعة رابع عشره فرّق السلطان سليم على جميع أئمة الجوامع والمساجد والمدارس ومؤذنيهم وخطبائهم وقيّموها وسكانهم مالا كثيراً ، وأكثر ما ناب الشخص منهم مائة درهم في دمشق وضواحيها كالصاحبة واستمر في التفرقة ثلاثة أيام . كما ذهب فيه أيضاً إلى الربوة وتفرج بها وعاد على النيرب الأعلى ونزل على الجسر الأبيض إلى منزله بيت تم .

وفيه أيضاً عزل عن نيابة دمشق يونس باشاه وولى مكانه الأمير شهاب الدين أحمد بن يخشي .

وفي ليلة الاثنين سابع عشره جاء السلطان نحو نصف الليل إلى الجامع الأموي ليتأمله ، فدخل إليه من باب البريد في أناس قليلة وصلّى بالمقصورة ، وقرأ في المصحف العثماني ، وزار قبر رأس سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام ، ثم قبر هود عليه السلام ثم صعد المنارة الشرقية . ثم زار بالكلاسة شخصاً صوفياً يقال

(٣٥٠) المدرسة النورية وتقع في سوق الحرير بدمشق .

(٥٦) قيسارة القواسين : تقع في سوق السلاح قرب سوق الحرير .

له الشيخ محمد البلخشي الصوفي الحنفي ومشى معه إلى داخل الجامع وجلس معه ساعة وعرض عليه دراهم فأبى أخذها ويقال إنه وصاه بالرعية .

وفي يوم السبت ثاني عشره خرج إلى قبة يلبغا متفرجاً ثم رجع وقت الظهر .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه عزم الخنكار على هدم ما حول القلعة وسور البلد من البيوت والدكاكين ، فقومها المعلم أحمد بن العطار فبلغ التقويم مائة وخمسين ألف دينار ، فرجع الخنكار عن ذلك وقال : « أنا ما جيت إلا أعمر وما جيت أخرب » .

وفيه عرض عليه ثوب الكعبة مع طرازه المكتتب عليه اسمه واسم آبائه وثوب المحمل وقد عمله من قماش كفاوي .

وفيه عين لبيت المقدس وغزة وما حوالها من عساكر الرومية عشرة آلاف للتوجه إلى تلك الأماكن ليسكوها خوفاً من أن يسبق إليها العسكر المصري ويقطعوا على جماعته المعينين للتوجه إلى مكة المشرفة صحبة الثوب المذكور والحاج .

وفي يوم الاثنين خامس عشر شوال فرض على أهل الحارات وكذا على النصارى واليهود ليتوجهوا إلى تعزيل وعرة سعسع^(٣٥١) والطريق إلى جسر يعقوب^(٣٥٢) مقابل عشرة دراهم يومياً للعامل فامتثل الناس للأمر .

وعمر أثناء ذلك المدرسة النورية ودخل إليها وجلس بها وجعل بها صناديق المال .

(٣٥١) سعسع بلدة تقع على طريق دمشق القنيطرة إلى الجنوب من دمشق والمشهور عن أراضيها أنها

بركانية وعرة . (المصور) .

(٣٥٢) جسر يعقوب ويقع على الحدود السورية الفلسطينية فوق نهر الشريعة (الأردن) .

وفي يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة جاء الخنكار إلى قبر الحيسوي بن العربي فزاره وقرّق دراهم كثيرة على أهل الصالحية عند قبره وخارجته ، ثم زار مزارات كثيرة كبرزة والشيخ رسلان وباب الصغير وفرق دراهم عند كل منها ، ذلك أنه جاءته البشارة بأخذ عسكره لبيت المقدس وغزة وما حولها فعزم على التوجه خلف عسكره لأخذ مصر من أيدي الجراكسة فأراد التوديع لمآثر دمشق . وفي يوم الأحد تاسع عشره طلع مخيم الخنكار ونصب خارج البلد .

وفي يوم الاثنين سافر الخنكار وخرج من دمشق أول الفجر ومعه الشموع والنايات والطبول والعربات وشرع العسكر في الذهاب وصحبتهم يونس العادلي والخليفة .

اضطرابات القاهرة وسلطنة طومان باي :

بدأت أخبار هزيمة المماليك في مرج دابق تصل إلى القاهرة في شعبان سنة ٩٢٢ هـ فاضطربت أحوال الناس وأقام أهالي القتيلى العزاء ، ونعي السلطان ومن قتل من الأمراء . ولما تحقق موت السلطان الغوري توقف الدعاء باسمه على المنابر ، بل دعى الخطباء باسم الخليفة فقط وبعضهم قال : اللهم ولّ علينا خيارنا ولا تولّ علينا شرارنا .

وتزايدت الاضطرابات مع ورود المريد من الأخبار ، فقام العربان بنهب بعض القرى وقتل الفلاحين ، وقتل أولاد شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر عدداً كبيراً من التجار والعساكر .

وحاول المماليك الجلبان نهب خان الخليلى وقتل بعض تجاره بحجة أنهم من الأروام أعوان ابن عثمان فأوقفهم بعض الأمراء . وتزايد في رمضان عودة العساكر والأمراء المهزومين ومن استطاع من القضاة وأصحاب المناصب الهرب من ابن عثمان إلى بلبيس .

وعندما تكامل دخول الأمراء إلى القاهرة ، أجمعوا على سلطنة الأمير طومان باي ورشحوه للسلطنة فصار يمتنع عن ذلك غاية الامتناع وهم يصرون عليه وهو ممتنع لأسباب شتى : منها أن خزائن بيت المال فارغة ولا يملك ما ينفقه على العسكر ، ومنها خطر ابن عثمان في الزحف على القاهرة والخشية من تقاعس الأمراء في الخروج إليه ، ومنها خشيته من الغدر به وخلعه وسجنه بثغر الاسكندرية ، وحلف الأمراء على المصحف الشريف بأنهم إذا سلطنوه لا يخامرون عليه ولا يغدرونه ولا يثيرون فتناً وأنهم ينتهون عن مظالم المسلمين قاطبة .

وقت له البيعة يوم الجمعة في الرابع عشر من رمضان ، بحضور أمير المؤمنين يعقوب والد الخليفة المتوكل على الله^(٢٥٢) ، وجاعة من القضاة وسائر الأمراء المقدمين وغيرهم . وقد أحضرت له خلعة السلطنة وهي الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيف البداوي ، ونودي باسمه في القاهرة وخطب من يومها باسمه على المنابر ، وكان له من العمر ثمان وثلاثون سنة ، وهو آخر سلاطين المماليك البالغ عددهم سبعة وأربعون . وكان طومان باي قد تولى نيابة الغيبة في مصر عوضاً عن السلطان الغوري بعد سفره إلى حلب ، فسيّر الأمور بحكمة ورضي الناس عنه وأطاعه من بقي من العسكر في مصر .

محاولة إعادة تنظيم الدولة :

وكانت أولى أعماله إعادة توزيع الوظائف والمناصب على الأمراء ، بعد أن قتل وأسر عدد كبير من أصحاب هذه المناصب في مرج دابق ، فأقر سودون الشهابي أتابك للعسكر عوضاً عن سودون العجمي ، وقرر جان بردي الغزالي في

(٢٥٢) كان الخليفة وقتئذ المتوكل على الله في الأسر عند السلطان سليم ، وقد بايع والدّه يعقوب طومان باي نيابة عن ابنه ، بعد أن أبرز للقضاة وكالة مطلقة من ولده المتوكل قبل سفره صعبة السلطان قانصوه الغوري إلى حلب .

نيابة دمشق بدلاً من سيبي ، وعين أركاس من طرباي أمير سلاح ، وقرر أنصباي من مصطفى أمير آخور كبير بدلاً من محمد نجل السلطان الغوري ... وغيرهم من الأمراء الذين أقرهم بالمناصب الشاغرة .

وعمل على استرضاء العربان لكسب ودهم ، فخلع على شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر رغم ما قام به أولاده من قتل ونهب عند ورود أخبار الهزيمة وعودة العساكر من الشام .

وحاول منع المظالم عن الناس ، وذلك برفضه فرض ضرائب جديدة ، رغم حاجته للمال ، وأنزل العقاب ببعض من كان ينزل بالرعية ألوان الظلم ومنهم الزيني بركات بن موسى .

وفي ذي القعدة قرر السلطان قضاة المذاهب الأربعة دون أن يأخذ من أحد منهم درهماً واحداً ، ومنعهم من السعي إلى القضاء بالمال ، وقال لهم : أنا لا أقبل رشوة في ولاية أحد من القضاة فلا تأخذوا رشوة من الناس أبداً .

قصاد ابن عثمان إلى القاهرة :

في الحادي عشر من ذي القعدة خرج بعض المماليك السلطانية نحو المطرية^(٣٥٤) ، فرأوا جماعة مقبلين نحو بركة الحاج^(٣٥٤) ، فلما قربوا منهم فإذا هم من جماعة ابن عثمان ، فقالوا لهم : من أنتم ، فقالوا : نحن قصاد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وكانوا نحو خمسة عشر إنساناً ، وفيهم القاصد الكبير وهو رجل شيخ بلحية بيضاء وعليه ثياب مخمل ، ورأوا صحبتهم شخصاً من مصر يقال له عبد البر بن محاسن كان كاتب الخزانة عند الأتابكي سودون العجمي ، فلما قتل وملك ابن عثمان حلب والشام تحشّر فيه بواسطة يونس العادلي والسمرقندي ، فلما أرسل ابن عثمان هذا القاصد ما جسر الحجيء من على غزة ، فإن نائب الشام

(٣٥٤) انظر موقعها على الصور رقم ٢ .

جان بردي الغزالي كان بالقرب من غزة فرشى القاصد بعض العربان بمبلغ كبير من المال ، حتى أتوا بهم من طريق غير الدرب السلطاني ، وطلع بهم من على التيه^(٢٥٥) وأتوا بهم إلى عجرور ، فما شعر بهم أهل مصر إلا وهم وسط المدينة .

وقبض المماليك على القاصد وجماعته وعلى ابن محاسن وعلى ثلاثة من العربان كانوا معهم ، وبينما هم على ذلك رأوا ثلاثة أنفار من الأروام الذين في خان الخليلي قد أتوا إليهم وسلموا عليهم وباسوا أيديهم ، فقبض عليهم المماليك وقالوا لهم : « من أين علمتم أن هذا القاصد يجيء اليوم حتى أتيت إليه ، ما أنتم إلا جواسيس من عند ابن عثمان » .

وعندما أحضروا عبد البر بن محاسن إلى السلطان ، أخذ يطنب في أوصاف ابن عثمان وفي تزايد عظمته ، وزعم أنه لما دخل إلى حلب قطع في يوم واحد ثمانمائة رأس من جماعة أهل مصر ممن تخلفوا بحلب ، وادعى أن عساكره تبلغ أكثر من ستين ألفاً ، وأنه خطب باسمه على المنابر من الشام إلى بغداد ، وأنه لما دخل الشام وملكها شرع ببناء عمارة سور وأبراج من القابون إلى آخر مدينة دمشق ، وجعل فيه أبواباً تغلق على المدينة ، وادعى أنه يقول : « ما أرجع حتى أملك مصر وأقتل جميع من بها من المماليك الجراكسة ... » وأخبر بكثرة فتك عساكره بالمدينة وارتكابهم الفواحش . فلما أطنب ابن محاسن في أخبار ابن عثمان ، حنق منه السلطان وقال له : « أنت جاسوس من عند ابن عثمان أتيت لتكشف عن أخبارنا وتطالعه بذلك » ، فرسم بسجنه في البرج بالقلعة ، ثم شفع به الأتابكي سودون الدواداري فأطلق من البرج ، ورسم السلطان بشنق اثنين من العربان الذين أتوا بالقاصد من الطريق التي كانت مخفية عنهم ، وأشيع أنه حضر صعبة القاصد مع جماعة ابن عثمان نحو أربعين نفرأ اختفوا في القاهرة ، فلما بلغ السلطان

(٢٥٥) التيه : هضبة في وسط سيناء تقع إلى الشمال من جبل الطور تنحدر ببطء نحو الشمال باتجاه البحر المتوسط .

ذلك نادى في خان الخليلي بأن أحداً لا يأوي عنده غريباً من جماعة ابن عثمان ،
ومن غمز عليه بأن عنده أحداً من العثمانية شنى على دكانه من غير معاودة .

رسالة سليم شاه إلى طومان باي :

وأرسل السلطان لأخذ المطالعات التي أحضرها القاصد ولم يقابله ، فوجد معه مطالعات للأمراء والمباشرين وأعيان مصر ، وكان من مطالعة ابن عثمان للسلطان طومان باي « من مقامنا السعيد إلى الأمير طومان باي ، أما بعد فإن الله تعالى قد أوحى إليّ بأن أملك الأرض والبلاد من المشرق إلى المغرب كما ملكها الاسكندر ذو القرنين » . وفي المطالعة وعد ووعد وتشديد وتهديد منه : « إنك مملوك منباع مشترى ولا تصح لك ولاية ، وأنا ملك ابن ملك إلى عشرين جد ، وقد توليت الملك بعهد من الخليفة ومن قضاة الشرع » وذكر في مطالعته : « وأني أخذت المملكة بالسيف بحكم الوفاة عن السلطان الغوري ، فاحمل لي خراج مصر في كل سنة كما كان يحمل لخلفاء بغداد » ، ثم قال : « أنا خليفة الله في أرضه وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين » ، ثم قال : « وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة في مصر باسمنا وكذلك الخطبة وتكون نائباً عنا بمصر ، ولك من غزة إلى مصر ولنا من الشام إلى الفرات ، وإن لم تدخل تحت طاعتنا وإلا أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الأتراك حتى أشق بطون الحوامل وأقتل الجنين الذي في بطنها من الأتراك - الممالك - » وفي آخر المطالعة : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

فلما قرئت هذه المطالعات بكى السلطان وحصل له غاية الرعب . وما إن أشيع مضمونها بين الناس حتى اضطربت الأحوال وبدأ سكان القاهرة ينزحون منها إلى الضواحي ، وركب بعضهم المراكب متجهاً إلى الصعيد ، وأشيع أن خاير بك الذي دخل تحت طاعة ابن عثمان أرسل مطالعات إلى بعض الأمراء

المقدمين يرغبهم فيها بالدخول في طاعة ابن عثمان ، ويذكر محاسنه وعدله في الرعية .

وصول العثمانيين إلى غزة :

ووصلت الأخبار إلى القاهرة بإرسال ابن عثمان قواته لاحتلال غزة ، فشكل السلطان تجريدة من ألفي مملوك في ذي القعدة ، وعين عليهم جان بردي الغزالي ، وفيما كان عساكر التجريدة يتجمعون في الريدانية ، حضر دَوَادار خاير بك نائب حلب - السابق - ، وزعم أنه فرّ من ابن عثمان ، وأن ابن عثمان قد أرسل نحو خمسة آلاف فارس صحبة ابن سوار ، وقد أشرفوا على أخذ مدينة غزة ، وأن نائب غزة هرب منها ، فاضطربت الأحوال وتنكد السلطان وأمر بخروج التجريدة فوراً دون تأخير . وفي اليوم الثاني تزايدت الإشاعات بسقوط غزة بيد عسكر ابن عثمان وهروب نائبها ، وخرج عساكر التجريدة في العاشر من ذي القعدة وعلى وجه السرعة ، وخرج أيضاً الأمير قضا بردي الأشرفي أحد المقدمين ونائب الاسكندرية ومعه ثلاثمائة مملوك .

معركة بيسان :

وفي السادس عشر من ذي القعدة ، التقى سنان باشا الوزير الأعظم لسليم شاه وجان بردي الغزالي - الذي تولى نيابة دمشق من قبل السلطان طومان باي - ودولتباي نائب غزة ، وقضا بردي نائب الاسكندرية ، وكانوا كشافة العسكر المصري في بيسان على نهر الشريعة (الأردن) ، فاقتتلوا وكان الغزالي ورفقاؤه قد قصدوا كبس سنان باشا فجاء النذير ، فأخلى لهم الوطاق - الخيمة - حتى أخذوه ، ثم رجع عليهم فكسروهم وجرح الغزالي وولى هارباً ، وقتل قضا بردي ، وعدد كبير من العساكر ، واستولى عسكر ابن عثمان على أسلحة الغزالي وصحبه .

وفي ذي الحجة أشيع بأن القاصد ومن معه قد أغرقوا ليلاً بأمر من السلطان .

وفي الخامس من ذي الحجة دخل جان بردي الغزالي والأمراء والعساكر المهزومة في بيسان وهم في أسوأ حال ، وذكروا عن عسكر ابن عثمان أن معهم رماحاً بكلايب يخطفون بها الفارس من على فرسه ، وأن عددهم لا يحصى ومعهم رماة بالبندق الرصاص على عجلات خشب تجرها أبقار وجواميس ، واستقبل السلطان الغزالي والأمير أرزمك الناشف وخلع عليها .

الزحف العثماني نحو مصر :

كان السلطان سليم قد غادر دمشق يوم الاثنين في العشرين من ذي القعدة ، وتبعه يوم الأربعاء ثاني عشره الخليفة ثم القضاة المصريون عدا الحنفي الذي كان قد توجه مع عساكر الغوري الهاريين إلى مصر .

مذبحة في غزة :

وفي ذي الحجة وردت أخبار إلى القاهرة بأن سنان باشا الذي ملك غزة ، قد لعب في أهل غزة بالسيف وقتل منهم نحو ألف إنسان ما بين رجال وصغار وحقى النساء ، وكان سبب ذلك أن الغزالي لما تلاقى مع سنان باشا على الشريعة ، أشيع في غزة أن الغزالي قد انتصر على عسكر ابن عثمان وقتل سنان باشا ، فبادر علي باي دوادار نائب غزة وأجناد غزة فنهبوا وطباق العثمانية وأحرقوا خيامهم وقتلوا من كان بالوطاق والمدينة من العثمانية نحو أربعمئة إنسان ما بين شيوخ وصبيان ، ومن كان بها مريضاً ، فلما ظهر أن الكسرة على عسكر مصر وقتل من قتل من الأمراء ، رجع سنان باشا إلى غزة فوجد من كان بها قُتل ونُهَب الوطاق ، فجمع أهل غزة قاطبة ، وقال لهم : من فعل ذلك بنا ، قالوا : علي باي دَوَادار نائب غزة وأجناد غزة ولم تفعل نحن شيئاً من ذلك ، فأمر سنان باشا

بكبس بيوت أهل غزة ، فوجدوا بها قماش العثمانية وخبولهم وخيامهم وسلاحهم ، فقال لهم سنان باشا : نحن لما دخلنا غزة هل شوشنا على أحد منكم أو نهبنا لكم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال لهم : فكيف فعلتم أنتم بعسكرنا ذلك ؟ فلم يأتوا بعذر أو حجة ، فعند ذلك أمر عسكره بأن يلعبوا فيهم بالسيف ، فقتلوا منهم ما لا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح ، وأحرقوا في المدينة بعض أماكن للأمراء الذين بها .

الخروج إلى الريدانية والاضطراب :

في العاشر من ذي الحجة ، خرج السلطان طومان باي وصلى صلاة العيد ، وطلع الأمراء بالشاش والقماش على عاداتهم ، وكان الخوف منتشراً بين الناس سيما وقد بلغهم ما فعله عسكر ابن عثمان بأهل غزة من القتل والنهب وسبي النساء .

وفي الثاني عشر منه ، أخرج السلطان الزردخانة لإرسالها صحبة العسكر ، وجلس بالميدان ، وسارت أمامه العجلات الخشب (العربات) وعددها مائة عجلة يجر كلاً منها زوج من البقر ، وفيها مكحلة نحاس ترمي بالبندق والرصاص ، فنزل السلطان من المقعد وفي يده عصا وأخذ بترتيب العجلات في سيرها بالميدان ، وبعدها مائتا جمل تحمل قرابة ألف وخمسمائة طارقة ، إضافة للبارود والرصاص والحديد والرماح ، وقد تقدم الموكب أربعة طبول وأربعة زمور ونحو مائتي رام من التركان والمغاربة وبأيديهم الصناجق وهم ينادون : الله ينصر السلطان ، وبعض الأمراء وعدد كبير من أرباب الحرف : النجارين والحدادين .

وسار الموكب من باب الميدان إلى الرملة ودخلوا من باب زويلة ، واصطف الناس في طرقات القاهرة وارتفعت أصواتهم بالدعاء للسلطان ، وخرجوا من باب النصر وتوجهوا إلى الريدانية وخلع السلطان على الأتابكي سودون الدواداري

وأقره باش العسكر للتجريدة ، وكانت أوضاع المدينة في غاية الاضطراب للأخبار والشائعات التي كانت ترد عن حملة ابن عثمان .

وفي الثامن عشر منه ورد على السلطان أخبار بأن ابن عثمان قد خرج من الشام بنفسه هو وعساكره وقسم عسكره فرقتين : فرقة تأتى من الدرب السلطاني ، وفرقة من على الطريق الذي حضر منه القاصد ، فاضطرب الأمراء لهذا الخبر وأمرهم السلطان بالخروج إلى الريدانية على عجل وأن يكونوا على يقظة ، فقد وصل ابن عثمان غزة ، ومن ثم توجه لزيارة بيت المقدس ، وسيحضر بعدها بعساكره إلى مصر .

وزاد تخطب السلطان والأمراء ، فأرسل نقيب الجيش لإبلاغ جميع الأمراء والمقدمين ضرورة الإسراع بالخروج إلى الريدانية ، ونادى على جميع المغاربة الذين هم في مصر والقاهرة للحضور في اليوم التالي للعرض ، وفي التاسع عشر منه جلس السلطان على الدكة بالحوش وطلع المغاربة إلى القلعة ، فأرسل السلطان إليهم الأمير شاد بك الأعور ، فقال لهم : « يقول السلطان لكم عينوا منكم ألف إنسان من شجعانكم ليخرجوا مع التجريدة » ، فكان جوابهم : « نحن مالنا عادة الخروج مع العسكر ولا نقاتل إلا الفرنج ولا نقاتل مسلمين » ، فعز على السلطان جوابهم وأرسل يهدد بقتل كل مغربي في مصر .

وكان قد طلب من بعض مشايخ العربان إرسال الشجعان منهم لضمهم إلى التجريدة ، وحضر بعضهم ثم عاد ، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم بعد أن أشار عليه بعض الأمراء بعدم جدوى خروجهم في التجريدة . وحتى الزعر فقد جمعهم في الريدانية ووعدهم بصرف عشرة أشرفيات وسيف وترس لكل منهم إذا قاتلوا وانتصروا .

ولم يكن لدى السلطان من المال ما يدفعه للعسكر كما جرت العادة عند

خروج تجريدة ، حتى الجامكية توقف عن دفعها ، ومضت مدة ستة أشهر لم يصرف لهم ثمن اللحوم ، ذلك أن الفلاحين قد امتنعوا عن خراج الأراضي حتى تنتهي الفتنة وكيلا يدفعوا لابن عثمان إن انتصر .

وأشيع أن ابن عثمان أرسل كتاباً إلى شيخ العرب أحمد بن بقر يقول فيه : « ادخل تحت طاعتنا ولك الأمان ولاقينا في الصالحية ومعك ألف أردب شعير » ، وأشيع أن عبد الدايم بن أحمد بن بقر توجه إلى ابن عثمان في غزة .

معسكر الريدانية :

وفي نفس يوم التاسع عشر من ذي الحجة ، نادى السلطان للعسكر كافة بالعرض في اليوم التالي بالريدانية ، وهم في كامل الاستعداد ، ثم نزل إلى الميدان وصلى العصر وركب من هناك وتوجه إلى الريدانية وبات بها في الوطاق .

وفي اليوم التالي لبس العسكر آلة السلاح وخرج للعرض بالريدانية بحضرة السلطان ، وصار الأمراء المقدمون المعينون للتجريدة يخرجون بأطلائهم الحربية مع ممالئهم ، فخرج الأتابكي سودون الدوّاداري وجان بردي الغزالي وأركاس أمير سلاح ويخشباي أمير مجلس ، وأنصباي أمير آخور كبير ، وتمر رأس نوبة النوب ، وعلان الدوادار الكبير وطقطباي حاجب الحجاب ، كما خرج بقية الأمراء المقدمين قاطبة ، والأمراء الطبلخانات والعشرات وعساكر مصر ولم يبق إلا القليل .

وهذه التجريدة أكثر عسكراً من التجريدة التي خرجت مع السلطان الغوري ، وكان السلطان طومان باي ذا عزم شديد في عمل العجلات وصب المكاحل وصنع البندق والرصاص وجمع الرماة ، وقد ركب من الوطاق وتوجه إلى المصطبة في الريدانية - عندما خرج العسكر - وجلس بها كما تجمع عدد كبير من العوام وهم يلهجون بالدعاء للسلطان بالنصر . ومع تجمع العساكر نادى السلطان

عليهم بأن يكونوا جميعاً في الصالحية بعد ثلاثة أيام للعرض ، وأرسل المشاعلين^(٢٥٦) إلى القاهرة للمناداة على المماليك السلطانية للخروج إلى الوطاق ، وكل من يتأخر يشنق على باب داره ، وأجبر العساكر على المبيت في الوطاق بعد أن علم أن بعضهم يبيت في بيته ليعود في صبيحة اليوم التالي . كما أمر السلطان بحفر نفق طويل لنصب الطوارق والمكاحل المعمرة بالمدافع وصف حولها العربات الخشب وأقام جداراً أمام المكاحل لحمايتها وإخفائها ، وأخذ يحمل بنفسه الحجارة للبنائين ففعل ذلك المماليك أيضاً .

وأمر السلطان الأمير ماماي الصغير المحتسب ، بأن ينادي في القاهرة لأرباب البضائع من الزياتين والخبازين واللحامين بأن يتحولوا ببضائعهم إلى الوطاق عند تربة العادل وينشئوا هناك سوقاً لبيع العسكر .

الخطأ الكبير :

في الخامس والعشرين منه حضر الأمير قانصوه العادلي كاشف الشرقية ، وكان السلطان قد أرسله ليكشف أخبار عسكر ابن عثمان ، فلما وصل إلى الصالحية رأى جماعة من عسكر ابن عثمان قد وصلوا هناك ، فقبض على شخصين منهم وحز رأسيهما وأحضرهما إلى السلطان ، وكان صحبة الرأسين شخص من أبناء حلب من جماعة خاير بك نائب حلب ، فلما وقف بين يدي السلطان أخبره أن الواصل إليه خاير بك نائب حلب وصحبته ابن سوار وجماعة من أمراء ابن عثمان ، وذلك في ثمانية آلاف فارس ، وقد بطلت خيولهم من التعب والجوع ، ووجد مع هذا الرجل الحلبي عدة مطالعات من عند خاير بك إلى الأمراء المقدمين في مصر فأخذ السلطان المطالعات ووضع الحلبي في الحديد .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخل إلى بلبيس نادى لأهل بلبيس بالأمان

(٢٥٦) المشاعلين : المنادين .

والاطمئنان ، وأن أحداً من العثمانيين لن يؤذي أحداً من الأهالي وما حول بلبيس من القرى ، ثم أشيع أن عساكر ابن عثمان قد وصلت إلى العكرشة ، وتأكد السلطان من ذلك وأراد أن يخرج بعسكره لملاقاتهم هناك فلم يمكنه الأمراء ، فقد كانت خيولهم قد بطلت من الجوع وغالب عساكرهم قدموا من الشام مشاة على أقدامهم وهم في غاية التعب .

وكانت الفرصة مهيأة للسلطان لكسرهم قبل أن يصلوا إلى الخانقاه^(٣٥٧) ويجدوا الطعام والشراب وينالوا الراحة من التعب ، فكان تقاعس الأمراء عن الخروج عين الخطأ ، واقتصر تصرف السلطان على أمر عسكره بالمبيت أمام الوطاق ، وهم في حالة التأهب على ظهور خيولهم يتناوبون الحراسة خشية هجوم العثمانيين ، وقد انعكس هذا على نفسية العسكر فزاد الرعب في قلوبهم ، كما أمر السلطان بعد أن تحقق من وصول عسكر ابن عثمان إلى بلبيس بحرق الشون التي فيها وما حولها ، إضافة إلى التبن والقمح والشعير والبقول في الخانقاه فأحرق الكثير منها حتى لا تقع في أيدي أعدائه .

محاولة اغتيال السلطان طومان باي :

وفما كان السلطان جالساً بخيمته حاولت امرأة من التتركان تزيت بزي الرجال ، ووضعت لثاماً على وجهها ووضعت سيفاً في وسطها ، ولبست زردية تحت ثيابها ، وهي تحمل خنجرأ كبيراً من تحت ثيابها ، أن تهجم على السلطان لقتله وكان في قلة من الخاصكية ، فدفعها عنه هؤلاء ثم أعملوا فيها السيف ومضوا بها إلى باب النصر ، فعلقت تجاهه لمدة يومين ثم دفنت .

نهاية إبراهيم السمرقندي :

ووصل إبراهيم السمرقندي - وكان من خواص السلطان الغوري ومن خانه -

(٣٥٧) ويقصد بها الخانقاه السرياقوسية راجع عنها التعليقة رقم ٧٥ .

إلى أحد العربان وبات عنده ، وعرفه فحز رأسه في الليل ، وحضر في الصباح إلى السلطان وقال له ما تعطي الذي يأتيك برأس إبراهيم السمرقندي فأجابه السلطان : ألف دينار ، فأخرج رأس السمرقندي من تحت برنسه وقدمه للسلطان الذي دفع للبدوي ألف دينار بعد أن تحقق منه . وأرسل الرأس مع رأس أمير من أمراء ابن عثمان ، فعلقا على دكان عند باب زويلة . وقد كثر قطع العربان لرؤوس العثمانيين ، وكانت ترسل إلى السلطان ليعلقهم على أبواب القاهرة .

معركة الريدانية :

وفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه وصل جاليش عسكر ابن عثمان إلى بركة الحاج^(٢٥٨) ، فعم الخبر واضطربت الأحوال وأغلقت القاهرة أبوابها وأسواقها وتعطلت الطواحين وقلّ الدقيق والخبز .

وأعلن النفير بين عساكر السلطان ، وركب الأمراء المقدمون والأمراء الطبلخانات والعشرات ، واجتمع من الصناجق نحو ثلاثين صنجقاً ، ودقت طبول الحرب ، وقدر مجموع العساكر بعشرين ألفاً ، واستعرض السلطان طومان باي العساكر وصار يرتبهم بنفسه من الجبل الأحمر وحتى غيطان المطرية^(٢٥٨) ، وكان طومان باي ذاهمة عالية في الحركة والتنظيم ، وكان قد حفر النفق وحصن الوطاق بالمكاحل والمدافع ، وأقام أمامها جداراً ، وجعل خلفها نحو ألف جبل تحمل العليق ، وفي أطرافها صناجق بيض وحمرة تخفق في الهواء ، وكان يعتقد أن القتال سيطول ، ومرة أخرى تقاعس عن الهجوم ووقف موقف المدافع وتكرر الخطأ السابق ثانية . ولم يحدث في يوم الأربعاء قتال .

وفي يوم الخميس التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ ، زحف

(٢٥٨) انظر المصور رقم ٢ .

عسكر ابن عثمان وبدأ بالهجوم ، ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان ذلك نادى بالنفير ودقت طبول الحرب ، وركب الأمراء وسائر العساكر ، وتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية ، فكانت معركة أعظم من تلك التي حدثت في مرج دابق ، ودارت بادئ الأمر لمصلحة السلطان وعساكره ، فقتل من العثمانية عدد لا يحصى ومنهم سنان باشا الوزير الأعظم لسليم شاه وتناثرت الجثث في كل مكان .

ثم ما لبث أن انعكس الوضع فقد توافد العثمانيون أفواجا ، وانقسموا إلى فرقتين : فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت إلى عند الوطاق ، وأطلقوا بنادقهم فقتلوا مالا يحصى من العساكر المصرية وأمراءهم ، وجرح الأتابكي سودون الدوّاداري وتواری في غيط قریب . ولم تمض ساعة إلا وانكسرت العساكر المصرية ، وحاول السلطان الثبات مع نفر قليل من العبيد الرماة والماليك السلحدارية وألحقوا بالعساكر العثمانية خسائر عديدة ، إلا أن تكاثر العثمانية اضطرته إلى الهرب والاختفاء .

وانقضت العساكر العثمانية على الوطاق ، فنهبوا ما فيه من قماش وسلاح وخيول وجمال وأبقار ، كما استولوا على المكاحل التي نصيها السلطان والعربات وغيرها .

الدخول إلى القاهرة :

وبدأ العثمانيون دخول القاهرة ، فتوجهت جماعة منهم إلى المقشرة وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المساجين ، وكان بهم جماعة من العثمانية أسرهم السلطان في الريدانية ، وتوجهوا إلى بيوت الأمراء فنهبوا ما وجدوا بها ، وشارك الزعر بالنهب أيضاً ، ونهبت الطواحين ومخازن القمح والدقيق والغلال ، واستمر النهب حتى آخر النهار .

وفي اليوم التالي الجمعة دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله إلى القاهرة ، وصحبته وزراء ابن عثمان وعدد كبير من عساكره ، ودخل خاير بك - نائب حلب السابق - وقاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ، والقاضي المالكي محيي الدين الدميري ، والقاضي الحنبلي شهاب الدين الفتوحي ، وكانوا في أسر ابن عثمان من موقعة مرج دابق ، كما دخل يونس العادلي وخوشقدم الذي سبق ذكره .

ومع دخول الخليفة القاهرة نودي بالأمان والبيع والشراء وإغلاق باب الظلم وفتح باب العدل ، وأن على كل من يحوي مملوكاً أن يبلغ عنه وإلا شق على باب داره - ورغم ذلك فقد استمر عسكر ابن عثمان بالنهب لمدة ثلاثة أيام بحجة التفتيش عن المماليك .

وخطب في خطبة الجمعة ذلك اليوم باسم السلطان سليم شاه على المنابر ودعي له وسمي خادماً الحرمين الشريفين . وفي يوم السبت مستهل الشهر المحرم سنة ٩٢٣ هـ أرسل السلطان سليم جماعة من الانكشارية ليقفوا على أبواب المدينة ويمنعوا نهب البيوت . وانتقل بوطاقه من بركة الحاج إلى الريدانية . وكانت العساكر العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة من الترب وغيطان المطرية ، ويحضرونهم إلى السلطان سليم فيأمر بضرب أعناقهم ، وقبض بعض مشايخ العربان على الأتابكي سودون الدوّاداري وأحضروه إلى ابن عثمان الذي وبخه بالكلام ، ووجده قد جرح وكسر عظم فحذه فأركبه على حمار وألبسه عمامة زرقاء وجرسه^(٣٥٩) في وطاقه وأخذ يشهره في القاهرة ، فمات وهو على ظهر الحمار . وتكاثر جمع المماليك من الترب والحارات وقطع رؤوسهم وتعليقها في الوطاق ، فضرب في يوم واحد ثلاثمائة وعشرون رأساً ، ومنهم أعراب من سكان الصحراء راحوا ظمأً ، وقيل قتل في الريدانية أكثر من أربعة آلاف إنسان ما بين مماليك جراكسة وعربان الشرقية والغربية دون تفريق بين أمير وغيره .

(٣٥٩) جرسه : وضع على رقبته جرساً ودار به في الخيم والقاهرة .

وأرسل السلطان سليم خلف محمد بن السلطان الغوري ، وألبسه قفطاناً مخملاً ذهباً وعمامة عثمانية ، وأعطاه ورقة بالأمان له على نفسه ، ورسم له أن يسكن في مدرسة أبيه في الشرايشيين وأسكن في بيته أحد وزرائه ، ثم توجه إليه يوسف البدري الوزير فأعطاه أماناً وألبسه قفطاناً مخملاً وأقره متحدثاً على جهات الغربية . وخلع أيضاً على بعض من أرباب الوظائف وأقرهم في وظائفهم إلى أن يقرر من يختاره بديلاً لهم .

دخول السلطان سليم القاهرة :

وفي يوم الاثنين ثالث المحرم أوكب السلطان سليم ودخل القاهرة من باب النصر وشق المدينة في موكب حافل وأمامه جنائب كثيرة وعساكر عظيمة ما بين مشاة وركاب حتى ضاقت بهم الشوارع . ثم دخل من باب زويلة وتوجه إلى بولاق ونزل بالوطاق الذي نصب له تحت البرصيف ، وكانت الأصوات ترتفع له بالدعاء من الناس قاطبة وكان يتقدمه في المواكب الخليفة وقضاة القضاة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر .

معارك بولاق والصليبية :

وفي مساء يوم الثلاثاء الرابع من الشهر المحرم سنة ٩٢٣ هـ وبعد صلاة العشاء ، لم يشعر السلطان سليم إلا وقد هجم عليه طومان باي بعساكر جمعها بعد فراره من الريدانية . وحاصر وطاقه ، ودار القتال بين المماليك والعثمانيه ، وقتل عدد كبير من العثمانيه ، واحترق العديد من خيامهم واستمر القتال حتى الصباح ، حين هاجمهم أيضاً الأمير علان الدوّادار الكبير من الناصرية واستمر القتال طيلة نهار يوم الأربعاء وأخذ المماليك يكبسون أحياء القاهرة بحثاً عن العثمانيه لقتلهم كما كان العثمانيه يكبسون البيوت والحارات بحثاً عن المماليك .

واشتد القتال يوم الخميس واستطاع العثمانيه طرد المماليك من بولاق وجزيرة

الفيل وتراجع المماليك إلى الناصرية ، فهاجم جمع من العثمانيّة زاوية الشيخ عماد الدين وأحرقوا بيوتاً حولها وقبضوا على مماليك جراكسة فيها واستطاعوا إجلاء المماليك عن الناصرية إلى قناطر السباع .

ونزل السلطان طومان باي في جامع شيخو بالصليبة وصار يكرّمها إلى قناطر السباع في نفر قليل من العسكر وأمر بحفر أنفاق في رأس الصليبة وقناطر السباع ورأس الرملة وعند جامع ابن طولون وحدرة البقر وقسم عسكره إلى أربع فرق : فرقة إلى جهة قناطر السباع ، وأخرى إلى الرملة ، وثالثة إلى جهة جامع ابن طولون ، ورابعة جهة باب زويلة ، والواقع أن قلّة همّ الذين قاتلوا من المماليك السلطانية . وفي يوم الجمعة خطب على المنابر باسم السلطان طومان باي بعد أن خطب في الجمعة الفائتة باسم السلطان سليم . واستمر القتال بين كرّ وفرّ من بولاق إلى قناطر السباع والرملة وفي الحارات والأزقة حتى يوم السبت .

وأيقن طومان باي من استحالة النصر وقد تخاذل عسكره وتفرق الكثيرون منهم ولم يبق معه سوى نفر قليل من العبيد الرماة وبعض مماليكه السلطانية وبعض الأمراء ، فهرب صبيحة السبت نحو بركة الحبش .

النهب والقتل في القاهرة :

مع هزيمة السلطان طومان باي صبيحة السبت المذكور ، هجمت العساكر العثمانية على الصليبة وأحرقوا جامع شيخو ، كما أحرقوا البيوت التي حوله ، وألقوا القبض على خطيب الجامع الشرقي يحيى بن العداس وأحضروه بين يدي السلطان سليم شاه فهمّ بضرب عنقه لولا شفاعة الخليفة له .

وأعمل العثمانيّة السيف في العوام والغلمان وانتشرت الجثث من باب زويلة إلى الرملة ومنها إلى الصليبة وقناطر السباع إلى الناصرية ومصر العتيقة ، وقدر من قتل في الأيام الأربعة للقتال بأكثر من عشرة آلاف إنسان ، وهاجم العثمانيّة

البيوت والحارات وضربوا عنق من وجدوه من المالك ، وهاجموا الجوامع للغرض نفسه ، ومنها الجامع الأزهر وجامع ابن طولون ومدارس ومزارات وقبضوا على نحو ثمانمائة مملوك من مختلف الرتب ضربت أعناقهم أمام السلطان سليم . وكانت الجثث ترمى في النيل وما بقي في الطرقات تناهشته الكلاب .

وعاد السلطان سليم إلى وطاقه في الجزيرة الوسطى ، ونصب فيه صنجرين أحدهما أبيض والثاني أحمر إشارة إلى العساكر لرفع سيوفهم عن أهل المدينة حسب عادتهم إذا ملكوا مدينة بعد فتحها بالسيف .

وفي هذه الأيام صار الخليفة المتوكل على الله صاحب الحل والعقد والأمير والنهي في الديار المصرية ، وجلس أولاد السلاطين والأمراء وأعيان الناس وبعض الناس في دهايز بيته ، دون أن يلتفت إليهم ، ولم يكن يرد له طلب من وزراء ابن عثمان ، ولم تُرد له شفاعاة في الناس ، وضرب رنكه على غالب البيوت ، ولنفاذ كلمته دخل عليه من الناس أموال وهدايا لم يفرح بها أحد من أجداده ، واحتمت به نساء السلاطين والأمراء فشفع هن أيضاً .

الأمان للأمراء :

وفي يوم الثلاثاء حادي عشر المحرم نادى السلطان سليم بعد العصر في القاهرة بأن الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والأمراء العشرات الذين اختفوا بعد الواقعة يظهرون وعليهم أمان الله تعالى ، وقيل : إن السلطان سليم كتب للأمراء بالأمان في ورقة طويلة وعلقها المشاعلي على جريدة ، ونادى بأن عليهم الاتجاه إلى مدرسة السلطان الغوري ، فظهر الأمير أركاس أمير سلاح ، والأمير أنصباي أمير آخور كبير ، والأمير تمر الحسني رأس نوبة النوب ، والأمير طقطبباي حاجب الحجاب ، والأمير تاني بك الخازندار ، وتاني بك النجمي ، وقانصوه أبو سنة من الأمراء المقدمين . ومن الأمراء الطبلخانات : مصرباي الأقرع ، وقنبك رأس

نوبة ثاني ، وَيَشْبِكُ الفقيه دَوَادار السلطان طومان باي كان دواداراً كبيراً ، وكان مختفياً في الجامع الأزهر . وظهر من الأمراء العشرات نحو أربعين أميراً أو أكثر وآخرون من الخاصكية واجتمع الجميع في المدرسة الغورية وأحاط بهم جماعة من العثمانية ، وقيل : إنهم قابلوا السلطان في الوطاق فوبخهم بالكلام وبصق على وجوههم وذكر لهم ظلمهم وما كانوا يصنعون ثم رسم لهم أن يذهبوا إلى القلعة وقيموا بها محتفظاً بهم .

عودة جان بردي الغزالي :

وفيه أشيع أن جان بردي الغزالي أرسل يطلب الأمان من السلطان سليم وقد وصل إلى الخانقاه وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة الذين هربوا بعد الكسرة ، فأرسل لهم السلطان سليم أماناً . ودخل الغزالي يوم الثلاثاء المذكور إلى القاهرة وعلى رأسه ورقة فيها أمان من السلطان سليم ، فلما دخل القاهرة توجه إلى وطاق السلطان وقابله هناك . وكان الغزالي قد توجه إلى غزة مع جماعة من المماليك الجراكسة بعد هزيمة الريدانية ، وكان متواطئاً مع ابن عثمان في الباطن من أيام السلطان الغوري ، وشارك خاير بك في الانسحاب من مرج دابق وانهزما قبل العسكر وأشاعوا الكسرة على عسكر مصر .

وفي اليوم التالي الأربعاء أشيع أن المماليك الذين ظهروا صحبة الغزالي رسموا عليهم ، وقيل سجنوهم بالقلعة وكانوا نحو أربعمائة مملوك . وقد قيدوا مع الأمراء السابق ذكرهم وأودعوا وكالة تقع خلف المدرسة الغورية وفي سجن الديلم ، وأخرج في شهر صفر نحو سبعمائة مملوك منهم إلى مراكب توجهت بهم إلى الاسكندرية ومنها إلى استانبول . وضربت أعناق أربعة وخمسين أميراً من المقدمين والعشرات في ربيع الأول عندما أشيعت أخبار عن تجمع قوات جديدة لطومان باي في البهنسا مما سيرد ذكره .

بدأت أخبار معركة الريدانية تصل إلى دمشق بدءاً من يوم الثلاثاء في الثالث من الشهر المحرم سنة ٩٢٣ هـ ، وقد أرسل السلطان سليم لأهالي دمشق كتاباً يبشر فيه الأهالي بنصرته على المماليك وبدخوله القاهرة ظافراً ، ويصف فيه معارك الريدانية وبولاق والصليبة وهزيمة المماليك ، وقد كتب هذا الكتاب قبل القبض على السلطان طومان باي وإعدامه ، ولأهمية النص آثرنا نقله مع مقدمته كما وردا في مفاكحة الخلان لابن طولون :

فرمان السلطان سليم لأهل دمشق في بشارة النصر وأخذ مصر

وفي يوم الجمعة سادس صفر وردت مراسيم على يد أربعة من المهجانة^(٣٦٠) بنصرة ابن عثمان على الجراكسة ، وأخذَه للقاهرة بعد قتل كثير في الفريقين ، وفي العوام^(٣٦١) ، بسبب مساعدتهم للجراكسة ، وحرَّق ونُهَب ، وأن الجراكسة كانت درَّبت^(٣٦٢) أبواب القاهرة وأزقتها بالخنادر والمكاحل والسدِّ ؛ فأخذ نائب حلب خير بك لملك الروم من موضع نفذ منه في أقفية الجراكسية ففرَّوا .

وفي يوم السبت سابعه قرئت هذه المراسيم ، ودارت مبشرو^(٣٦٣) الأروام على بيوت الأكابر والحارات ، بالطبول والنايات ، وأطلقوا نفطاً كثيراً في قلعة دمشق ، ولطَّخوا غالب أهل البلد بالزعفران ، والأشراف منهم وضعوا لهم رنوكاً صفراً ونادوا بالزينة ، فزيَّنت البلد ، واطمأنت الناس ، ولكن الأروام غالبهم

(٣٦٠) المهجانة : الجهانة .

(٣٦١) العوام : الأعوام .

(٣٦٢) درَّبت بمعنى أحكت إغلاق أبوابها وحصنتها .

(٣٦٣) مبشرو : مبشري .

اغتمّ بسبب قتل جماعة من أعيانهم ، منهم سنان باشا الوزير الأعظم ، واستمرت الزينة سبعة أيام .

وقد عرّب موقع دوا دار السلطان ، شمس الدين الحلبي ، المرسوم الذي جاء للنائب ، والقاضي بالبلد ، بقوله :

« قدوة الأمراء الكرام ، وعمدة الكبراء الفخام ، ذو القدر والاحترام ، كافل مدينة الشام ، دام عزّه ، وأقضى قضاء المسلمين ، أولى ولاية الموحّدين ، معدن الفضل واليقين ، حجة الحقّ على الخلق أجمعين ، مولانا قاضي القضاة بالشام المحروس ، أبدت فضائله مرسومنا هذا ، يوضّح لعلهما الكريم ، أننا توكلنا على الله سبحانه ، وتوسلنا بسيد الكائنات ، محمد ﷺ » .

« وتوجّهنا بعساكرنا وصناجقنا وأعلامنا وجيوشنا وخيولنا السابقات الصافنات ، وقسّينا الصائبات ، ورجالنا المرصدين لصيد أعدائنا ، مع هداية الله تعالى ، من الشام مع السعد والظفر إلى جهة مصر ، فوجدنا طومان باي ، الذي تولّى سلطنة مصر ، وأقام جان بردي الغزالي كافلاً للشام ، وجّهزه إلى غزّة ، وصحبته فرقة من العساكر المصرية » .

« وكان قد تقدّمتنا قدوة الوزراء العظام ، وعمدة الكبراء الفخام ، الغازي في سبيل الله ، المجاهد لوجه الله ، الوزير الأعظم سنان باشا ، إلى جهة غزّة ، فوقع بهم ، والتحم بينه وبينهم القتال العظيم ، فبعون الله تعالى وسعادتنا الشريفة ، حصل له النصر والظفر ، وقتل منهم من قتل ، وأسر منهم من أسر ، ومن سلم من سيفه فرّ منهزماً صحبة الغزالي المذكور إلى مدينة مصر » .

« ثم إن ركابنا الشريف جدّ في السير ، في السعد والإقبال ، بعساكرنا وجنودنا ، واجتمع بنا سنان باشا المشار إليه ، وصرنا نرحل من مرحلة إلى مرحلة مثل السهام » .

« فلما وصل إليهم خبر توجّه ركبنا الشريف على هذا الوجه ، أرادوا أن يتداركوا بقاء نفوسهم وأرواحهم ، فجمعوا عساكرهم السيفية ، والجلبان ، وممالك الأمراء ، والعربان ، نحو الثلاثين ألفاً . »

« وجمعوا ما في القلعة المصرية ، وبيوت الأمراء ، وثغر اسكندرية ، وسائر البلاد والقللاع ، من المكاحل ، والكفيات ، والسبقيات ، والبندقيات ، واللبوس ، والسلاح . »

« وحفروا خندقاً في الريدانية ، من بحر النيل إلى الجبل ، وجمعوا أخشاباً جعلوها تساتير على الخندق ، وأحضروا رماة من الفرنج وغيرهم ، وسائر آلات الحرب ، وهيئوها للقائنا . »

« فوصل ركبنا الشريف ، بعساكرنا المنصورة ، إلى الريدانية ، في يوم الخميس التاسع والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، وقت الغداة ، فوجدناهم قد لبسوا السلاح ، وتكلموا العدد ، وتقلّدوا بالعدد ، وهم غارقون في الدروع والزررد ، وأرادوا مقابلة عساكرنا المنصورة ، التي هي أعداد الرمال ، وأمثال الجبال ، ولها قلوب الأسود ، وشخوص الرجال . »

« فلما وقف الصفان ماج عسكرنا كوج بحر عمان ، فبقي يغلي ويضطرب ، فرتبنا وزيرنا الأعظم سنان باشا في مينة العسكر ، ودستورنا المكرم ومشيرنا المفخم نمر وهزبر الهيجاء ، وزيرنا يونس باشا في الميسرة . »

« واصطف الجيشان ، وزحف العسكر المصري على سنان باشا في المينة ، ورموا عليه بالمكاحل والسبقيات والكفيات والبندقيات ، وجاء أعداؤه للقتال ، فما رّوعه ذلك ، ولا أزعجه ، بل جال فيهم وصال ، وقطع منهم الأوصال ، ورمى منهم الرؤوس عن الجثث ، وغنّى فيهم السيف ، إلى أن خاضت خيولهم في الدماء والقتلى . »

« ثم ولّوا منه منهزمين إلى الميسرة ، فتلقّاهم يونس باشا المشار إليه ، وجال فيهم بطعن وضرب ، فأرادوا الفرار ، فناداهم لن ينفعكم الفرار ، إن فررتم من الموت أو القتل ، فكم من فارس تجنّدل صريعاً ، وكم من أمير أحضروه إلينا أسيراً » .

« وأما غالب العسكر المخدول ، فداسهم عسكرنا تحت حوافر الخيول ؛ واستمرّ الحرب من أول النهار إلى بين الصلاتين ، وصار حرب عظيم ، وجرح سنان باشا » .

« وآخر الأمر بإرادة الله تعالى ، ألا إن حزب الله هم الغالبون ، وصارت عساكرنا غالبية ومنصورة ، والعساكر المصرية مغلوبة مقهورة ، وقالوا : أين المفرّ ؟ والذي سلم من سيوفنا ، منهم من رمى بنفسه عن فرسه فقبضوا عليه ، ومنهم من قطعوا رأسه وأحضره إلينا ، والمأسورون منهم عملناهم إشارات لنبلنا وغذاء لسيوفنا ، وصارت أبدانهم ورؤوسهم وخيولهم كيئناً » .

« وأقننا بعد هذه المعركة في الريدانية أربعة أيام ، بالسعد والإقبال ، ثم انتقل ركابنا الشريف من الريدانية إلى جزيرة بولاق » .

« وكان قد فضل بقيّة سيوفنا من العساكر المصرية ، فهربوا واجتمعوا ، هم والسلطان طومان باي ، وجمعوا العربان ، والتّموا نحو العشرة آلاف ، ليلاً من نهار الثلاثاء خامس شهر المحرم الحرام سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة خفية ، ودخلوا البيوت الحصينة ، وحفروا حولها الخنادق ، وسترّوا التساتير ، واجتمعوا في الحارات ، وأظهروا الفساد ، وأبرزوا العناد ، فعلمت عساكرنا المنصورة بهم ، فربطوا الخيالة لهم الطرقات ، لئلا ينهزم منهم أحد ، وصاحت عليهم مماليكنا الينكشارية والتفكجية ، وحملت عليهم حملة رجل واحد ، ودخلوا عليهم إلى البيوت التي تحصّنوا فيها ، وتقبّوا عليهم البيوت يميناً وشمالاً ، وطلّعوا على

أسطحة تلك البيوت التي تحصّنوا فيها ، ورموا عليهم بالبنادق والكفيات ، واستمرّ الحرب بين عساكرنا المنصورة وبينهم ثلاثة أيام » .

« وفي يوم الجمعة ركب مقامنا الشريف ، واشتدّ الحرب ، وصار مثل يوم يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، ومثل يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، فخرّبنا ما عملوه من التساتير والخنادق ، فالتجّؤوا إلى بعض البيوت الحصينة ، فحرقنا عليهم تلك البيوت التي التجّؤوا إليها ، وبقوا في العذاب الأليم ، وأرادوا الهروب فما لقوا لهم طريقاً إلا بحر النيل ، فأرموا أنفسهم فيه ، وغرقوا كيوم فرعون » .

« وفي هذه الثلاثة أيام يستمرّ القتال من الصبح إلى العشاء ، وبعون الله تعالى قتلنا جميع الجراكسة ، ومن انضمّ إليهم من العربان ، وجعلنا دماءهم مسفوحة وأبدانهم مطروحة ، ونهب عسكرنا قماشهم وأثاثهم وديارهم وأموالهم وبركهم ويرقهم ، ثم صارت أبدانهم للهوام » .

« وأما طومان باي سلطانهم ، فما عرفنا هل هو مات أم بالحياة ؛ وأطاعتنا بعون الله تعالى جميع العربان ، والمشايخ الأكبر بمصر وأعمالها ، والحمد لله الذي هدانا لهذا ، والمسئول من الله سبحانه أن يكون عدوّنا دائماً مقهوراً ، وعسكرنا منصوراً ، والداعي بدوام دولتنا مسروراً ، إلى يوم النشور ، آمين يا معين » .

« وبعد هذه الفتوحات العظمى ، أردنا أن نعلم جميع رعايانا ، سكان ممالكنا الشريفة ، بذلك ، ليأخذوا حظوظهم من هذه البشرى ، ويبتهلوا إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة بدوام دولتنا الشريفة ، ويدقّوا البشائر ويعلموا التهاني ، ويرموا بالبارود في القلعة المنصورة ، ويعلموا بذلك أطراف البلاد ومقدّميها ، ليكونوا مسرورين بهذه البشرى ، وكتب في أوائل الحرم ، بمنزلة جزيرة بولاق ، انتهى » .

السلطان سليم في القلعة وتنظيماته :

وفي يوم الخميس العشرين من الشهر المحرم ، نودي في الصليبة وقناطر السباع ، بأن على أصحاب الأملاك التي في الصليبة وجامع ابن طولون إخلاء بيوتهم فإن السلطان سليم ذاهب إلى القلعة ليقم بها ، وتكررت المناداة في كل يوم بذلك المعنى ، فخرج الناس من بيوتهم التي احتلها العثمانيون وسكنوا فيها ، وطلع السلطان سليم إلى القلعة بموكب حفل من عسكره ونودي للناس بالأمان . وأخذ بإجراء تقييم جديد للتنظيمات الإدارية للبلاد فعين الشرفي يونس الاستادار متحدثاً عن البلاد الشرقية لمسح البلاد ويكشف ما فيها من إقطاعات المالك الجراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف ، وقرر فخر الدين بن عوض وبركات أخا شرف الدين الصغير متحدثين في جهات الغربية . والزيني بركات بن موسى متحدثاً في الحلة وشرف الدين الصغير وأبا البقا متحدثين في الجهات القبلية ، وأظهر الجميع الكثير من أنواع المظالم في حق الناس بسبب الإقطاعات والرزق .

كما أعاد السلطان سليم في الحادي عشر من صفر القضاة الأربعة - الذين كانوا في أسره مجلب وهم قاضي الشافعية كمال الدين الطويل ، وقاضي الحنفية محمود بن الشحنة ، والمالكية محيي الدين بن الدميري ، والحنبلية شهاب الدين الفتوحى - إلى وظائفهم كما كانوا سابقاً في مصر .

وخلال إقامته في القلعة احتجب عن الناس فلم يكن ينظر في المظالم ، بل كانت المظالم تحدث من وزرائه كل يوم وذلك من قتل ومصادرة لأموال الناس بغير حق . وقلت الغلال في القاهرة وفقد الخبز من الأسواق بسبب نهب العثمانيين للغلال وإطعامها لخيولهم . واستمر أذى العساكر فكانوا يخرجون في الصباح الباكر إلى القرى المجاورة ليأخذوا منها البرسيم والفول لخيولهم إلى جوانب مواشي الفلاحين وأوزهم ودجاجهم حتى خربت معظم قرى الشرقية وتعدى ذلك إلى خطف عمائم الناس . وتعريتهم في الأماكن المنعزلة ليلاً .

السلطان طومان باي ومراسلاته للخليفة وللسلطان سليم :

عندما هزم السلطان طومان باي في الصليبية هرب إلى البهنسا^(٣٦٤) وأقام بها وأرسل قاضي بهنسا عبد السلام إلى الخليفة ليطلب له الأمان من السلطان سليم في الشهر المحرم من سنة ٩٢٣ هـ ، وفي الوقت نفسه بدأ يجمع فيه شتات الأمراء والماليك والعربان ، واستطاع أن يحصل على زردخانة من نشاب وقسي وبارود ووصل الأمر إلى السلطان سليم فأخذ حذره منه .

وعاد طومان باي في صفر يكتب للمباشرين وأعيان الناس وحتى إلى الخليفة معاتباً بقوله لهم : « يا سبحان الله إن كنتم نسيتمونا فنحن ما نسيناكم » . ثم أشيع بعد أيام أنه أرسل يقول للسلطان سليم : « إن كنت تروم أن أجعل الخطبة باسمك وأكون أنا نائباً عنك بمصر وأحمل لك خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا من المال الذي أحمله إليك في كل سنة ، فارحل عن مصر أنت وعسكرك إلى الصالحية ، وصون دماء المسلمين بيننا ولا تدخل في خطية أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ وصبيان ونساء ، وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولاقيني في برّ الجيزة ويعطي الله تعالى النصر لمن يشاء منا » .

وأشيع أن المطالعة التي أرسلها السلطان طومان باي إلى ابن عثمان ذكر في ذيلها : « ولا تحسب أني أرسلت أسألك في أمر الصلح عن عجز ، فإن معي ثلاثين أميراً ما بين مقدمين ألوف وأربعينات وعشرات ، ومعني من الماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفاً ، وما أنا بعاجزٍ عن قتالك ولكن الصلح أصلح إلى صون دماء المسلمين » .

فلما وقف السلطان سليم على مطالعة السلطان طومان باي أرسل خلف أمير

(٣٦٤) البهنسا : بلدة في صعيد مصر جنوب القاهرة في محافظة المنيا تقع على بحر يوسف أحد فروع النيل . ولها تاريخ حافل في الفتوحات الإسلامية .

المؤمنين والقضاة الأربعة وأحضر جماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة حلف إلى السلطان طومان باي وكتب ابن عثمان خطه عليه . ووقع على ذلك الاتفاق بالقلعة بأن الخليفة والقضاة الأربعة يتوجهون إلى السلطان طومان باي بذلك الحلف على أيديهم . ثم إن ابن عثمان خلع على القضاة الأربعة قفطانات مخمل مذهبة وقال لهم : « انزلوا اعملوا يرقمكم حتى تتوجهوا إلى طومان باي نحو الصعيد » ، فنزلوا من القلعة على ذلك ، ثم إن الخليفة امتنع من التوجه إلى طومان باي وقال أنا أرسل دواداري بردبك صحبة القضاة الأربعة .

ثم في عقيب ذلك توجه القضاة الأربعة وبردبك دَوَادار الخليفة مع قاصد ابن عثمان مصلح الدين مع جماعة من العثمانيّة ، فلما وصلوا إلى قريب البهنسا خرج عليهم جماعة من العربان والمماليك فقتلوا العثمانيّة وهرب بردبك بعد أن عرّوه وأخذوا ثيابه وما معه من قماش وغيره ، ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك ، وما سلموا من القتل إلا بعد جهد كبير . فلما بلغ السلطان سليم ذلك اضطربت أحواله وتحقق أن السلطان طومان باي قد أبى من الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان ، ثم نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى إلى بركة الحبش . وأمر في الثاني من ربيع الأول بإحضار بقية الأمراء المماليك الذين كانوا في القلعة بالترسيم وعددهم أربعة وخمسون أميراً ، وضرب أعناقهم جميعاً وذلك رداً على مقتل عساكره الذين رافقوا القضاة الأربعة إلى طومان باي .

معركة الجيزة والهزيمة الأخيرة لطومان باي :

في السادس من ربيع الأول عدّى السلطان سليم إلى برّ الجيزة لقتال طومان باي والتقى الجيشان في العاشر من الشهر المذكور وكانت معركة مهولة انكسر فيها العثمانيون غير ما مرة وألقى بهم المماليك في النيل وقتل منهم جماعة كثيرة ، وما لبث العثمانيون أن تكاثروا على المماليك وتدخل رماة البندق الرصاص

ووقعت الهزيمة على المماليك ، وولى طومان باي هارباً مهزوماً ، وتوجه إلى بلدة تدعى البوطة الغربية . وقطع السلطان سليم رؤوس المماليك والعربان الذين كانوا مع السلطان طومان باي وحملت على مراكب وعلقت على أعمدة من الخشب ودار العثمانيون بها في القاهرة . وقيل إن عددها بلغ نحو ثمانمائة رأس بين مماليك وعربان والذين قتلوا في المعركة وألقوا في النيل أكثر من ذلك .

نهاية السلطان طومان باي :

عندما توجه السلطان طومان باي بعد هزيمته إلى قرية البوطة الغربية ، لاقاه مشايخ البحيرة حسن بن مرعي وابن أخيه شكر ، وكان بينهما وبين السلطان صداقة قديمة ، فأركن لهما طومان باي ونزل عندهما ، ثم أحضر إليهما مصحفاً شريفاً وحلفهما عليه بالوفاء وعدم الخيانة أو الإخبار عنه ، فحلفا واطمأن السلطان طومان باي ، ثم ما لبس ابن مرعي أن أحاطه بالعربان وأرسل إلى السلطان سليم وأعلمه بذلك ، فأرسل إليه جماعة من عسكره قبضوا عليه ووضعوه في الحديد وتوجهوا به إلى ابن عثمان . فلما مثل بين يديه - وكان قد تنكر بشياب العرب الهوارة - عاتبه ببعض الكلمات ، ثم أخرج إلى خيمته محاطاً بالحرس فأقام سبعة عشر يوماً وصلت أثناءها أخبار القبض عليه إلى القاهرة ، فأنكرها الكثيرون ولم يصدقوها . ويبدو أن السلطان سليم عزم على إرسال طومان باي إلى مكة ثم بدا له إعدامه .

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الأول أركب على فرس وهو مكبل بالحديد بلباسه الذي أحضر فيه إلى السلطان سليم ، وأمامه نحو أربعمائة عثماني ورماة بالنفط ، وسير به في القاهرة وهو يسلم على الناس حتى وصل إلى باب زويلة ، فأنزل من على الفرس وأرخوا له الحبال وحوله العساكر بالسيوف ، فأيقن من إعدامه شنعاً فوقف على قدميه وقال للناس الذين حوله : « اقرؤوا لي سورة الفاتحة ثلاث مرات » ، فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأت

الناس معه ، ثم قال للمشاعلي اعمل شغلك . فلما وضعوا الخيطة في رقبته ورفعوا الجبل انقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع به الجبل مرتين وهو يقع على الأرض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس . فصرخ الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، وبقي معلقاً على باب زويلة ثلاثة أيام . ثم أنزل ووضع في تابوت ودفن في الحوش الواقع خلف مدرسة عمه السلطان الغوري .

أعمال السلطان سليم في القاهرة :

أقام السلطان سليم في القاهرة مدة ثمانية أشهر إلا بضعة أيام ، ويقول ابن إياس : إنه لم يجلس خلالها بقلعة الجبل على سرير الملك جلوساً عاماً ، ولا رآه أحد ، ولا أنصف مظلوماً من ظالم في محاكمة بل كان مشغولاً ببلذته وسكره ، ويحيل لوزرائه ما يختارونه ، ولم يكن يظهر إلا عند سفك دماء الماليك ، وما كان له أمان إذا أعطاه لأحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل .

وقد أصاب مصر من جراء أعماله أضرار كبيرة انعكست عليها خلال القرون التالية ، وأصاب الناس مشقة وشدائد عظيمة : فقد كثرت تعديات الوزراء والقواد والعساكر على الناس وأموالهم ، ومصادرة مساكنهم .

وعمد إلى فك رخام قاعات القلعة وبيوت القاهرة ومساكن الأمراء الماليك ونقله إلى استانبول . وجمع وزرائه الكتب النفيسة من مدارس القاهرة . وجمع البنائين والمهندسين والنجارين والحجارين والمرخين وصناع الأسلحة وغيرهم من أبناء الحرف - مسلمين كانوا أو نصارى - إضافة إلى كبار الموظفين والكتاب والتجار وسبقوا جميعاً إلى الاسكندرية ، فوضع الرجال في الخانات ونسأؤهم في الأبراج ، قيل إن عددهم بلغ ألفاً وثمانماية إنسان ، ثم جرى تسفيرهم إلى العاصمة استانبول ، وبطلت بذلك من القاهرة قرابة خمسين صنعة وسارت الصناعة نحو التقهقر .

وفي جمادى الأولى سنة ٩٢٣ هـ أخرج أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله للسفر إلى استانبول وصحبته أولاد عمه أبو بكر وأحمد وصهره محمد بن العلائي ، وبذلك انتقلت الخلافة ولأول مرة في تاريخها إلى خارج الوطن العربي ، وفقدت مصر مركزها الديني إضافة إلى فقدانها مركزها السياسي والحضاري .

وجرى تثبيت ملكية العقارات في القاهرة وصودرت أثناءها عقارات المماليك وجميع العقارات التي لم يكن سكانها يملكون صك ملكية بها .

وفي جمادى الآخرة ٩٢٣ هـ حضر إلى القاهرة ابن السيد الشريف بركات أمير مكة لتهنئة السلطان سليم ، بانتصاره وملكه الجديد ومعه هدية حافلة ، وبقي حتى أوائل رجب قابل أثناءها السلطان وحصل منه على مراسيم بتثبيت والده بمكة وجعله المتصرف بأمورها والمسؤول عن الحسبة فيها .

وفي شعبان سنة ٩٢٣ هـ عزل السلطان يونس باشا من نيابة مصر - وكان قد عينه بها في ربيع الأول إثر إعدام طومان باي - وولاهها لخاير بك .

سفر السلطان سليم من القاهرة :

استمر إلحاق الضرر بالناس حتى خروج السلطان سليم من القاهرة ، وعندما أزمع على السفر جمع عدداً كبيراً من السكان وربطهم بالحبال في رقابهم وسيقوا بالضرب على ظهورهم وذلك لسحب المكاحل النحاس (المدافع) من القلعة ووضعها في المراكب بالنيل لتسفيرها إلى استانبول .

وفي يوم الخميس ثالث عشرين من شعبان خرج السلطان سليم من بيت ابن السلطان قايتباي بموكب حفل يتقدمه خاير بك وجانبردي الغزالي ، وأمام العسكر طبلان وزمران وجنائب حربية ، وقد ركب على بغلة صفراء عالية ولبس قفطاناً أحمر ، وأمامه جماعة من وزرائه منهم يونس باشا ، وجماعة كبيرة من العساكر ما بين مشاة وركاب ورماة فقط .

وعند وصوله إلى تربة الأشرف قايتباي^(٣٦٥) وقف وقرأ الفاتحة ، ثم انتقل إلى وطاقه ببركة الحاج ، ولم ينزل به بل تابع سيره إلى الخانقاه السرياقوسية ، وكان خروجه فجأة لم يشعر به الناس .

وترك عند خاير بك من العساكر خمسة آلاف فارس ، ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام ، وعين أميراً يدعى خير الدين باشاه نائباً للقلعة .
وأشيع أنه خرج من مصر وصحبته ألف رجل محملة ما بين ذهب وفضة ، عدا عما غنمه من التحف والسلاح والصيني والنحاس المكفت والخيول وغير ذلك ، حتى نقل منها الرخام الفاخر ومن كل شيء أحسنه . وغنم وزراؤه أموالاً جزيلة ، وكذلك عسكره .

السلطان سليم في دمشق :

وفي الحادي والعشرين من رمضان سنة ٩٢٣ هـ وصل السلطان سليم إلى دمشق ودخلها بأبهة حافلة ونزل بالميدان الأخضر بعد أن مرّ على جامع تنكز .
ولحق بدمشق وغوطتها أثناء إقامته أذى كبير على يد عساكر السلطان ، فقد فرض قدراً معلوماً من القمح على كل حي من أحياء المدينة ، وصادر العساكر المنازل ونزلوا بها بعد طرد سكانها ، ونهبوا فواكه الغوطة وأشجارها ، وارتفعت الأسعار وقلت المواد وفقد بعضها .

وأمر السلطان بتوسعة مسجد الحيوى بن العربي فاستملك ما حول المسجد من عقارات .

وفوض السلطان نيابة دمشق لجانبردي الغزالي في صفر سنة ٩٢٤ هـ على مال قدره مائتا ألف دينار وثلاثون ألفاً .

(٣٦٥) انظر موقعها على المصور رقم ٥ .

وفي العاشر من صفر سنة ٩٢٤ هـ غادر السلطان مصطفى القابون متوجهاً إلى
استانبول ولم يجتمع به أحد من علماء دمشق ولم يجلس للحكم أصلاً بل كان في غاية
التحجب^(٣٦٦).

(٣٦٦) القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية تحقيق الأستاذ دهمان ج ١ .

ثورة جانبردي الغزالي

في سنة ٩٢٦ هـ وبينما كان السلطان سليم يتأهب لفتح جزيرة رودس مرض وتوفي وهو في سن الرابعة والخمسين بعد أن أمضى في السلطنة سبع سنوات ، وتولى ابنه سليمان القانوني .

وما إن وصل خبر وفاته إلى نائب دمشق جانبردي الغزالي حتى أعلن الثورة والعصيان وقد وردت أخبار هذه الثورة بشكل مفصل في كتاب « إعلام الوري بن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى »^(٣٦٧) لابن طولون وذلك ضمن حوادث سنة ٩٢٦ هـ ، وأثرنا نقلها كما وردت .

[بدء التمرد]

وفي يوم الأحد ثاني ذي القعدة سافر النائب إلى بيروت ليأخذ سلب إفرنج خرجوا من البحر وقتلهم أهلها . ويتفقد أبراج ذلك الثغر في السلاح .

وفي ليلة السبت خامس عشره عاد النائب إلى دمشق بغتة وشاع أنه عزل الأمير سنان الرومي^(٣٦٨) عن بلاد البقاع وما انضاف إليها ، وولاهها للمقدم أحمد بن الحنش لما وصل إليه أولاق^(٣٦٩) بموت سلطان الروم سليم خان وتولية ولده سليمان .

(٣٦٧) الكتاب من تحقيق الأستاذ محمد أحمد دهمان - طبعة دار الفكر ص ٢٤٧ .

(٣٦٨) الرومي : أطلق ابن طولون في مؤلفاته على العثمانيين لقب الروم ، فأكثر من استعمال ملك الروم أو سلطان الروم على السلطان العثماني ، والأروام للدلالة على العثمانيين .

(٣٦٩) أولاق : اصطلاح عثماني بمعنى الرسول .

وفي ليلة الاثنين سابع عشره شرع النائب في حصار قلعة دمشق ، فعند ضحوة النهار الكبرى ملكها بالحيله وقتل اثنين من الأروام^(٣٦٨) ومسك أعيان الباقين ومعهم نائبها الرومي ونهب موجودهم ، ثم جهّز نائب القلعة المذكورة ومعه سنان إلى القدس منفيين . ولما دخل القلعة أظهر لبس الجراكسة من التخيفات والكلوتات وأبطل لبس الأروام من العمام والقطنات ، ثم رسم بإبطال التكية والجامع^(٣٧٠) اللتين أنشأهما السلطان سليم خان ، وأخذ جميع مالهما ، ثم ولى مدينة حماة لأحد جماعته المقرقع ومنع الخطباء في سائر الجوامع أن يخطبوا باسم السلطان سليمان . ثم جاء الخبر بأن المقرقع وهو ذاهب إلى حماة قتل الصوباشي^(٣٧١) بمدينة حمص وجهاز قاضيها الرومي إلى النائب وولاه للمقدم بن الحرفوش ، ثم جاء الخبر بأن المقرقع أخذ حماة من الأروام وهرب نائبها إلى حلب ، ثم جهز النائب دواذره الثاني إلى طرابلس فأخذها وهرب نائبها إلى حلب أيضاً ، وكان دخول نائب حماة الهارب إلى حلب نهار الأحد ثالث عشر ذي القعدة منها ، ودخول نائب طرابلس إلى حلب نهار الاثنين ثاني عشري ذي الحجة منها .

ثم جهز نائب دمشق لها وأعرض عليه شباب أهل الحارات بدمشق ، ثم جهز نائب صفد ونائب القدس بسنجقين إلى حلب ، وقد كان لهما ثلاثة أيام قد وصلا إلى دمشق ، ثم جهز دواذره الكبير أصلان ومعه مشدة بسنجقين إليهما أيضاً ، ومعهما عشرون مكحلة أعظمهما ثلاثة سحبت من قلعة دمشق على عجل ثلاث .

[السير نحو حلب]

وفي يوم الأربعاء رابع عشر ذي الحجة منها سافر النائب من دمشق إلى أخذ

(٣٧٠) جامع وتكية الخنكار : جامع وتكية الحيو بن العربي وعنهما تفاصيل واسعة في كتابنا القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ١ / ١١٤ .

(٣٧١) الصوباشي : رئيس فرقة السباهية وهي فرقة الفرسان في الجيش العثماني .



صورة قلعة حلب

حلب من الأروام وخرج مخرجاً حافلاً ولكنه أكثر من البكاء وأوصى وأقام نائب غيبة دواداره الثالث قضا بردي ، ونائب القلعة العمادي بن الأكرم .

وهذا ما كان من نائب الشام جان بردي الغزالي .

وأما ما كان من نائب حلب قرا باشا ، فإنه لما بلغه موت سلطان الروم سليم خان كان نازلاً بعسكره في حيلان فرجع إلى حلب يوم الجمعة سابع ذي القعدة منها ، ثم في يوم الجمعة رابع عشره صلوا صلاة الغائبة على السلطان سليم وخطبوا باسم ولده السلطان سليمان ، ثم شرع في تحصين قلعة حلب ، ثم في تحصين حلب ، وكل من كان خارج أبوابها دخل إلى المدينة ، وسد باب قنسرين وباب المقام وباب النعمة وبقية أبوابها بالحجر والكس ، واستخدم خلقاً كل إنسان بثلاثمائة درهم ، وأنفق عليهم من مال السلطان شهرين ، وأعطى الإنكشارية كل واحد ألفين ، والأصبهانية^(٢٧٢) كل واحد زيادة على الجامكية .

وفي يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة منها خرج من حلب إلى قرية سمرين وقرية دارينخ^(٢٧٣) ونهبها ، وأخذ البقر والمعز وجميع دوابها وفسق وقتل لقتلهم القضاة والحكام العثمانية الذين عندهم ، ثم عاد إلى حلب فخرج إليه في الطريق أمير سنجق من جهة نائب الشام الغزالي فأخذ منه جميع المكسب وقتل منه جماعة وجهز رؤوسهم إلى دمشق ، ودخل نائب حلب إليها مكسوراً .

[حصار حلب]

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشري ذي الحجة منها وصل أول عسكر الغزالي إلى الأنصاري ، وخرج إليه عسكر حلب فوقع الشلش في القتال وترجع جانب عسكر الغزالي .

(٢٧٢) الأصبهانية : فرقة من الجنود المأجورين في الجيش العثماني تقابل في عصرنا المرتزقة .

(٢٧٣) دارينخ كذا في الأصل والصحيح دادينخ .

ثم في يوم رابع عشره زحفوا إلى الميدان ، وفي يوم خامس عشره داروا على أبواب المدينة ، ثم في يوم سابع عشره وقع الحصار على باب المقام وقتل بندقاني بنشاب من عسكر ابن الحنش ، وكان أول من قتل في الحصار من العثمانية .

ثم في يوم التاسع والعشرين منه ركبوا على هذا الباب مكحلة ثقيلة وعدة صغاراً ورموا عليه فلم يفد شيئاً ووصل بعض حجارته إلى عند باب القلعة فوزن فإذا هو أربعة أرتال .

ثم في يوم الثلاثين منه اشتد الحصار مع زيادة الأسهم الخطائية^(٣٧٤) حتى وصلت إلى الخندق ، وكلما خرب من الصور شيء عمر ليلاً .

ثم في يوم الخميس ثاني محرم سنة سبع وعشرين وتسعمائة قطع عسكر الغزالي قناة الماء التي تدخل إلى حلب فتضرر أهلها في الجوامع والحمام وغيرها .

وفي هذا اليوم عمل نائب حلب حيلة لكشف عسكر الغزالي ، فطلع إلى مكان عال في قلعة الشريف وأخرج من باب قنشرين أميراً شجاعاً معه أربعون خيلاً ساقط على جماعة من مشاة الغزالي فقتلوا اثنين وهرب الباقون . وقاموا ألبسوا مافي عسكرهم ، فزعم نفيهم وكانوا متفرقين في الحارات والبيوت

(٣٧٤) الأسهم الخطائية : هي سهام تعلق في رؤوسها مواد متفجرة محرقة تماثل في عصرنا قنبلة الباروك والظاهر أن استعمالها هو مبدأ استعمال البارود ، وانظر ابن فضل الله العمري حين يصفها فيقول : ولا يفرق الأعداء ويحرقهم إلا رعداً المجلجل وبرقها (التعريف بالمصطلح الشريف ٢٠٨) ، والخطا جيل من الترك القريبين من الصين ، ومن هنا جاءت فكرة أخذ العرب استعمال البارود عن الصين ، ويطلق اسم مساكن الخطا على القسم الشمالي من الصين في منغوليا وشرقي تركستان الصينية وكانت الخطائية من جملة الممالك المشتروات ، ففي النجوم الزاهرة (٦ / ٣٢٠) سنة ٦٣٨ هـ : أن الملك الصالح نجم الدين أيوب أقبل على شراء الترك والخطائية .

والغزالي فلما سمعوا نفيهم ماجوا وظنوا أنهم كبسوا ، ثم ركبوا وجاؤوا إلى باب قنسرين وكان أعد لهم عسكر حلب مدافع وكفيات وبندقيات فرموهم فانقلبوا هاربين .

وفي يوم الثلاثاء سابعه سد باب قنسرين المذكور ، وكان فتح باب مانتقوسا وباب النصر فغلقا بلا سد والباقي مسدود ، ثم نادى منادي من جهة الغزالي تحت الأسوار : « يا أهل حلب لا تتفرجوا ببق الأسوار وقت القتال ، وإذا قتل منكم أحد خطيئته في رقبته » . ثم رمى بمكاحل إلى المدينة فوزن بعض أحجارها فبلغ أحد عشر رطلاً حلبياً وبعضها سبعة ونصف وبعضها ثلاث أواق ، ثم نصب سداً على الصور ورام جماعته الطلوع فيه فرموا عليهم من فوق فانكسر السلم وهربوا فجاؤوا بالسلم وأروه لنائب حلب .

[فك الحصار ورحيل الغزالي]

ثم في يوم تاسوعاء وقت الظهر رحل الغزالي عن حلب بعساكره من غير قتال ورجعوا من المكان الذي أتوا منه ، وفرح أهل حلب فرحاً عظيماً لما كانوا فيه من الشدة ، ووصل الرطل الخبز إلى خمسة ، والرطل اللحم إلى ستة وعشرين والرطل الحطب إلى درهمين والرز إلى أوقية بدرهم ، والسمن إلى أوقية بثلاثة ، والزيت إلى أوقية بدرهمين ، وكل بيضة مقلية بدرهم ، وكل رطل حص مسلوق بأربعة ، وكل وقية دبس بدرهم .

ثم في اليوم الحادي عشر منه ردوا قناة الماء إلى البلد ، وخرج الناس إلى بيوتهم فوجدوا أبوابها أخذت وكسرت وشبايكها جهزت إلى دمشق ، وطمائهم نبشت فافتقر خلق كثير .

ثم قدم أولاق وأخبر نائب حلب بأن الأمير علي بن سوار واصل اليوم ، فخرج إليه ومعه نائب طرابلس ونائب حماة ونائب حمص ونائب أنطاكية وجميع

العساكر التي بحلب ولاقوه ، فدخل بثلاثة صناجق ، واحد له وآخر عن يمينه لولده الأكبر وآخر عن يساره لولده الأصغر ، ونزل عند سيدي سعد ، وأهدى له قاضي القضاة بحلب هدية عظيمة ، وشاع أن السلطان سليم كان ولآه حلب وما عزله من الشام ، والظاهر عزله عنها بالشرفي بن المفلح .

ثم في اليوم الخامس عشر منه توجه الأمير علي بك وولده قبل الشام ، وقد كان يوم برد وثلج وهو خامس عشر مرعينيات الشتاء ، وصحبته نائب حماة ثم نائب طرابلس ، ثم في يوم سابع عشر منه دخل إلى حلب أولاق من نائب مصر خير بك وأخبر عنه أنه جهز من مصر عسكرياً للغزالي ، وكان في غزة حاكم من جهة الغزالي فقتلوه وهم منتظرون عسكر الروم حتى يلاقوه ، وقد كان الغزالي أرسل إليه ليطاوعه فأبى ، فهذا سبب رحيل الغزالي عن حلب مع وصول العساكر من السوارية إليه ثم العساكر العثمانية .

ثم إن الأمير علي بك ومن معه وصلوا إلى سراقب وأقاموا بها ثلاثة أيام ، فأخبروا أن الغزالي بحماة ، فرجع الأمير علي بك إلى بلاد سمرين ونائب حماة ونائب طرابلس إلى حلب إلى أن يصل باش العساكر فرحات باشا .

وفي ليلة الخميس سابع صفر منها عاد نائب طرابلس منها إلى دمشق وكان من قبل الغزالي وتحقق عدم أخذ قلعتها فاراً من الأروام .

وفي يوم الجمعة ثامنه عاد النائب الغزالي بنفسه إلى دمشق أيضاً فاراً منهم والله يحسن العاقبة .

وفي يوم الاثنين حادي عشره أعاد النائب الجامع الخنكاري عند ابن العربي ولم يعد التكية ، ثم شرع في تحصين قلعة دمشق بسد حيطان وفك أخرى وحرقت بعض الأسواق ، ثم عرض عليه الشباب من سائر الحارات الدمشقية بالمرجة ،

وقال : لا تقاتلوا الأروام لأجلي بل قاتلوهم خوفاً على حريمكم ، ثم أحضرهم عند قاضي البلد الشرفي بن المفلح بالجامع الأموي ، وحلفهم على القيام معه على الأروام .

[سلطنة الغزالي]

وفي يوم الجمعة ثاني عشره خطب بالجامع الأموي للنائب وهو حاضر بمقصورته بأنه سلطان الحرمين الشريفين ولقب بالأشرف وخرج من الجامع في موكب حافل .

[نهاية الغزالي]

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره خرج السلطان جان بردي الغزالي إلى ملاقة العسكر الرومي الواصل إلى المصطبة السلطانية عند القابون الفوقاني ، فلما كان وقت الظهر تلاقى أوائل العسكرين عند قرية الدوير ، ثم تواصل العسكر الرومي وشاليشه الأمير محمد بن قرقاش ، فركب السلطان من المصطبة ببقية عسكره وتلقاه بأرض النور شرقي قرية برزه^(٣٧٥) من ضواحي دمشق ، فما كان إلا لحظة وانكسر عسكر السلطان جان بردي الغزالي وقطع رأسه ، ثم تلاحق العسكر الرومي ببقية الهاربين ، وارتجف الناس رجفة عظيمة ، وقتل نحو الثلاثة آلاف نفس وستين ، ونهبت الحارات والقرى حول دمشق ، وأخذ بعض نساء وأولاد .

وفي يوم الأربعاء سابع عشره ركب الباشا فرحات إلى دمشق ومعه قاضي القضاة الولوي الفرفوري الذي كان هرب من الغزالي إلى حلب فولي قضاها ، فصعدا إلى قلعتها وتسلمها من نائبها العماد بن الأكرم وأخذاه معها من غير ترسيم

(٣٧٥) برزة : قرية شمالي مدينة دمشق في آخر جبل قاسيون من جهة الشرق تبعد عن دمشق ٧ كم .

عليه ، ثم وضعها صوباشاً ، وكذا في كل حارة من حارات دمشق ، فكف
العسكر بعض الكف ، ثم جهز رأس الغزالي إلى الحنكار ومعه نحو ألف أذن من
المقتولين .

وفي يوم السبت مستهل ربيع الأول نزل الباش إلى دمشق ونزل بدار
السعادة ، وشرع العسكر ينزل في البيوت وتضرر الناس وصار حاكم دمشق .

الفهارس

- ١ - فهارس الأعلام
- ٢ - فهارس الأماكن
- ٣ - فهارس الكتب
- ٤ - فهارس الموضوعات

فهارس الأعلام

أ

- ابن كندر ٨٥
ابن الشحنة (قاضي الشافعية بجلب) ١٣٨
ابن صاروخان ١٤١
ابن طرغل ١٩٢
ابن طولون ٧٠، ١٦٦، ١٧٤، ٢٣٦، ٢٥٩، ٢٦١،
٢٦٦، ٢٦٧، ٢٨٩، ٣٠٢
ابن عطية التاجر ٢٦٤
ابن عمر (الصحابي) ١١٧
ابن فضل العمري = أحمد بن يحيى بن فضل الله
العمري
أبو بكر (ابن عم الخليفة المتوكل) ٢٩٩
أبو بكر بن مزهر ٤١
أبو شامة ٢٢
أبو البقا ٢٢٨، ٢٩٤
أبو السعود بن برهان الدين بن ظهيرة ١٦٨
أبو الفداء ١٣٣
أبو الفضل (خطيب مكة) ١٢
أبو هريرة ٧٠، ١١٨
أحمد (ابن عم الخليفة المتوكل) ٢٩٩
أحمد البدوي ٢٤٩
أحمد المرعشي ١٢٤
أحمد الرفاعي ٢٤٩
أحمد الفتوح ٢٣٩-٢٥٥
أحمد بن الحنش ٣٠٢، ٣٠٦
- إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولي
١٤٢
إبراهيم بن فريمين ٢٠٩
أبناء رمضان ٢٧-٢٨
أبناء قرمان ٢٧
إبراهيم السمرقندي ٢٣٢، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٧٢،
٢٨١، ٢٨٢
أبرك الأشرفي ٢٣٧
ابن الديراني ١٢
ابن الرومي (امام السلطان) ٢٥٨
ابن المنزلق (ناظر الجيش) ١٥٥
ابن الصابوني (ناظر الخاص) ١٩١، ١٩٧
ابن الصوا ١٧٠
ابن المقصي (القاضي) ٢٠٩
ابن الوردي ٢٥
ابن إياس ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٥٤، ٦١، ١٦٣، ١٨٢،
٢١٠، ٢١١، ٢١٧، ٢٢٧، ٢٤٧، ٢٥٠،
٢٥٩، ٢٦٠، ٢٩٨
ابن بذاق ١٧٤
ابن بطوطه ١٠٣
ابن تغري بردي ٣٤
ابن حجر العسقلاني ١٢، ١٢١
ابن رمضان ٤٧-٤٨

أحمد بن جيعان ٢٣٨	أحمد بن جيعان ٢٣٨
أحمد بن الملك الأشرف إينال ٧٤	أحمد بن الملك الأشرف إينال ٧٤
أحمد بن وجيه ١٦٨	أحمد بن وجيه ١٦٨
أحمد بن هرسك ١٨٨ ، ١٨٦	أحمد بن هرسك ١٨٨ ، ١٨٦
أحمد بيك بن بايزيد الثاني ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٢	أحمد بيك بن بايزيد الثاني ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٢
أحمد تپور ٨-٩	أحمد تپور ٨-٩
أحمد زكي ٨ ، ٩ ، ١٦٠	أحمد زكي ٨ ، ٩ ، ١٦٠
أحمد بن بكر (شيخ العرب) ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩	أحمد بن بكر (شيخ العرب) ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩
أحمد بن المطار ٢٦٩	أحمد بن المطار ٢٦٩
أحمد بن بخشي ٢٦٨	أحمد بن بخشي ٢٦٨
أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري = ابن فضل العمري ١٠-٣٠٦	أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري = ابن فضل العمري ١٠-٣٠٦
أحمد وصفي زكريا ٢٢	أحمد وصفي زكريا ٢٢
أرديش (نائب البيرة) ١٢٨	أرديش (نائب البيرة) ١٢٨
أردوانه الأحمدب (شقيق سوار) ٦٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦	أردوانه الأحمدب (شقيق سوار) ٦٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦
١٥٩ ، ١٦٠	١٥٩ ، ١٦٠
أرزيمك الناشف ٢٧٦	أرزيمك الناشف ٢٧٦
أرغونشاه ٦٩-٧٠	أرغونشاه ٦٩-٧٠
أركاس بن طرباي (أمير سلاح) ٢٣٧ ، ٢٤٣	أركاس بن طرباي (أمير سلاح) ٢٣٧ ، ٢٤٣
٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧	٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧
أزبك (نائب حلب) ١٨١	أزبك (نائب حلب) ١٨١
أزبك (نائب الشام) ٤٠	أزبك (نائب الشام) ٤٠
أزبك من ططخ (الأتابكي الظاهري) ١٢ ، ٤٣	أزبك من ططخ (الأتابكي الظاهري) ١٢ ، ٤٣
٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ١٤٤ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٥	٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ١٤٤ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٥
١٧٦ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠	١٧٦ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠
١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٦	١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٦
أزبك اليوسفي ١٨٣-١٨٤	أزبك اليوسفي ١٨٣-١٨٤
أزدمر (أمير مجلس) ١٨٢	أزدمر (أمير مجلس) ١٨٢
أزدمر (نائب حلب) ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٥	أزدمر (نائب حلب) ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٥
أزدمر (المهندار) ٢٢٣	أزدمر (المهندار) ٢٢٣
أزدمر تمساح ١٩٤	أزدمر تمساح ١٩٤
أزدمر الطويل الاينالي الابراهيمي ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٠	أزدمر الطويل الاينالي الابراهيمي ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٠
١٧٠	١٧٠
أزدمر من يزبك (نائب حاة) ٦ ، ١٧١	أزدمر من يزبك (نائب حاة) ٦ ، ١٧١
أسكندر بن جيحان ١٩٣ ، ١٩٩	أسكندر بن جيحان ١٩٣ ، ١٩٩
أسلماس ٧١	أسلماس ٧١
اسماعيل شاه بن حيدر الصفوي (الصوفي) ٢٨ ، ١٠٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦	اسماعيل شاه بن حيدر الصفوي (الصوفي) ٢٨ ، ١٠٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٦١	٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٦١
اسماعيل بن الأكرم ٢٦٤	اسماعيل بن الأكرم ٢٦٤
أصلان (دوادر جانبردي الغزالي) ٣٠٣	أصلان (دوادر جانبردي الغزالي) ٣٠٣
أصلان (نائب حص) ٢٥٢	أصلان (نائب حص) ٢٥٢
أصلان بن ملك أصلان بن دلفادر ١١٩ ، ١٢٥	أصلان بن ملك أصلان بن دلفادر ١١٩ ، ١٢٥
١٢٧	١٢٧
أقباي الخططي (حاجب بطرايس) ١٢٩	أقباي الخططي (حاجب بطرايس) ١٢٩
أقباي الطويل (أمير آخور ثاني) ٢٢٣ ، ٢٢٩	أقباي الطويل (أمير آخور ثاني) ٢٢٣ ، ٢٢٩
٢٣٠ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٥١	٢٣٠ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٥١
أقبردي (الدوادر) ١٨٨ ، ١٩٤	أقبردي (الدوادر) ١٨٨ ، ١٩٤
الاسكندر ذو القرنين ٢٧٤	الاسكندر ذو القرنين ٢٧٤
ألماس نائب صفد ١٨٣	ألماس نائب صفد ١٨٣
الياس بن قزل عا ٩٦	الياس بن قزل عا ٩٦
أمير جان ١٠٦	أمير جان ١٠٦
أمين الدين الأقصرائي (شيخ الإسلام) ٤١-٤٢	أمين الدين الأقصرائي (شيخ الإسلام) ٤١-٤٢
أنس بن مالك ١٢٢	أنس بن مالك ١٢٢
أنصباي من مصطفى (أمير آخور) ٢٣٧ ، ٢٧٢	أنصباي من مصطفى (أمير آخور) ٢٣٧ ، ٢٧٢
٢٧٩ ، ٢٨٧	٢٧٩ ، ٢٨٧
إينال الأشقر ٤٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦	إينال الأشقر ٤٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦
٩٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨	٩٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨
١٦٤ ، ١٦٦	١٦٤ ، ١٦٦
إينال باي ٢٣٠	إينال باي ٢٣٠

إينال الحكيم ٨٧، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٩، ١٧٠

إيبك (المعز) ٣٦

اوزون حسن = حسن الطويل

أولاد بشاره ١٣٣

برسبای (الملك الأشرف) ٨٤

برسبای ١٣٣

برسبای قرا ٥٠، ٧٧، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٨، ١٥٣،

١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٤، ١٧٠، ١٧١،

١٨٤، ١٧٣

البرهان الحلبي ١٢

برهان الدين (سلطان سيواس) ٢٥

برهان الدين بن ظهيرة ١٦٨

بكر بن وائل ١٠٨

بنت جاني بيك دوادار طراباي ٢٣٢

بهادر (نائب عينتاب) ١٢٩

بيبرس (أمير طرابلس) ١٣٤

بيبرس (قريب السلطان الغوري) ٢٣٧، ٢٥١

بيبرس (الملك الظاهر) ٢٢، ٨٢

ب

بايزيد الأول ٤٠

بايزيد الثاني = أبو يزيد ٦، ٢٧، ٢٨، ٣٧، ٤٠،

١٠٦، ١٤٥، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤،

١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١،

١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧،

١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٠،

٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥،

٢٢٦، ٢٣١، ٢٤١

باينذر (نائب يعقوب الطويل في الرها) ١٧٣،

١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٢،

بجراخ (دوادار سوار) ٩٨

البدر بن سلامة ١٢

بدر الدين بن مرهر « كاتب السر » ٢١٦

بدر الدين محمد السعدي « القاضي الحنبلي » ١٩٦

برد بك (دوادار الخليفة المتوكل) ٢٩٦

برد بك (نائب طرابلس) ١٧٣

برد بك الحمفدار.. نائب الشام « ٢٥، ٢٦، ٣٩

برد بك هجن ٣٨-٣٩

برقوق، السلطان « ٣٦

برقوق.. نائب الشام، ٥٠، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩،

٨٤، ١٢٩، ١٦٦

بركات « شريف مكة » ٢٣٨

بركات بن موسى ٢٣٨، ٢٧٢، ٢٩٤

بركات العسمر ٢٩٤

ت

تاني بك (الخازندار) ٢١٩، ٢٣٧، ٢٨٧

تاني بك الجمالي (أمير سلاح) ١٨٤، ٢١٠

تاني بك الظاهري ٤٥-٤٦

تاني بك قرا ١٧١، ١٧٣، ١٨٥

تاني بك النجمي ٢٨٧

تبرك بن ايرنحي ٩٦

تغري بردي ططر ١٨٢، ١٨٥، ١٩١، ١٩٧

تمر (حاجب الحجاب) ٣٨، ٣٩، ٤٣، ٥٠

تمر (رأس نوبة النوب) ٢٧٩

تمر باي ٢٢٥

تمربغا الظاهري (سلطان) ٣٦

تمرا الحسني (الزردكاش) ٢٣٧، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٨٧

تمراز (نائب طرابلس) ٢٤٧، ٢٥٢

تمراز (رأس نوبة النوب) ١٧٠

تمراز الأشرفي الشمسي العزيزي الساقى ٥٠، ٥٤،
٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٩، ٧٧، ٨٢،
٨٥، ٩٧، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٦، ١٤٧،
١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨،
١٥٩، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٢

تم (نائب سيباي) ٢٦٨
تم الضيع (أمير عشرة) ٥٩
تمورلنك ٢٧، ٤٦، ١٢٠، ١٤٥

ج

جابر (الصحابي) ١١٨
جارقطلي (نائب قلعة المسلمين) ٨٦
جان بلاط (الموتر) ٢٣٧
جان بلاط الغوري ١٩٥

جان بلاط من يشبك الأشرفي = الملك الأشرف
١٩٩، ٢١٠، ٢١١

جانبردي الغزالي ٢٢٧، ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٦٠،
٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٥،
٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٩، ٣٠٠،
٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨،
٣٠٩، ٣١٠

جانم ٩٧

جانم (الخازندار) ١٥٣

جانم (الخاصكي) ٢٣٣

جانم (الدودار) ١٥٦

جانم (الزردكاش) ٨٩، ١٣٥، ١٤٤، ١٥٦

جانم الجداوي (نائب حاة) ١٧٣، ١٧٥

جانم السيفي ١٦٩

جانم الشريف ١٧١

جاني بيك (داودار) ٢٣٢

جاني بيك (نائب جدة) ١٦٩

جاني بيك حبيب ١٧٥، ١٧٦، ١٨٤، ١٨٥

جاني بيك الزيني ٤٣

جاني بك قلقسير (أمير سلاح وأتابك) ٣٨، ٣٩،

٤١، ٤٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥

جراق (نائب سوار) ١٤٨

جقمق (السلطان الظاهر) = الظاهر جقمق

٢٧، ٣٩، ١٧٥

جمال الدين ٢١٤

الجمالي (نائب القدس) ٨٢

ججمة (شقيق بايزيد الثاني = جم) ١٨١-١٨٢

جنكيز خان ٢٥

جهان شاه بنت قرا يوسف ١١٣

ح

حداد = حدادار (شقيق سوار) ٦٠، ١٣٣، ١٥٩

حرب بن شبانة ٨٢

حسام الدين بن حريز المالكي ٤١

حسام الدين لاجين ٧٨

حسان بن ثابت ٧٤

حسن (قاضي حسن الطويل) ١١٦، ١١٧، ١١٨،

١١٩، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥

حسن بك بن حجك ٩٣

حسن بك الطويل = حسن باك = اوزون حسن

٦، ٩، ٢٧، ٣٧، ٤٩، ١٠٦، ١١٤، ١١٥،

١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣،

١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٧، ١٦١، ١٦٣،

١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩،

١٧٠، ٢٠٥

الحسن بن علي ٩٩

حسن بن قزل محار ٩٦

حسن بن مرعي ٢٩٧

حسين (نائب جدة) ٢١٥

حسين بن أغرلو بن حسن الطويل ٢٠٠

الخليبي التاجر ٢١٥

حمزة بن اينال ٨٥، ١٠٤، ١٠٧

حمزة بن صقلسير ٨٢

حيار بن مهنا ٢٩

خوشقدم النائب ١٤٦

خير الدين باشاه ٣٠٠

د

دولات باي (الخازندار) ١٥٣، ٥٠

دولات باي (مملوك سوار) ١٣٧

دولات باي (نائب الشام) ٢١٩

دولات باي (نائب غزة) ٢٧٥

دولات باي السيفي ٧٤-٧٥

دولات باي المحوجب ١٦٩-١٧٠

دولات باي النجمي ١٥٣، ١٦٥

دواد باشا ١٩٣

داود بن رمضان ٨٥

ر

رستم (أمير الحج العراقي) ١٦٨

رستم (عم سوار) ١٠٢

رستم (مهمندار حسن الطويل) ١١٤، ١٢٤، ١٢٥

رستم بن ناصر الدين بك ٣٣

رصاص (المؤذن) ٢٥٨

ركن الدين (قاصد السلطان سليم) ٢٤٥

ريدان الصقلي ٥٣

ز

زامباور ٢٣، ٣٠

زين الدين زكريا (قاضي الشافعية) ١٩٦، ١٩٧

زين الدين قراجا بن دلغادر ٢٥، ٢٩

س

سارة (والدة يوسف بن جكم) ٤٨

سالار ١٣٤

خ

خاير بك (الخازندار) ٢١٧

خاير باك ٦٩، ٧٧، ٨٢، ٩١، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ٩٨

١٣٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٢، ١٥٣، ١٥٧

خاير بك (نائب حلب ثم والي مصر) ٢٣٢،

٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥

٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥

٢٧٤، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٩

٣٠٨، ٣٠٠

خاير بك البهلوان ٤٥

خاير بك من حديد الأشرقي ٤٣، ٥٠، ١٧٠

خشكدي الظاهري ١٥٥

خضر الدلغادري ١٢٨

خليل بك ٢٩

خليل بن إسماعيل ٧١، ٧٤

خليل بن بوزجا ٨٥، ١٥٦

خليل بن زويعة ٨٢

خليل بك بن زين الدين بن قراجا ٢٥

الخواص (مؤذن السلطان) ٢٥٨

خوشقدم ١٨١

خوشقدم (السلطان) ٢٧، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٩

٢٠٨

خوشقدم (شادالشون) ٢٣٢، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٨٤

١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ،	سالم (شقيق سوار) ١٦٠
١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ،	ستانلي بول ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٢٠
١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ،	السخاوي ٩ ، ١٢ ، ٣٤ ، ٣٦
٢٢٠ ، ٢٥٩	سلمان بن دلفادر (شقيق سوار) ٦٠ ، ١٣١
سودون الأقرم ١٦٣	سليم الأول = سليم شاه = السلطان سليم ٦ ، ٢٨ ،
سودون الدواداري ٢٣٧ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،	٨٨ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ،
سودون الشهابي ٢٧١	٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
سودون الطويل ٨٩	٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
سودون العلائي ١٣٧	٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،
سودون القصري ٤٣	٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
سودون المنصوري ٩٧	٢٥٩ ، ٢٦٠ وحتى ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
سودون من جاني بك العجمي ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٧١ ،	٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ،
٢٧٢	٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨
سولي بك بن زين الدين بن قراجا ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ،	سليمان بك بن سولي بك (قريب سوار) ٢٧ ،
سيباي نائب الشام ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،	٢٩ ، ٣٤ ، ١٧٣
٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ،	سليمان بن مسعود ٩٦
سيف (أمير عرب آل فضل) ٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،	سليمان بيك بن أحمد بيك بن بايزيد ٢٢٩ ، ٢٣١ ،
١٧٣ ، ١٧٥	سليمان القانوني ٢٨ ، ٢٦٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ،
سيف الدولة الحمداني ٢٠ ، ١٤٢	السديسي (إمام السلطان) ٢٥٨
سيف الدين يلبي (سلطان) ٣٥ ، ٣٦	سنان باشا ٢٨ ، ٢٦٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ،
ش	٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
شاد بك الأعور ٢٧٨	سنان الرومي ٣٠٢ ، ٣٠٣
شاد بك الجكمي ١٧٢	سنبل العثماني ٢٤٠ ، ٢٤٩
شاد بك الجلباني ١٥٥	سوار = شاه سوار ٥ ، ٩ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
شاذ بك الخازندار ٧٨	٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
الشافعي (الإمام) ١٢٣	٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
شاه بذاق = شاه بوداق = شاه بضاع ٢٧ ، ٢٨ ،	٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٥٨ ، ٨٥ ، ١٥٠ ، ١٦٤ ،	٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧١ ، ٩٣ ، ٩٥ ،
١٨١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣	٩٨ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،
	١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

شاه باك بن شهري ٨٧

شرف الدين الأنصاري ٤٩، ٧١، ٧٢، ٧٤، ٧٨،

٨٢، ٩٤

شرف الدين بن غريب ١٥٧

شرف الدين الصغير ٢٣٨، ٢٩٤

شرف الدين بن يعقوب ١٢٣

الشرفي بن المفلح ٣٠٨، ٣٠٩

الشريف الجرجاني ١٢٠

شعبان الملك الأشرف ١٣٧

شقراء بنت سييائي ٢٦١، ٢٦٤

شكر بن مرعي ٢٩٧

شمس الدين الحلبي ٢٩٠

شمس الدين بن عوض ٢١٦

شمس الدين سامي ٣٠، ١٢٧، ١٢٨

شمس الدين القادري ١٦٧

شهاب الدين الفتوحي ٢٨٤، ٢٩٤

شيحي (تاجر) ٨٧

الشيرازي التاجر ٢١٥

ص

صارم بن بهلوان ٨٦-٨٧

صلاح الدين خليل (الملك الأشرف) ٨٦

ط

طراباي (ناظر الديوان) ٢٣٢

طراباي (نائب صفد) ٢٤٧، ٢٥٢

طربل بن طوغان بن صقلسير ٨٢

طقطبائي (حاجب الحجاب) ٢٧٩، ٢٨٧

طقطميش الخشقدمي ١٧٣

طوروس الثاني = ابن ليون = مليح بن لاوون

٢٢

طوغان الساعي ١٨٤

طومان باي الدوادار ١٩٨

طومان باي الأشرفي (الملك العادل) ٢١٠، ٢١١،

٢١٩، ٢٢٧، ٢٤٤، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣،

٢٦٤، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥،

٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١،

٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩،

٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩

ع

عادل فقيه ١٣٤

عاشق تمر ١٣٧

عائشة خاتون (بنت علي دولات) ٢٨

العباس بن عبد المطلب ١١٠

عثان بن عفان ٢٤٩

عبد البر بن محاسن ٢٧٢-٢٧٣

عبد الدائم بن أحمد بن بقر ٢٧٩

عبد الرزاق (شقيق علي دولات) ١٩٢، ٢٣٤،

٢٤٧، ٢٣٥

عبد السلام قاضي هنسا ٢٩٥

عبد الغني بن تقي (قاضي المالكية) ١٩٦، ١٩٧

عبد الكريم بن الجيعان ٢٥٧

عبد الكريم بن فخيرة ٢٥٧

عبد الكريم بن اللاذني ٢٥٧

العجمي الشنقجمي ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٥٧، ٢٦١

عثان بن أغلبك ١٦٥

عز الدين أبيك الحوي ٢٦٧

عز الدين الحنبلي ٤١

العزيمز بالله الفاطمي ٥٣

غ

غازي بن مشاق ٧١، ٧٢، ٧٤

ف

فاطمة بنت العلائي علي بك خاص بك ٢٠٥

فرج بن مقبل ١٢٩

فرحات باشا ٣٠٨-٣٠٩

فخر الدين بن عوض ٢٩٤

فخر الدين أغلبك ٧٩

فرهاد باشا (وزير) ٢٨

ق

قاسم بن أحمد بن بايزيد الثاني ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٦

قاسم حسن ١٦٨

قانباي (أمير آخور) ٢٥٣

قانباي (رأس نوبة) ١٣٥

قانباي النائب ٩٣-٩٤

قانباي صلق ١٣٨، ١٥٠، ١٥٧، ١٧٢

قانسوه (دودار يشبك) ١٧٥

قانسوه أبو سنة ٢٨٧

قانسوه الأشرفي (نائب قلعة حلب) ٢٥٥

قانسوه البرجي (نائب الشام) ٢٦٢

قانسوه البواب الاينالي ١٧٣

قانسوه الجيلاني ٤٠

قانسوه خمسة ١٨٥-١٨٨

قانسوه الخازندار ٢١٩

قانسوه الخسيف الاينالي ٥٠

قانسوه بن سلطان جركس ٢٣٧، ٢٥٠

قانسوه الشامي ١٩٣

قانسوه العادي ٢٨٠

عفيف (خادم مقام السيدة نفيسة) ٢٤٩

علاء الدين (قاضي قضاة) ١٦٤

علاء الدين بن الامام ٢٣٨

علاء الدين الحصني ١٠٦

علاء الدين علي بن ططر ١٤١

علان (الدودار) ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٧٩، ٢٨٥

علان من قراجا (دودار ثاني) ٢٣٧، ٢٤٧

علاي الدين بيك بن أحمد بيك بن بايزيد ٢٢٩،

٢٣١

علم الدين (كاتب خزنة) ٢١٦

علي الآمدي ١١٩

علي باك بن شاه سوار ٢٨، ٢٩، ٢٢٩، ٢٣٣،

٢٤٢، ٢٤٧، ٢٧٥، ٢٨٠، ٣٠٧، ٣٠٨

علي باي (دوارد نائب غزة) ٢٧٦

علي باي (نائب قلعة دمشق) ٢٦٤-٢٦٥

علي بن أبي طالب ٩٩

علي بن الشيباني ٧٩

علي بن فياض ٩٣

علي الحلبي ١٩٩

علي دولات = علاء الدولة = بوزقورت ٦، ٢٨،

٢٩، ٣٧، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤،

١٨٥، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٤، ٢١٩، ٢٢٠،

٢٢١، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤١،

٢٤٢، ٢٤٥

العادي بن الأكرم ٣٠٥، ٣٠٩

عمر بن رمضان ٨٥

عمر بن شبانة ٧٤

عمر بن كندر ١٠٤

عياض (القاضي) ١٢١

عيسى (شقيق سوار) ١٦٠

عيسى بن قراجا ٩٥

- قانسوه الغوري = قانسوه من بيزدي ٢٨، ٨٨،
٢٠١، ٢٠٣، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤،
٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠،
٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦،
٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤،
٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢،
٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨،
٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤،
٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١،
٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٦،
٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٨
قانسوه من قانسوه الأشرفي (الملك الظاهر)
٢١٠، ٢١٩
قانسوه من فارس المعروف بقرا ١٩٦
قانسوه كرت ٢٣٧
قانسوه من نفيس ٢٣٤
قانسوه اليعياوي ٨٤، ١٥١، ١٧٢، ١٧٣
قائم طاز الأشرفي ٤٣
قايتساي ٢٨، ٣١، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٦، ٤٧،
٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٨،
٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٥، ٦٦، ٨٤، ٩١، ٩٥،
٩٧، ٩٩، ١٠١، ١١٥، ١١٦، ١٥٠، ١٥٨،
١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧،
١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦،
١٨١، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠،
١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧،
١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٩،
٢٤١، ٢٤٤، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٧
قحق (نائب دمشق) ١١٣
قحماس الطويل ٤٣
- قرا باشا (نائب حلب) ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧
قرا بن بوزجا ١٥٦
قراجا باشا ٢٤٥-٢٤٦
قراجا بن دلفادر ٢٥
قراجا الطويل الاينالي ٤٣، ١٦٣
قرقاس (أمير آخورتاني - نائب حلب) ١٩٨
قرقاس الأتابكي ٢٢٤
قرقاس الجلب ٤٣، ٤٤، ٤٦
قرقاس الصغير (نائب ملاطية) ٤٧، ٥٣، ٨٧
قرقاس المحمدي ١٧٣
قرقاس المصارع العلاني ١٦٧
قرط = الشيخ قرط ١١١
قرقد بن بايزيد الثاني ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٩
القرماني ٢٣، ٣٠، ٣٤
قره يوسف بن قره محمد ١١٢
قصوره (نائب الشام) ١٩٨، ٢١٠، ٢١١
القصوروي (ناظر الجيش) = محي الدين عبد
القادر القصوروي
قضا بردي (نائب غيبة جانبردي الغزالي) ٣٠٥
قضا بردي الأشرفي (نائب الاسكندرية) ٢٧٥
قطب الدين الخيزري ٧٥، ١٥٥
قطب الدين الشافعي ٧٨
قلاوون (السلطان) ٧٨
القلقشندي ١٠-٢٢
قنبك ٢٨٧
قبا بن فارس ٩٦، ٩٨
قيت السافي ١٨٦
- ك
كاسباي المحتسب ١٨٨

محمد أغرولو بن حسن الطويل ١٦٩-١٧٠
 محمد بن اغحرق ٩٨-١٠٣
 محمد البلخشي ٢٦٩
 محمد بيك بن خليل بك ٢٧
 محمد بن حسن بن الصوا الحلبي ١٦٧
 محمد بن حسن الطويل ١٦٣
 محمد الشلي (سلطان عثماني) ٢٥
 محمد بن الشريف بركات ١٦٨
 محمد بن السلطان قايتباي = الملك الناصر ٢٠٥ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٠
 محمد بن السلطان قانصوه الغوري ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢ ، ٢٨٥
 محمد بن العلائي ٢٩٩
 محمد بن قرقاس ٣٠٩
 محمد بن قلاون ٥٣ ، ١٣٤
 محمد بن القيصوني ٢٥٨
 محمد الكردي ١١٠
 محمد بن مبارك ٧٩
 محمد بن محمود بن خليل بن أجا الحلبي (شمس
 الدين) ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
 ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ٢٣٨
 محمد مصطفى (الدكتور المؤرخ) ٦١
 محمد بن نائب بهنسا ٥٤
 محمود قاذان ١١٣
 محمود بن بلال ٧١
 محمود بن سلقسيز ٨٢ ، ١٥٥
 محمود بن الشحنة ٢٣٨ ، ٢٥٥ ، ٢٩٤
 محي الدين بن تقي ١٩٢
 محي الدين بن الدميري ٢٨٤ ، ٢٩٤
 محي الدين عبد القادر القصري ٢٣٨ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣
 المستنجد بالله يوسف (الخليفة العباسي) ٤١

كاور يحيى (شقيق سوار) ١٥٩
 كرتباي الأحمر (كاشف البحيرة) ١٨٦
 كرتباي الأشرفي ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧
 كال (من خواص السلطان سليم) ٢٢١
 كال الدين بن شمس المزين ٢١٤
 كال الدين الطويل ٢٣٨ ، ٢٥٥ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤
 كويريني ١٦٧

ل

لاجين (دودار يشبك) ٩٠
 ليون الأول ٢٢

م

مال باي الاقطع (شقيق سوار) ٤٥
 ماماي الخاصكي = ماميه ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٦١
 ماماي الصغير المحتسب ٢٤٢ ، ٢٨٠
 مامنا تزب ١٦٨
 المتنبي ٢٠
 المتوكل على الله = محمد بن المستك بالله يعقوب
 العباسي ١٤٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
 ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩
 محب الدين بن الشحنة الحنفي ٤١
 محب الدين بن القرفور ١٧٤
 المحي (ناظر الجيش) ٢٤٤ ، ٢٥١
 محي الدين الدميري ٢٣٨ ، ٢٥٥
 مراد الثاني (السلطان العثماني) ٢٧
 مروان بن محمد (الخليفة الأموي) ١٠٧
 مجد الدين بن البقري (الاستادار) ٢٠٩
 محمد بن اسلماس ٨٣ ، ٨٥

المستمسك بالله يعقوب (الخليفة العباسي) ٢١٥ ،

٢٤٧ ، ٢٧١

مصر باي الأقرع ٢٨٧

مصطفى بن ايرغني ٩٦

مصلح الدين (قاصد السلطان سليم) ٢٩٦

مصلح ميزان ٢٦٤ - ٢٦٥

معاذ بن جبل ١٢٢ - ١٢٣

معاوية بن أبي سفيان ٩٩

المعتصم (الخليفة العباسي) ١٤٢

المعز إيبك = إيبك (المعز)

معين الدين بن شمس ٢١٦

مغلباي (البجمقدار) ١٩٠

مغلباي (دودار سكين) ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨

المقدم بن الحرفوش ٣٠٣

المقرقع ٣٠٣

المقريني ٣٨ ، ٦٧

ملك ارسلان بك ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤

الملك الأشرف ٢١١

الملك الصالح = نجم الدين أيوب

الملك الكامل الأيوبي ٧٠

مكرمة خاتون ٢٧

منصور بن يشبك الدودار ٧٤

منطاش ٣٠

موسى (كبير بني ربيعة) ١١٩

موسى بن قراجا ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٩

موسى الكاظم ٢٢٠

مؤيد شيخ (سلطان مصر) ٢٧

ن

ناصر بن دلغادر ٩٣

ناصر الدين الاخميني (قاضي الحنفية) ١٩٦

ناصر الدين محمد بك ٢٩

ناصر الكردي ٩٧

نافع الصحابي ١١٧

نانق ٢٨

نانق الخازن ٢٢٣

النجم القرمي ١٢

نجم الدين أيوب = الملك الصالح ٥٨ ، ٣٠٦

نُعيم بن حيار ٣٠

نفيسه ٢٤٩

نور الدين محمود بن زنكي ٢٢ ، ١٠٤ ، ١٤١

النوي ٩٥ ، ١٢١

هـ

هاثيل (الأمير) ٧١

هاثيل بن طقتمر ١٢٤

هارون الرشيد ٢٠

هولاكو ١١٣

و

الواثق ١٤٢

الواقدي ١٣

وردبش ١٧٠

وردبش (نائب حلب) ١٧٥ ، ١٨٣

ولي الدين الأسيوطي الشافعي ٤١

الولوي بن الفرفور ٢٦٧ ، ٣٠٩

ي

ياقوت الجوي ٢٢ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٤ ، ١٠٧ ،

١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٢

يحيى بن بكير ٢٥٨

يحيى بن العداس ٢٨٦

يحيى بن علي الخطيب التبريزي ١١٣

يحيى كاوُر (شقيق سوار) ٤٧ ، ٦٠

يحيى المزين ٨٦

يخشباي (أمير مجلس) ٢٧٩

يَشْبَك (نائب طرابلس) ٩٢

يشبك (تقيب قلعة دمشق) ٧٩

يشبك الجمالي ١٨٦

يشبك الفقيه ٢٨٨

يشبك من حيدر ٦٠

يشبك من مهدي = يشبك الدوادار ٦ ، ٨ ، ٩ ،

١٢ ، ١٣ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ،

٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٩ ،

٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ،

٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١١٩ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥١ ،

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٠٨

يلباي المؤيدي ٩٧

يلبغا (نائب حلب) ١٥٣

يلبغا أرس (نائب حلب) ٢٩ - ٣٠

يعقوب بن حسن الطويل ٦ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،

١٨٤ ، ١٧٦

يعقوب اليهودي ٢١٤

يوسف (الشيخ) ١٢٦

يوسف (ناظر الخاص) ٢١٦

يوسف البدري ٢٨٥

يوسف بن جكم ٤٨

يوسف بن الخيوسي ٧٠ - ٧١

يونس الاستادار ٢٩٤

يونس (شقيق سوار) ١٦٠

يونس (تقيب الجيش) ٢٣٨

يونس باشا ٢٦٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٩

يونس العادلي ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،

٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤

يونس النابلسي ٢٢٨

- ۳۲۵ -

ب

بابا حيدر (قرية في تركيا) ١١٢

الباب (في سورية) ٨٨

باب البريد (في دمشق) ٢٦٨

باب الخليج (في القاهرة) ٥٨

باب الدباغة (في عينتاب) ٩١

باب زويلة (في القاهرة) ٢٨، ٤٥، ٥٨، ٦٠،

١٥٩، ١٦٠، ١٩٧، ٢٢١، ٢٤٠، ٢٦٢،

٢٧٧، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٧، ٢٩٨

باب السلام (في دمشق) ٢٦٦

باب السلام في الحرم المكي ٢٠٦

باب السلسلة (في القاهرة) ٢١٠

باب الفرج = باب المناخلة (في دمشق) ٢٦٤

باب الفتوح (في القاهرة) ٥٨، ٢٢٥

باب القرافة (في القاهرة) ٢٠٦-٢٠٧

باب القنطرة (القاهرة) ٥٨

باب قنسرين (في حلب) ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧

باب المقام (في حلب) ٣٠٥-٣٠٦

باب الملك (في لواء اسكندرون) ٤٥، ١٣١، ١٩٠

باب الميدان (في القاهرة) ٤٥

باب الناطفانيين = باب العارة (في دمشق) ٢٦٧

باب النصر (في القاهرة) ٤٥، ٥٨، ٦٠، ٦١،

١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ٢٢٥، ٢٤٠، ٢٧٧،

٢٨١، ٢٨٥

باب النعمة (في حلب) ٣٠٥

باب النصر (في حلب) ٣٠٧

باب مانقوسا (في حلب) ٣٠٧

بتليس = بدليس (في تركيا) ١١٠، ١٢٠، ١٢٧،

١٢٨

البحر الأحمر ٢١٨

البحر الأسود ٢٦٢

بحر عمان ٢٩١

البحر المتوسط ٦٥، ٧٠، ١٣٣، ١٤٢، ٢٧٣

بحر يوسف (فرع من النيل) ٢٩٥

البحيرة (مديرية في مصر) ٤٤، ١٨٦، ٢٩٧

بحيرة أرمية (في إيران) ١١٣

بحيرة طبريا (في فلسطين) ٧٤

بحيرة مريوط (في مصر) ٤٤

بحيرة المنزلة (في مصر) ٥٨

بحيرة بندما هي = سكر السمك (في تركيا) ١١٢

بحيرة النصارى (في تركيا) ١٠٤، ١٠٧

بحيرة وان (في تركيا) ١١٠، ١١١، ١١٢، ١٣٦،

١٢٧

بخارى ١٢٠

بدليس = بتليس

برزة (قرب دمشق) ٢٧٠، ٣٠٩

بركة إبراهيم (في تركيا) ١٠٧

بركة الحاج (مصر) ٢٧٢، ٢٨٢، ٢٨٤، ٣٠٠

بركة الحبش (في مصر) ٢٠٧، ٢٨٦، ٢٩٦

البركة الناصرية (في مصر) ٢٠٦

برج الاسكندرية ٢١١

برج ابن البياجي (في تركيا) ٩١

برج الرصاص (في تركيا) ١٠٥، ١٠٧

برج طرابلس ٢٠٦

برج قلعة القاهرة ٤٧، ٦٠، ١٦٨، ٢٧٣

برج الماء (في تركيا) ٩١-٩٢

براغة (في سورية) ٨٨

بغداد ٨، ٨٨، ١١٢، ١٢٠، ١٤٢، ٢٥٥، ٢٧٣، ٢٧٤

بغراض (في لواء اسكندرون) ١٤١

البقاع (في لبنان) ٢٩، ٣٠٢

بيت ابن السلطان قايتباي (في القاهرة) ٢٩٩	بلاد ابن عثمان = بلاد الروم ١٢، ١٨٤، ٢١٩،
بيت دارس (في فلسطين) ١٢	٢٦٠، ٢٣٥، ٢٢٥
بيت نم (في دمشق) ٢٦٨	البلاد الحلبية ٥١، ١٦٧، ٢١٥
بيت المقدس = القدس ١٢، ٣٦، ٦٧، ٢٠٦، ٢٦٩،	بلاد الشام = البلاد الشامية = الديار الشامية =
٢٧٠، ٢٧٨، ٢٠٣	الشام ٥، ٦، ٧، ١٩، ٢٠، ٢٤، ٢٨، ٢٩،
بير البيضاء (في مصر) ١٠	٣٣، ٣٥، ٥١، ٥٨، ٦٧، ٦٩، ٧٩، ٨٢،
البيرة = بيرة جيك (في تركيا) ٩٥، ١٠٦، ١٠٧،	١١٣، ١٢٠، ١٣٥، ١٦٦، ١٧٢، ١٧٣،
١١٠، ١١١، ١٢٠، ١٢٨، ١٦٦، ١٦٧،	١٧٥، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٨، ٢٠٤، ٢١١،
١٦٩، ٢٢٥	٢١٢، ٢١٥، ٢١٨، ٢١٩، ٢٣٤، ٢٣٦،
بيروت ٣٠٢	٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٤،
بيسان (في فلسطين) ١٠، ١١، ٧٤، ٢٦٣، ٢٧٥،	٢٥٥، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢،
٢٧٦	٢٦٣، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨١،
البيارستان العتيق (في القاهرة) ١٥٨	بلاد المعجم ١٧٤، ٢٦٠، ٢٩٠، ٣٠٨
ت	بلاد فارس ١٦٧
تاسو = ناغجوان (في إيران) ١١٣، ١٢٦،	بلاد الفرنج ٢١٥
تبريز (في إيران) ٩، ١٢، ١٠٦، ١١٢، ١١٣،	بَلْبِيس (في مصر) ١٠، ٥٣، ٦٦، ١٥٧، ٢٧٠،
١١٤، ١١٦، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٦، ١٦٣،	٢٨٠، ٢٨١
١٧٤، ٢٢٠، ٢٣١	البلقان ٢٠٣، ٢٥٨
تتا (في مصر) ٤٩	البندقانيين (في القاهرة) ٢٠٧
تربة باب الصغير (في دمشق) ١٦٦	البندقية (في ايطاليا) ١٦٨، ٢٤٠
تربة العادل (في القاهرة) ٢٨٠	بندماهي (قرية في ايران) ١٢٦
تربة قايتباي (في القاهرة) ٢٠٦، ٣٠٠،	بهنسا = بهسنى (في تركيا) ٢٣، ٢٧، ٥٤، ٨٧،
تربة محمود قازان خان (في تبريز) ١١٣	١٤٥، ٢٤٧
تربة يشبك الدودار (في القاهرة) ١٧٥	البهنسا (في مصر) ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦،
ترعة الإسماعيلية (في مصر) ٥٨	بئر العبد (في سيناء) ١٠، ٦٧،
تركستان ١٠٦، ٣٠٦	بئر عفرى (في مصر) ١١
تركيا ٦، ٢٢، ٤٢، ٤٧، ٥٤، ٨٦، ٨٧، ٩٥، ١٠٧،	بواجق (في تركيا) ١٠٧
١٠٩، ١٧٤، ٢٦٢	بولاق (في القاهرة) ٢٢٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٩،
تشانالديران = جالديران	٢٩٢
	البوطة الغربية (في مصر) ٢٩٧

جامع باب مصلى (في دمشق) ٢٦٤
 جامع تنكر (في دمشق) ٣٠٠
 جامع راس الكيش (في القاهرة) ٢٠٦
 جامع الرحمة (في القاهرة) ٢٠٧
 جامع الروضة (في القاهرة) ٢٠٦
 جامع شيخو (في القاهرة) ٢٨٦
 جامع عمرو بن العاص (في القاهرة) ٤٩
 جامع لطيف (في القاهرة) ٢٠٦
 جبال الأمانوس (لواء اسكندرون) ١٠٤، ٤٥،
 ١٣١، ١٣٣

الجبل الأحمر (في مصر) ٢٨٣
 الجبل الأسود (في تركيا) ١٠٨
 جبل أوزكلي (في تركيا) ١٥٠
 جبل بركات (في تركيا) ١٠٤
 جبل تكلي بلي (في تركيا) ١٤٢، ١٥١
 جبل الحرمون (في سوريا) ٧٨
 جبل الزاوية (في سوريا) ١٥٥
 جبل سبحان (في تركيا) ١١١
 جبل سهند (في إيران) ١١٣
 جبل صقل طوتان (في تركيا) ٨٧
 جبل الصوف (في تركيا) ٩٥، ٩٨، ١٠٣
 جبل الطور (في سيناء) ٢٧٣
 جبال طوروس (في تركيا) ٢٠
 جبل قاسيون (في دمشق) ٥٨، ٥
 جبل القرص (في تركيا) ١٣٦
 جبل الكرد (في سوريا) ١٠٤
 جبل الكرمل (في فلسطين) ٧١
 جبل كاويرطاغي (لواء اسكندرون) ١٠٤
 جبل نابلس (في فلسطين) ٥٠، ٦٩، ٧١، ١٣٣،
 ٢٠٨، ٢١٥
 جزيرة بولاق (في النيل) ٢٩٢

تكية المحيوي بن العربي (في دمشق) ٣٠٣، ٣٠٨
 تل الأكراد (في تركيا) ٩١
 تل حمدون (في تركيا) ٩٥، ١٣٢، ١٣٣
 تل السلطان (في سوريا) ٨٣
 تل العجول (في فلسطين) ٦٩
 تل الفار (في سوريا) ٨٨، ٢٤٨
 تللكلخ (في سوريا) ٨٢
 تيزين ٢٠
 التيه (في سيناء) ٢٧٣

ث

ثغر الاسكندرية = بندر الاسكندرية ٢٠٦، ٢١٥
 ثغردمياط = بندر دمياط ٢٠٦، ٢١٥
 ثغرشيد (في مصر) ٢٠٦
 ثغور الجزيرة (في سوريا) ٢٠
 الثغور الرومية ٢٠
 ثغور الشام ٢٠

ج

جاسم (في سوريا) ٧٤
 جالديران = تشالديران ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٥،
 ٢٥٨، ٢٥٩
 الجامع (في سوريا) ١٢
 جامع ابن طولون (في القاهرة) ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٤
 جامع الأحمدية (في دمشق) ٢٦٣
 الجامع الأزهر (في القاهرة) ٤٩، ٢٠٧، ٢٨٧،
 ٢٨٨
 جامع الأطروش (في حلب) ٢٥٧
 الجامع الأموي (في دمشق) ٧٧، ٧٨، ١٠٨، ٢٦٤،
 ٢٦٧، ٢٦٩، ٣٠٩
 جامع باب الخرق (في القاهرة) ٢٠٦

٦١، ٧٩، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٨٨،
 ٩٥، ٩٦، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ١١٩،
 ١٢٨، ١٢٩، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨،
 ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٥١، ١٥٢،
 ١٥٣، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧،
 ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦،
 ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦،
 ١٨٩، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧،
 ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣،
 ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤،
 ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢،
 ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠،
 ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥،
 ٢٨٠، ٢٨٩، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧،

٣٠٨، ٣٠٩

حماة ٧٩، ٨٢، ٨٣، ٩٥، ١٣٣، ١٤٠، ١٥٣، ١٥٥،
 ١٧١، ١٧٢، ١٩٢، ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٤٥،
 ٢٤٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٣،
 ٢٦٤، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩،
 حمام الحموي (في دمشق) ٢٦٦، ٢٦٧
 حمام السلطان قايتباي (في دمشق) ٢٦٦، ٢٦٧
 الحمحة (في تركيا) ٩٥
 حص ٧٨، ٧٩، ٩٥، ١٥٥، ٢٥٢، ٢٦٤، ٣٠٣،
 ٣٠٧،

حميص (في تركيا) ٩٥
 حوران (في سوريا) ٢٩، ٧٤
 الحوش السلطاني (في القاهرة) ٤١، ٦٠، ١٥٩،
 ٢١٢، ٢١٩
 حي العارة (دمشق) ٢٦٧
 حيفا (في فلسطين) ٧١
 حيلان (في شمال حلب) ٨٧، ٢٤٧، ٢٤٨، ٣٠٥،

جزيرة رودوس ٣٠٢

جزيرة الروضة (في النيل) ٣٦

الجزيرة السورية = الجزيرة الفراتية ٢٠، ١٠٨،
 ١٣٠

جزيرة الفيل (في النيل) ٢٨٥

الجزيرة الوسطى في القاهرة ٢٩٦

الجسر الأبيض (في دمشق) ٢٦٨

جسر قنسرين (جنوب حلب) ٨٣

جسر ملاذ كرد (في تركيا) ١١١

جسر يعقوب (في فلسطين) ٢٦٩

جنين (في فلسطين) ١١

الجيزة (في القاهرة) ٢٠٦، ٢٩٥، ٢٩٦

ح

الحاج سليمان = هاني = حين

حاصبيا (لبنان) ٧٨

حبك حور (في تركيا) ١٢٨

حبوة (في مصر) ١١

الحجاجية (في مصر) ٦٦

الحدث الحمراء = كينول = كينوك

حدرة البقرة (في القاهرة) ٢٣٦، ٢٨٦

الحدود الشامية ٢٢

حوران (في تركيا) ١٠٨، ١٢٠

الحرمان الشريفان ٢٠٧، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٨٤

حسبا = حصيا (في سوريا) ٧٩

الحسينية (في القاهرة) ١٩٦، ١٩٧

حصن كيفا (في تركيا) ١٠٩

حصن المنصور (في تركيا) ٢٣

حقراوة (في تركيا) ١٢٩

حلب ١٢، ١٣، ٢٠، ٢٨، ٢٩، ٣٥، ٤٠، ٤١، ٤٢،

٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١،

حين = هاني = الحاج سليمان (في تركيا) ١٠٩ ،
١٢٨

خ

خان الخليلي (في القاهرة) ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٠
خان حسيا (في سوريا) ١٥٥
خان السلطان (في تركيا) ١٤٤
خان طومان (في سوريا) ٨٤
خان عياش = خان لاجين (في سوريا) ٧٨
الخاتناه السرياقوسية (في مصر) ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٦ ،
١٥٧ ، ١٦٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠
خاتناه سعيد السعداء (في مصر) ٤٩
خان لاجين = خان عياش
خان اللجون (في فلسطين) ٧١
خان منجك (في سوريا) ١٥٥
الخربة = خربة اللصوص (في سوريا) ١١ ، ٧٤
خربوت = خربوط (في تركيا) ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧
الخربة (في فلسطين) ١١
خرمان (في تركيا) ١٤٦
الخشاين (في القاهرة) ٢٠٧
الخطارة (في مصر) ١١ ، ٦٦ ، ١٥٧
خليج اسكندرونة ٤٨ ، ٥٤ ، ١٣٣ ، ١٤٤
خليج الزعفران (في القاهرة) ٤٤
خليج مرسين (في تركيا) ٥٤ ، ١٤٢
الخليل (في فلسطين) ١٢
خوي (في إيران) ١١٢ ، ١٢٦



دارالبقاء (في القاهرة) ٢٠٧
دارخليد (في سوريا) ٧٤

دارالسعادة (في دمشق) ٣١٠
الداروم (في فلسطين) ١٢
داريا (في سوريا) ٢٤٤
دارينخ = دادينخ (في سوريا) ٣٠٥
دبركي = ديار بكر = آمد
درندة (في تركيا) ٢٣ ، ٤٢ ، ١٠١ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
١٤٦
الدكة (في القاهرة) ٣٨ ، ١٩٤
دلوك (في تركيا) ٢٠
دلتا النيل ٤٤ ، ٥٨
دمشق ١١ ، ٢٩ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ،
٧٨ ، ١١٣ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢٢٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ ،
٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ،
٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ،
٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨
دمنهو (في مصر) ٤٤
دمياط (في مصر) ١٩٨ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤
دوركي = ديريك (في سوريا) ٨٧
دولة آق قيونلو = الغنم الأبيض ٢٢٠
الدولة الصفوية ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
الدوير ٣٠٩
ديار بكر = دبركي = آمد
الديار الشامية = بلاد الشام
ديارمضر ١٢٠
الديار المصرية = مصر
الديار المقدسة ١٦٨
ديرالطين (في مصر) ١٩٧

ذ

ذرعين (في فلسطين) ١٢

ر

رأس الحسينية (في القاهرة) ١٧٥

رأس الرمل (في القاهرة) ٢٨٦

رأس العين (في سوريا) ١٤٤

راشيا (في لبنان) ٧٨

الربوة (في دمشق) ٢٦٨

الرستن (في سوريا) ١٥٥، ٧١

رشيد (في مصر) ٢٣٤

رعبان ٢٠

رفح (في فلسطين) ١١

الرمل (في مصر) ٦٧، ٥٨

الرمل (في القاهرة) ٢٧٧، ٢٣٦، ٧١

الرها = أورفة (في تركيا) ١١٩، ١٠٨، ١٠٧، ٦

١٢٠، ١٢٨، ١٦٣، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥

روسة (في تركيا) ١٩٩

الروضة (في القاهرة) ٢٠٦

الريدانية (في مصر) ١٠، ٤٥، ٥٣، ٥٩، ٦٥،

١٥٧، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٥، ٢٢٧،

٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢،

٢٦٣، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٢،

٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢

ز

زاوية بابا طشقون (في تركيا) ١١١

زاوية الزيات (في القاهرة) ٢٠٦

زاوية السلطان قره يوسف بن محمد براك (في

إيران) ١١٢

زاوية الشيخ عماد الدين (في القاهرة) ٢٠٧، ٢٨٦

زاوية كهنبوش (في القاهرة) ٦١، ١٧٥

زاوية المرج (في القاهرة) ٢٠٦

زحر (في الأردن) ١٢

الزعقة (في مصر على حدود فلسطين) ١١، ٦٩

زغزغن (في سوريا) ٨٨، ٨٩، ١٥٢، ٢٤٨

س

سارونة (في فلسطين) ٧١

السبع حدرات (في القاهرة) ٢١٢

سبيل رأس سويقة عبد المنعم (في القاهرة) ٢٠٦

سجن الديلم (في القاهرة) ٢٨٨

سراقب (في سوريا) ٨٣، ٣٠٨

سرفندكار (في تركيا) ٢٣

سرمين (في سوريا) ٣٠٥، ٣٠٨

سروج (في تركيا) ١٢٠

سرياقوس (في مصر) ١٠، ٥٢، ٥٨

سسع (في سوريا) ٢٦٩

السعيدية (في مصر) ١١، ٦٦

السلفة (في فلسطين) ١٢

سمرقند (في الاتحاد السوفياتي) ١٢٠

سهل أزنة (في تركيا) ١٣٣

سهل المتخ (في جنوب حلب) ٨٣

السوادة (في مصر) ١١، ٦٧

سوران قولي (في إيران) ١١٣، ١١٤

سوق الحرير (في دمشق) ٢٦٨

سوق الحميدية (في دمشق) ٢٦٣

سوق السلاح (في دمشق) ٢٦٨

سوق النحاسين (في دمشق) ٢٦٤

سوريا ٢٧

سيدي سعد (في حلب) ٣٠٨
سيس (في تركيا) ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٥٠، ١٠١،
١٩١، ٢٢٥
سيناء (في مصر) ٦٥، ٢٧٣
سيواس (في تركيا) ٢٥

الصنين (في سوريا) ١٢
الصورة (في القاهرة) ١٥٨، ١٦٦
صيحة نخل معن (في مصر) ١١
الصين ٣٠٦

ط

ش
شبرا (في القاهرة) ٢٢٢، ٢٢٤
شبين القناطر (في مصر) ٥٨
الشرابشين (في القاهرة) ٢٨٥
شرو (في إيران) ٢٢٠
الشرقية (في مصر) ٦٦، ٢٠٨، ٢٨٤، ٢٩٤
شقحب (في سوريا) ١٢، ٧٥، ٧٦، ١١٣
شيراز (في إيران) ١٢٠
شير (في سوريا) ١٥٥
الشام = بلاد الشام

طبرية (في فلسطين) ١١، ٧١، ٧٤
طرابلس (في لبنان) ٤٠، ٨٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٣،
١٥٥، ١٧٢، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٨، ٢٦٤
٣٠٣، ٣٠٧، ٣٠٨
طرسوس (في تركيا) ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٥٤، ١٨١،
١٩٢، ١٩١
طفس (في سوريا) ١٢
طولكرم (في فلسطين) ٧١
الطيرة (في فلسطين) ١٢

ع

ص
صاروز (في تركيا) ١٥٠
الصالحية (في دمشق) ٢٤٤، ٢٦٨، ٢٧٠
الصالحية (في مصر) ١٠، ٥٨، ٦٦، ٦٧، ٧٦،
١٥٧، ٢٨٠، ٢٩٥
الصبيبة (في القاهرة) ٢٣٦
الصعيد (في مصر) ٢٧٤، ٢٩٥، ٢٩٦
صحن فرعون (في القاهرة) ٢٢١
صفد (في فلسطين) ٨٢، ١٣٣، ١٨٣، ٢٤٧،
٢٥٢، ٢٥٨، ٢٦٤، ٣٠٣
الصليبية (في القاهرة) ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٤،
٢٩٥
الصمان ٧٤
مصوم (في تركيا) ٢٦٢

العباسية (في القاهرة) ٥٣، ٦٧
عدراء (في سوريا) ٧٨
عجرو (في مصر) ٢٧٣
المريش (مصر) ١١، ٦٥، ٦٧
العراق ١٠٨، ١١٢، ١٤٢، ١٧١، ١٧٣
عزاز = أعزاز
العقبة = عقبة أفيق (في سوريا) ٧٤
العقبة (في الأردن) ١٧٦
عقبة بغراض (في لواء اسكندرونة) ٤٥
العكرشة (في مصر) ٢٨١
عمارة السلطان قايتباي (في دمشق) ٢٦٦-٢٦٧
العمق (في لواء اسكندرونة) ٢٣، ١٠٤، ١٠٥،
١٢١، ١٤١
العوجاء (في فلسطين) ٧١، ٧٥

ق

القابون (قرب دمشق) ١٥٥ ، ٢٤٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
٢٧٣ ، ٢٦٦
قارا (في سوريا) ٧٩ ، ١٥٥
قارص (في تركيا) ٢٣
قاقون (في فلسطين) ١١ ، ١٢ ، ٧١
قاعات البراغية (في القاهرة) ٢٢٤
قاعة البحرة (في القاهرة) ٢٢١
قاعة البيسرية (في قلعة القاهرة) ٢١٦
قاعة ناظرالخاص يوسف (في القاهرة) ٢١٦
القاهرة ٥ ، ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٥ ،
٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٣ ،
٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ،
٧٥ ، ٧٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٤٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ،
١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ،
١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ،
٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ،
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ،
٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،

٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧

القبيلية (في مصر) ٢٩٤

قبراس سيدنا يحيى بن زكريا (في دمشق) ٢٦٨

قبر سليمان بن عبد الملك (شمال حلب) ٨٨

قبر الحويي بن عربي (في دمشق) ٢٧٠

عن أرتلو أباكار (في تركيا) ١٥٠

عينتاب (في تركيا) ٢٣ ، ٢٨ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٧٩ ،

٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٦ ،

١٥١ ، ١٥٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧

عين جالوت (في فلسطين) ١١

عين الحلاب (في تركيا) ١٠٨

عين دلوک (في تركيا) ١٥١

عين العرب (في سوريا) ١٢٠

عين الفردوس (في سوريا) ٨٣

العين المباركة (في سوريا) ٨٤ ، ١٥٣

غ

غباغب (في سوريا) ١٢

الغراي (في مصر) ١١ ، ٦٧ ، ٧٦

الغربية (في مصر) ٢٨٤ ، ٢٩٤

غزة (في فلسطين) ١١ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ،

٨٢ ، ٢٠٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ،

٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،

٢٧٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٨

غيظ جاني بك (في مصر) ٢٠٧

الغور (بين فلسطين والأردن) ٧٤

غوطة دمشق ٣٠٠

ف

فاقوس (في مصر) ٦٦

الفرما (في سيناء) ٦٧

فكة (في تركيا) ٥٥

فلسطين ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٢٦٣

فم الأسد (في تركيا) ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٤١

قلعة برج الرصاص (في تركيا) ٤٠	قبر هود عليه السلام (في دمشق) ٢٦٨
قلعة درندة (في تركيا) ٤٢، ٥٥، ١٠١، ١٠٢،	قبر الوايلي (في مصر) ١١
١٤١	قبة الإمام الشافعي (في القاهرة) ٢٠٦
قلعة دمشق ٧٩، ١٥٦، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٨، ٢٤٤،	قبة النسر (في دمشق) ٢٦٧
٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٨٩، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣٠٩،	قبة النصر على سوار (في دمشق) ٥٨، ٥
قلعة الراوندان (في تركيا) ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧،	قبة يشبك الدوادار (في مصر) ١٩٦
قلعة الروم = قلعة المسلمين (في تركيا) ٢٣، ٨٦،	قبة يلغا (في دمشق) ١٢، ٧٧، ١٥٥، ٢٤٣، ٢٦٩
١٢٠، ٢٣٦،	القدس = بيت المقدس
قلعة زمنطو = قلعة ضماتي (في تركيا) ٢٣، ٢٨،	القدم (في سوريا) ١٧، ١٥٥
٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٠، ٢٣٣،	قره صو = نهر قره صو
قلعة سيس (في تركيا) ٤٧، ٥٠، ١٠١، ١٠٢،	قرنجا ارمق = نهر قرنجا ارمق
١٣٧، ١٣٨،	القسطنطينية = استانبول
قلعة شيزر (في سوريا) ١٥٤	القصر الأبلق (في القاهرة) ١٥٨
قلعة عينتاب (في تركيا) ٤٠، ٥٤، ٩١، ٩٢،	القصر الكبير (في القاهرة) ٥٩
٩٣، ٩٤، ٩٥، ١٠٠،	القصور (في مصر) ١١
قلعة بغراض (في تركيا) ٢٢٩	قطرى (في فلسطين) ١٢
قلعة القاهرة ٤٤، ٤٧، ٥٣، ٥٩، ١٥٨، ١٥٩،	القطيفة (في سوريا) ٧٩، ٢٤٤
١٦٠، ١٨٦، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٦،	قطيا (في سيناء) ١٠، ٦٧، ٧٦،
٢٠٨، ٢١١، ٢١٦، ٢١٩، ٢٤١، ٢٧٣،	القنفقاس (في الاتحاد السوفياتي) ١٢٩
٢٧٨، ٢٨٨، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠،	قلعة أخلاط (في تركيا) ١٢٧
قلعة القلّة (في تركيا) ١٣٧	قلعة أدنة (في تركيا) ١٣٤
قلعة كلس (في تركيا) ١٠٤	قلعة إياس (في تركيا) ٤٨، ١٢٨، ١٩٠،
قلعة كولك (في تركيا) ١٨٥-١٨٦	قلعة البيرة (في تركيا) ١٢٨
قلعة كوار (في تركيا) ١٩٦	قلعة تل بشار (في تركيا) ٤٠
قلعة المسلمين = قلعة الروم	قلعة جباحور = جباحجور (في تركيا) ١١٠
قلعة ملطية (في تركيا) ٢٤٧	قلعة الحصن = حصن الأكراد (في سوريا) ٨٠،
قلعة مصيايف (في سوريا) ٨١-٨٢	٨٢
قلعة نجمة ٨٩	قلعة حلب ٤٠، ٤٢، ١٥٣، ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٠٥،
القلمون (في سوريا) ٧٩	٣٠٦
القليوبية (في مصر) ٥٨	قلعة خرمان (في تركيا) ١٤٣، ١٤٤، ١٥٠،

قحة (في فلسطين) ١٢

قناة السويس ٦٧

قناطر أبي المنجا (في مصر) ٢٠٦

قناطر السباع (في القاهرة) ٢٩٤، ٢٨٦

قناطر شبرمنت بالجيزة (في القاهرة) ٢٠٦

قناطر باب البحر (في مصر) ٢٠٦

قنسرين (جنوب حلب) ٨٣

القنيطرة (في سوريا) ٢٦٩

قورس (في تركيا) ٢٠

قير شهري (في تركيا) ٢٣

قيسارية = قيصرية (في تركيا) ٢٣، ٢٧، ١٩٥،

٢٦٨، ٢٤٥

ك

كختا (في تركيا) ١٦٤

كركر (في تركيا) ١٦٤

الكسوة (في سوريا) ١١، ٧٥، ٧٦

الكمة المشرفة ٢٦٩

الكلاسة (في دمشق) ٢٦٨

كلّيس كلز (في تركيا) ١٠٤، ١٠٥، ١٢٩

كيليكيا (في تركيا) ٢٠، ٢٢، ٥٤، ١٤٢

كورة العلا (في سوريا) ١٩٤، ١٩٥

كوندزي (في تركيا) ٢٣

كينول - كينوك = الحدث الحمراء (في تركيا)

١٤٢، ١٥١، ١٥٢

ل

اللجون (في فلسطين) ١١، ٧١

لد (في فلسطين) ١٢

لبنان ٧٨

م

ماردين (في تركيا) ٨٧، ١٦٧، ١٧٤

ماوندة (في تركيا) ١٩٥

المجامع ١٢

مجمع اللغة العربية (في دمشق) ٨، ٥٨

المحلة (في مصر) ٢٩٤

المحيط الهندي ٢١٨

مدرسة الجاي اليوسفي (في القاهرة) ١٥٨

مدرسة الشيخ أبي عمر (في صالحة دمشق) ٢٤٤

المدرسة النورية (في دمشق) ٢٦٨-٢٦٩

مدرسة السلطان الغوري (في القاهرة) ٢٨٧،

٢٨٨، ٢٩٨

المدينة المنورة ٧٠، ١٢٢، ١٦٨، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢٦٠

مرج ابن عامر (في فلسطين) ٧١

مرج دابق (في سوريا) ٨٨، ٢٠٣، ٢٢٧، ٢٤٨،

٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٥٩،

٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٣،

٢٨٤، ٢٨٨

مرج سكان (في إيران) ١١٢

المرجة (في دمشق) ٣٠٨

مرعش (في تركيا) ٢٠، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٣٣، ٤٨،

٨٧، ١٠٧، ١٣١، ١٣٦، ١٤٥

مزارات الباب الصغير (في دمشق) ٢٧٠

مزار الشيخ بركات (في سوريا) ٨٨

مزار الشيخ رسلان (في دمشق) ٢٧٠

المسجد الشريف النبوي (في المدينة المنورة) ٢٠٥

مسجد القصب = الأتصاب (في دمشق) ٢٦٦

مسجد الحيوبي بن العربي ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٨

المسلمية (في سوريا) ٨٨

مشهد النبي داود = شهد الشيخ داود (في سوريا)	٢٥١، ٢٤٨
مصر = الديار المصرية ٦، ٧، ١٧، ١٩، ٢٧، ٢٨،	٣٣، ٣٩، ٤٤، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٦، ٦٧،
٦٩، ١٥٥، ١٦٨، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤،	١٧٦، ١٨٢، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١،
١٩٤، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٦،	٢١٢، ٢١٣، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣١،
٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٣،	٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٧،
٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٨،	٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٥،
٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٤،	٢٩٥، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠،
مصطبة السلطان بالقابون (قرب دمشق) ١٥٥،	٢٤٣، ٢٤٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٣٠١، ٣٠٩،
مصياف (في سوريا) ٨٢	
المطرية (في مصر) ١٥٧، ١٧٥، ٢٧٢، ٢٨٤،	
المطيلب ١٠	
المصلى بميدان الحصى (في دمشق) ٢٦٤	
معان (في الأردن) ٧٤	
معرة النعمان (في سوريا) ٨٣	
الملاحة البيضاء (في تركيا) ١١١	
مقام سيد أحمد البدوي (في مصر) ٢٠٧	
المقشرة (في القاهرة) ٢٨٣، ٢١٤،	
مقصورة الجامع الأموي (في دمشق) ٧٨	
مكتب الدراسات الإسلامية (في دمشق) ٣٠	
المكتبة السلطانية (في أستانبول) ٨، ١٦٠،	
مكة المكرمة ٨، ١٦٠، ١٦٨، ١٩٤، ٢٠٦، ٢٦٩، ٢٩٧،	٢٩٩
ملاذ كرد = ملش كرد (في تركيا) ١١٠، ١٢٨،	
ملطية (في تركيا) ٢٠، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٤٢، ٤٧،	
٥٣، ٥٤، ٨٦، ٨٧، ١١١، ١٥٣، ١٦٥،	
١٨٢، ٢٢٠، ٢٤٧،	
ممر بيلان (في لواء اسكندرون) ١٠٤، ١٣١،	
مملكة حسن الطويل ١٧١، ١٩٩، ٢٠٠،	
المملكة الشامية ٦٥	
المنارة الشرقية بالجامع الأموي (في دمشق) ٢٦٨	
منبج (في سوريا) ٢٠	
منغوليا ٣٠٦	
المنيا (في مصر) ٢٩٥	
موش (في تركيا) ١١٠، ١٢٨،	
الموصل (في العراق) ١٠٧	
الميدان = ميدان تحت القلعة (في القاهرة) ١٩٥،	
٢١٢، ٢١٦، ٢١٩، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٧٧،	
الميدان = الميدان الأخضر (في حلب) ٨٥، ١٥٢،	
٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٤، ٢٥٥، ٣٠٦،	
الميدان الأخضر (في دمشق) ١٥٦، ٣٠٠،	
الميدان التحتاني (في دمشق) ٢٦٤	
ميدان الحصى (في دمشق) ٢٦٤	
ن	
نابلس (في فلسطين) ٤٦	
ناغجوان = تاسو	
الناصرية (في مصر) ٢٨٥-٢٨٦،	
النبك (في سوريا) ٧٩، ١٥٥،	
نصاري (في تركيا) ١٢٦،	
نصقرغين (في تركيا) ١٥١،	
نهر آجي جاي (في إيران) ١١٣،	
نهر آق صو (في تركيا) ١٤٥،	

٢٩٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٣	نهر الأردن = نهر الشريعة ٧٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦
النيرب الأعلى (في دمشق) ٢٦٨	النهر الأزرق = كوكسو (في تركيا) ١٤٢ ، ١٥١
نيسابور (في إيران) ١٠٣	النهر الأسود (في سوريا) ١٠٤
	نهر البليخ (في سوريا) ١٠٨
هـ	نهر جيحان (في تركيا) ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥١
هذا الحور (في تركيا) ١٢٦	نهر الحلاب (في تركيا) ١٠٨
هرات (في أفغانستان) ٢٢٠	نهر دجلة ١٠٨
الهند ٨ ، ٢٠٣ ، ٢١٥	نهر سيحان (في تركيا) ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٤
هاني = حين = الحاج سليمان	نهر صورون (في تركيا) ١٣٦
و	نهر العاصي (في سوريا) ١٠٤ ، ١٥٥
واد السواد (في إيران) ١١٢	نهر عفرين (في سوريا) ١٠٤
وادي التيم (في لبنان) ٧٨	نهر العوجاء (في فلسطين) ١٠ ، ١١ ، ٧٠
وادي الخزندار (في سوريا) ١١٣	نهر الفرات ٢٠ ، ٢٥ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٥
وادي الظلمات (في إيران) ١٢٦	١١٠ ، ١١١ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٦٧ ، ١٧٢
الواردة ١١	١٧٣ ، ٢٢٠ ، ٢٧٤
الوطن العربي ٢٩٩	نهر قزجا ارمق (في تركيا) ١٤٤ ، ١٥٠
ي	نهر قره صو (في تركيا) ٤٧ ، ١١١
يافا (في فلسطين) ٧	نهر قويق (في سوريا) ٨٣
اليروك (في سوريا) ٧٤	نهر مراد صو (في تركيا) ٢٥ ، ٤٧ ، ١١١
يفرا (في تركيا) ١٤١	نهر المقطع = نهري قيشون (في فلسطين) ٧١
	نهر النيل ١٥٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩١

فهرس الكتب

أ	د
أخبار الأول وآثار الدول ٢٣، ٣٠	دائرة المعارف الإسلامية ٣٠
أعلام الوري فين ولي من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ٧٠، ١٦٦، ٣٠٢	الدرر الكامنة ٢٣، ٢٥
الانس الجليل ٦٧	الدول الإسلامية ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٣٠، ١٠٦، ١١٢، ٢٢٠
ب	ر
بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢٣، ٣٩، ٥٤، ٦١	الروضتين ٢٢
١٦٣، ١٨٢، ٢٣٧، ٢٦١	ز
بلدان الخلافة الشرقية ١٠٣، ١٠٩	الزهاوين ١٢٤
ت	س
تاريخ ابن الفرات ٢٣	السلوك ٥٣، ٦٩، ٧٧، ٨٥، ٨٩
تاريخ ابن الوردي ٢٣	ص
التعريف بالمصطلح الشريف ١٠، ٣٠٦	صبح الأعشى ١٠، ٦٦، ١٨٢، ٢٥٣
ج	صحيح البخاري ١١٧، ١٢١
جغرافي لغاتي ٥٥، ١٠٦، ١٢٩	صحيح مسلم ١٢١
جولة أثرية ٢٢	ض
ح	الضوء اللامع ٩، ١٢، ١٣، ٢٣، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٤٦، ٤٩، ١٧٦
حدائق الياسمين ١٩٢	ف
خ	فتوح الشام ١٣
خطط المقريري ٥٣	

في رحاب دمشق ٢٠٦

ق

قاموس الأعلام (تركي) ٣٠، ١٢٧، ١٢٨

قاموس المحيط ١٠٣

القدوري ١٢

القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ٥٨، ٣٠١،

٣٠٣

م

محيط المحيط ١١٨

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ

الإسلامي ٢٣، ٣٠

معجم البلدان ٥٣، ٦٥، ٦٧، ٧١، ٧٤

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ١٧٤، ٢٣٦،

٢٤٣، ٢٥١، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٨٩

المنار ١٢

المواعظ ٣٨

المواعظ والاعتبار ٦٧

ن

النجوم الزاهرة ٢٣، ٢٤، ٣٣، ٣٤، ٥٢، ٥٨، ٦٦،

١٤٢

نهاية الأرب ٩٥

و

ولاة دمشق في عهد المماليك ٢٦٣-٢٦٧

فهارس الموضوعات

الصفحة	الصفحة
٤١	٥ المقدمة
٤٢	٩ مخطوطة رحلة يَشْبُك الدوادار .
٤٣	٩ وصف المخطوطة .
٤٤	١٠ تسمية هذه الرحلة .
٤٥	١٢ نهج تحقيق الرحلة .
٤٨	١٣ مؤلف الرحلة .
٥٠	١٧ تاريخ الإمارة الدلفادرية .
	١٩ علاقة الشام بمصر .
٥٥	٢٠ العواصم والثغور .
٦٣	٢٣ بلاد الإمارة الدلفادرية .
٦٥	٢٣ تحقيق تسميتها بالدلفادرية أو ذي القدرة .
	٢٥ تاريخ الأسرة الدلفادرية .
٦٩	٣١ نصوص وإضافات على الرحلة
٧٧	(١) ثورة شاه سوار .
٧٩	٣٣ أول الفتنة بين الدلفادرية والماليك .
٨٤	٣٤ شاه سوار .
٨٧	٣٥ إهمال أمر شاه سوار .
٩١	٣٥ التجريدة الأولى لقتال سوار .
٩٥	٣٦ الملك الأشرف قايتباي الظاهري .
٩٨	٣٧ التجريدة الثانية لقتال سوار .
١٠٦	٣٩ خروج التجريدة إلى سوار واندحارها .
١٠٨	

الصفحة	الصفحة
١٥٩	وصف بلدة حين .
١٦١	المؤلف في ملازكرد ومنايع الفرات .
١٦١	جبل سبجان .
(٢) طمع الدول المجاورة	وصف مدينة تبريز .
بالماليك ونهاية يشبك	الليلة الأولى في تبريز .
الدوادار .	المؤلف وحسن الطويل .
١٦٣	عودة المؤلف من تبريز .
١٦٣	لقاء المؤلف للأمير أصلان .
١٦٤	رحلة العودة إلى حلب .
١٦٤	رحلة المؤلف إلى معسكر الأمير
الطويل .	يَشْبَك .
١٦٥	المؤلف يروي ما حدث أثناء غيابه .
١٦٦	وصول المؤلف إلى معسكر الأمير
انتصار الأمير يشبك على عسكر	يَشْبَك .
الطويل .	المؤلف يطنب الأمير يَشْبَك بالمديح .
١٦٧	استئناف الحديث عن الرحلة .
محاولة حسن الطويل التحالف مع	فتح قلعة خرمان .
الفرنج .	حصار قلعة زمنطوا .
١٦٨	مفاوضات استسلام شاه سوار .
حجاج حسن الطويل يثيرون الفتنة	تولية شاه بداق الإمارة الدلغادرية .
في الديار المقدسة .	الرحيل إلى درنده .
١٦٩	رحلة العودة إلى حلب .
١٦٩	المراسم السلطانية بالتعيينات الجديدة .
ابن حسن الطويل يستعدي المماليك	رحلة العودة إلى حلب .
على أبيه .	الأمير يَشْبَك في دمشق .
١٧١	العودة إلى القاهرة .
الحملة إلى حماة .	الدخول إلى القاهرة والاحتفال بالنصر .
١٧٢	سوار بين يدي السلطان .
الأمير يشبك يحاصر مدينة الرها .	
١٧٣	
هزيمة يَشْبَك وأسر .	
١٧٤	
مقتل الأمير يَشْبَك .	
١٧٥	
ترجمة الأمير يَشْبَك .	

الصفحة	الصفحة
٢٧٩	٢٣٧
٢٨٠	٢٤١
٢٨١	٢٤١
٢٨٢	٢٤٣
٢٨٣	٢٤٥
٢٨٥	٢٤٦
٢٨٥	٢٤٨
٢٨٦	٢٤٨
٢٨٧	٢٥١
٢٨٨	٢٥٢
٢٨٩	٢٥٣
٢٩٤	٢٥٤
٢٩٥	٢٥٥
٢٩٦	٢٥٦
٢٩٧	٢٥٨
٢٩٨	٢٦٣
٢٩٩	٢٦٦
٣٠٠	٢٧٠
٣٠٢	٢٧١
٣١١	٢٧٢
٣١٣	٢٧٤
٣٢٥	٢٧٥
٣٣٨	٢٧٥
٣٤١	٢٧٦
	٢٧٧
معسكر الريدانية .	موكب خروج السلطان قانصوه
الخطأ الكبير .	الغوري من القاهرة .
محاولة اغتيال السلطان طومان باي .	الرحيل من الريدانية .
معركة الريدانية .	رسالة من سليم شاه .
الدخول إلى القاهرة .	السلطان الغوري في دمشق .
دخول السلطان سليم إلى القاهرة .	السلطان الغوري في حلب .
معارك بولاق والصليبة .	مقدمات الحرب .
النهب والقتل في القاهرة .	خروج السلطان من حلب .
الأمان للأمراء .	معركة مرج دابق .
عودة جان بردي الغزالي .	موت السلطان الغوري .
فرمان السلطان سليم لأهل دمشق في	قتلى معركة مرج دابق .
بشارة النصر وأخذ مصر .	الغنائم .
السلطان سليم في قلعة القاهرة	الجيش المهزوم .
وتنظياته .	السلطان سليم في حلب .
السلطان طومان باي ومراسلاته	السلطان سليم ومخلفات الغوري .
للخليفة وللسلطان سليم .	أسباب هزيمة المماليك .
معركة الجيزة والهزيمة الأخيرة لطومان	السلطان سليم في دمشق .
باي .	صفة معسكر السلطان في القابون .
نهاية السلطان طومان باي .	اضطرابات القاهرة وسلطنة طومان
أعمال السلطان سليم في القاهرة .	باي .
سفر السلطان سليم من القاهرة .	محاولة إعادة تنظيم الدولة في القاهرة .
السلطان سليم في دمشق .	قصاد ابن عثمان إلى القاهرة .
ثورة جانبردي الغزالي .	رسالة سليم شاه إلى طومان باي .
الفهارس .	وصول العثمانيين إلى غزة .
الأعلام .	معركة بيسان .
الأماكن .	الزحف العثماني نحو مصر .
الكتب .	مذبحة في غزة .
الموضوعات .	الخروج إلى الريدانية والاضطراب .

من أعمال الأستاذ محمد أحمد دهمان

التأليف :

ولاية دمشق في عهد المماليك
في رحاب دمشق
دراسات في الثقافة الإسلامية
تاريخ الدول الإسلامية (تعليق ونشر)

التحقيق :

- ١ - النشر في القراءات العشر لابن الجزري .
- ٢ - سنن الدارمي .
- ٣ - البدع والنهي عنها لمحمد بن وضاح القرطبي .
- ٤ - المقتنع في مرسوم مصاحف أهل الأمصار مع كتاب النقط للداني .
- ٥ - المروج السندسية الفسيحة في تاريخ الصالحية لابن كنان .
- ٦ - القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية لابن طولون .
- ٧ - تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر : المجلد العاشر .
- ٨ - إعلام الوري بن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى لابن طولون .
- ٩ - إنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر العسقلاني .
- ١٠ - علم الساعات والعمل بها لرضوان بن محمد الساعاتي .

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٩٨٦/٢/١ م
عدد النسخ (١٥٠٠)

يؤرخ هذا الكتاب لبلاد الشام ومصر خلال مدة تزيد عن نصف قرن تبدأ من سنة ٨٧٥ هـ وحتى نهاية الحكم المملوكي وبدء الحكم العثماني . بدأ برحلة الأمير يَشْبَك الدوادار التي ألفها محمود بن أجا الحلبي قاضي العسكر في الحملة التي قضت على ثورة شاه سوار في الأمانة الدلفادارية على التخوم الشمالية لبلاد الشام ، وقد أجهضت هذه الثورة الدولة المملوكية وأظهرت ضعفها فطمع بها جيرانها ، ومهد ذلك للقضاء عليها من قبل السلطان سليم الأول العثماني .

قدم لنا الكتاب سرداً كاملاً للحوادث التي جرت في هذه المدة محلاً بأسلوب شيق جميع الأسباب التي أدت إلى زوال الحكم المملوكي مع وصف فريد للمعارك التي جرت بين المماليك والعثمانيين تقرأ عن أشهر المؤرخين المعاصرين لها .